قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي

بحوث في العقيدة الإسلامية

تأليف

الدكتور مصطفى حلمي

الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الدعوة

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت لبنان

Title: The bases of Salafis' procedures in Islam

Author: Dr. Mustafa Hilmi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 224

Year: 2005

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي

المؤلف: الدكتور مصطفى حلمي

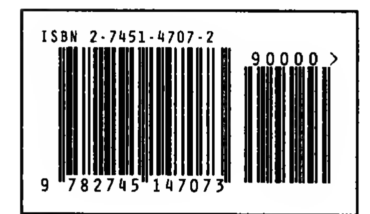
الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

عدد الصفحات: 224

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

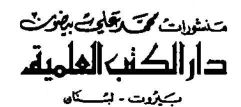
الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4707-2



الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ



بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١١/ ١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على رسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله بشيرًا ونذيرًا.

وبعد، فها نحن بفضل الله ومَنِّهِ وكرمه نصدر الطبعة الرابعة من هذا الكتاب، وهي تواكب حركة اليقظة الإسلامية الآخذة في الاتساع، وتقابلها حركة مضادة بدوافع تغريبية وعلمانية وماركسية.

وإزاء الكم الهائل من البحوث والمقالات والكتب التي حاولت -وما زالت تحاول حصار اليقظة (أو الصحوة) الإسلامية[1] لإجهاضها ثقافيًا وإعلاميًا وسياسيًا، سالكة سبلاً عدة، ربما من أهمها:

١- خلط المفاهيم وإثارة الرأي العام وتنفيره من الاتجاه الإسلامي باختراع ألفاظ ذات مدلولات منفرة كالجمود والرجعية والتعصب والتزمت الخ..

وهي معركة المصطلحات التي نحذر من الانـــزلاق إليها بغير تمهيد للاتفاق على مفاهيمها ومدلولاتها والمقصود منها لا سيما أننا نعالج العقيدة السلفية وندعو إلى اعتناقها والاقتداء بطريقة السلف في تلقي الإسلام وتطبيقه بشرائعه ونظمه وقيمه.

٢- محاولة تطويع حركة اليقظة للمفاهيم الدينية الغربية التي تفصل بين الدين وبين النظم والتشريعات حيث تصاغ الأخيرة بواسطة الفلاسفة والمشرعين يعدلونها ويغيرونها كما يشاءون لملء فراغ العقيدة الدينية.

٣- الدعوة إلى الاقتداء بالحضارة المعاصرة والذوبان في بوتقتها بزعم العصرية.

وإزاء هذه المحاولات الهادفة إلى حصار عقيدة الإسلام وزعزعتها في النفوس، نرى توضيح الرد عليها اختصار بالمقدمة، وفي فحوى الكتاب متسع للشرح والإفاضة:

المقصود بالسلف كمصطلح -كما أوضحنا بصفحات الكتاب- أهل القرون الأولى المفضلة منذ عصر النبي ﷺ ثم الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم وفق

---

(١) ينظر كتاب (الصحوة الإسلامية.. عودة إلى التراث) ط دار الدعوة بالإسكندرية.

مناهج ثابتة نلتمسها في مصادرها بكتب العقائد والفقه وأصوله والتفسير والسنة والسيرة النبوية وتراجم الرجال والتاريخ الخ...

وحتى لا يتبادر إلى الذهن الاقتصار على المدلول التاريخي وحده، نبادر فنقرب المعنى للقارئ فنقول: إن قمم الجبال الشوامخ لا يؤثر فيها انقضاء السنين والقرون، بل تظل قممًا شامخة ترنو إليها الأبصار، وبالمثل فإن أهل العصور الأولى يعبرون عن ذروة حضارتنا (ذلك أن الإسلام قدم للبشرية النموذج الأكمل للمجتمع الرباني الذي حقق الرسول ﷺ به نموذجًا علميًّا لم يستطع الخلل أن يتطرق إليه إلا حينما اختلت قاعدة البناء في القلوب) [١].

فهل نحن في حاجة إلى التأكيد مرة أخرى بأن تطلعنا إلى الاقتداء بالسلف - عقيدة وقيمًا وسلوكًا- لا يعني الرجوع إلى الماضي ونبذ منتجات العصر بل إننا نستخدمها ونتطلع إلى المستقبل والاستعداد له.

كانت الأمة في ظل حضارتها مستمسكة بعقيدتها، مستظلة بشريعة الإسلام طوال نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان، ثم طرأ عليها الاستعمار الخارجي وعوامل الانحراف الداخلي، وهي الآن في حاجة إلى إحياء العقيدة والعودة إلى الشريعة تصحيحًا لأوضاع منحرفة وإعادة الأمة إلى مسارها من جديد بغير حاجة إلى استحداث نظريات ووضع مشاريع وإلا عرضناها إلى المزيد من التقلبات الهادمة وهي في غنى عنها بعد معاناتها في ظل أنظمة فرضت عليها.

ولا نريد ترديد الكلام المعاد عن إمكانيات الأمة البشرية وقدرات علمائها وثرواتها وموقعها والدور السياسي الذي يمكن أن تؤديه إذا عُبِّئَتْ وفق خطة علمية مدروسة موحدة تجمع بين التخطيط العام ورسم الأهداف والخطط التنفيذية [٢].

ومع أهمية كل ذلك، فإن البدء بالإنسان وتصحيح عقيدته هي الخطوة الأولى

(١) إعادة النظر في كتاب المصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي ص ٢٦٠ ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٥م.

(٢) ينظر كتاب (العالم الإسلامي اليوم، الاقتصاد- الموقع - الجغرافي - السكان - التعداد - المشكلات). للدكتور عادل طه يونس- ط مكتبة ابن سينا سنة ١٩٩٠ م.

لتحويله إلى مساره الصحيح لكي تفجر العقيدة في النفوس والقلوب ما سبق أن فعلته في مراحل عصورنا واستمرت تفعله في المواقف الحاسمة في تاريخ الأمة وأشهرها معارك الجهاد في العصور الأولى وطوال تاريخ مواجهتها لأعدائها، ثم حروب التتار والحروب الصليبية إلى الجهاد الأفغاني وحرب العاشر من رمضان في تاريخنا المعاصر.

وكان دأب الرسول ﷺ في دعوته وتربيته وتوجيهاته للصحابة، العناية بالعقائد والقيم وتحقيق الأسوة بشخصه، أي العناية بالإنسان كنقطة البدء.

وقد جاء الوحي الإلهي بالتعريف بالإنسان ومكوناته المزدوجة بين الجسد والروح ودوره ومصيره، وكانت حضارة الإسلام في كل أطوارها معبرة عن هذا التوازن الدقيق، ولعل دارس أثر العبادات في النفس أيضًا يقف على بعض الحقائق في هذا الصدد مما يجعلنا نقدر هذه المزية ونحرص على اتباع سنن الله تعالى في خلق الإنسان، كما أن الموازنة بين التصور الإسلامي للإنسان وتصورات البشر الفلسفية سترينا أنه لا علاج إلا باتباع المنهج الإلهي، فإن الله تعالى هو الخالق العظيم، وهو الشارع الحكيم، فله الخلق والأمر.

نحن إذن في غنى عن الهزات التي حدثت لحضارة الغرب بسبب افتقادها للوحي الإلهي المعصوم، وإلا فلنلق نظرة عابرة عما حدث هناك بسبب التصورات البشرية وما يحتاجه من نظريات سياسية واجتماعية [١] أخذت تتبدل، فأخذوا يغيرون في الأنظمة كلما ثبت إخفاقها كما يغير المرء ثيابه كلما عَنَّ له ذلك!!

وتكفينا مراجعة بعض النظريات السياسية والاجتماعية لنقف على العلاقة بينها وبين تصور أصحابها للإنسان وتعريفهم (الفلسفي النظري) له حسب اعتقادهم وهي مجرد فروض لا تصل إلى حد اليقين والجزم، ومع هذا فقد كانت فعالة في صياغة

(١) اكتفينا بضرب المثال فيما يتصل فقط ببحثنا الذي نحن بصدده -أي العقيدة والفكر- أما النظم والقوانين والتشريعات فلها بحوثها ودراساتها بالمنهج المقارن التي تثبت تفوق الشريعة الإسلامية بأدنى نظر.

ينظر كتاب: أحكام إسلامية إدانة للقوانين الوضعية، للمستشار محمد غراب، ط. دار الاعتصام، ١٩٨٦م.

الحضارة المعاصرة.

إن النظريات عن طبيعة الإنسان كانت تؤلف أساس كل فلسفة ونظام سياسي ونظرية اجتماعية، فقد كان الاعتقاد بفسوق الإنسان عنصرًا أساسيًا في فكر القرون الوسطى. واعتبرت الحركة التنويرية الإنسان كائنًا عقلانيًا في جوهره، ويخضع معتقداته لتمحيص انتقادي.

وفي عصر الدعوة إلى عدم التدخل الحكومي في الشئون الاقتصادية، رأى الداروينيون الاجتماعيون الإنسان منغمسًا في الصراع على البقاء، وهو رأي أحياه من جديد الآن علماء السلوك الحيواني، على أنه فلسفة مجتمعنا الاكتسابي والتنافسي جدًا، وفي السنوات الخمسين التي سبقت صعود هتلر، روجت مجموعة من الفلاسفة الاجتماعيين في ألمانيا نظريات (الدم والتراب، والعودة إلى الغريزة ورفض العقل، والنظر إلى الإنسان وحشًا مفترسًا في جوهره، وإلى الحرب كأعلى شكل من أشكال حياته).

ويقول جون لويس -معلقًا على هذه الآراء-: (وهذه الأفكار ليست أبدًا محض تكهنات مفكرين على جانب من الأصالة: إنها لعبت دورًا في صياغة الحضارة)[1].

من طبيعة الأمم والشعوب- كالأفراد تمامًا- المحافظة على ذاتيتها وأصالتها، فمثلا -هناك في فرنسا- ينادي رئيس أحد الأحزاب المحافظة بالتخلص من المسلمين لأنه يخشى منهم على الطابع المسيحي لفرنسا! وتتضافر دول أوروبا فيما بينها لكي تحافظ على ثقافتها الأوروبية الخاصة ولتحمي أهلها من الثقافة الأمريكية، وتتخذ إسرائيل من التوراة والتلمود والبروتوكولات وثائق ومعالم طريق نحو أهدافها، وتحيي لغتها العبرية الميتة من رقادها لتجعلها وسيلة لحفظ كيانها. من الواجب إذن على أمتنا -بل واجب واجباتها لأنها أمة الرسالة- أن تسترد وعيها بذاتها وتؤدي حق الله -تعالى- عليها لتستأنف دورها في قيادة البشرية كخير أمة أخرجت للناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة في ٢٩ من رجب ١٤١٢ هـ

٢ من فبراير ١٩٩٢م

---

(١) الإنسان ذلك الكائن الفريد ص ١٧- جون لويس- ترجمة د. صالح جواد الكاظم- الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٦ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الحمد لله تعالى يقتضي ذكر نعمه وآلائه، ومنها نفاد الطبعة الثانية في فترة وجيزة، فأسأله -عز وجل- أن ينفع بها القراء، وأسأله العون على إخلاص النية والعمل.

وأعود فأكرر الحمد والشكر لله تعالى على التيسير بإعداد هذه الطبعة التي بين يدي القارئ الكريم. وقد حافظت فيها على البحوث الأصلية للكتاب في طبعتيه الأولى والثانية ومع إجراء بعض التعديلات اختصارًا وحذفًا لبعض بحوث الطبعة السابقة، مع تقديم وتأخير يقتضيه التسلسل التاريخي.

وظل محور الكتاب يدور حول قضايا العقيدة وإن تعددت مباحثها وتكررت، ولكن من زوايا مختلفة، وبمناهج تجمع بين الموضوعية والنقدية والتاريخية، أملاً في تثبيت الأفكار وترسيخها لا سيما أن موضوعنا الرئيسي هو العقيدة الإسلامية.

ونحن حريصون عندما نتكلم عن العقيدة أن نؤكد أننا في حاجة -عند دراستها إلى البناء الصحيح للفرد المسلم والمجتمعات الإسلامية، إذ لاتنقصنا السواعد والعقول كما يقول مالك بن نبي رحمه الله، ولكننا في حاجة إلى حشدها وتجميعها وفق خطط علمية[1].

ولا نحكم هذا الحكم من فراغ ولكن بعد تجارب مريرة أورثتنا الهزائم تلو الهزائم، وهزت ثقتنا بأنفسنا، وجعلتنا نفقد الإحساس بكياننا وسط عالم لا يحترم إلا القوة، ولا يسمع إلا لصوت الصاروخ والمدفع، ونعني بذلك القوة بمدلوليها المعنوي والمادي، فإن الاعتزاز بالعقيدة والثقة بالنفس والحرص على المحافظة على العزة والكرامة قوة، والإنتاج الصناعي والزراعي والعسكري قوة، وهما يسيران جنبًا إلى

---

(١) ينظر رأيه في مقدمة الطبعة الثانية.

جنب، فإن الخلل في إحداهما يؤدي إلى الخلل في الآخر.

ولعل أحد مشكلاتنا الرئيسية البحث عن (الهوية) بين أيديولوجيات العصر من قومية وعلمانية ووطنية ومذاهب فلسفية واقتصادية، فإن أردنا الرؤية الصحيحة، فعلينا متابعة الدور الحضاري الذي قامت به أمتنا عندما كانت رائدة الأمم، حيث قامت الحضارة الإسلامية على ركنين.

أحدهما:

قوة الإيمان وصدق اليقين ورسوخ العقيدة الدينية، مع الفهم الصحيح للإسلام كمنهج للحياة الإيجابية المثمرة.

الثاني:

العناية الفائقة بالعلوم والمعارف بنفس القدر من الاهتمام سواء العلوم الدينية أو غيرها من علوم الكون والطبيعة والرياضة وغيرها استجابة لدين كانت أول أوامره (اقرأ).

والحديث عن (الآراء الكلامية والفرق) قد حفز أحد القراء فجاءني متسائلاً بتعجب: أليس من الأوفق الإعراض عنها والاهتمام بما هو أولى؟

وكان السؤال في موضعه، وأيقظ في نفسي انفعالات كانت هامدة لإبراء الذمة أمام الله تعالى ثم أمام المسلمين، اعترف كما قلت بأن رأي القارئ في موضعه وأقره عليه، ولكن ما الحيلة إزاء مقررات جامعية فرضت علينا الانشغال بمثل هذه القضايا؟

إن إبراء الذمة إذن يقتضي أن أصرح بأنني عندما عرضت لعقائد الفرق فقد اضطررت إليه اضطرارًا، اضطرني إليه دراسة وتدريس (علم الكلام) وفق مناهج الجامعة، وربما كان من ناحية أخرى فاتحة فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، إذ عالجتها بمنهج نقدي من وجهة نظر علماء أهل السنة [١]، فإذا تقيدت بأسماء تلك الفرق فلمجرد الالتزام بالأمانة العلمية.

---

(١) ينظر كتابينا: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين. والسلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، ط دار الدعوة بالإسكندرية.

أما جوانب الخير أو الفوائد العائدة من دراسة العقيدة بهذا المنهج فأولها الاطمئنان التام لسلامة موقف علماء السنة، مع التوصية بالالتزام بهذا الموقف إزاء أية بوادر للانحراف أو الخروج عن عقيدة الأوائل.

وإذا لاحظ القارئ أن هذه الفرق قد انقضت بانقضاء المراحل التاريخية التي ظهرت فيها، فإن ملاحظته صحيحة، ولكن فاته أن بعض عقائدها ظلت متوارثة في عقول البعض، ومن هنا تأتي الفائدة الثانية، أي: التحذير من الانـــزلاق إلى بعض أو كل بدع الفرق المنحرفة عن الجادة.

ولإبراء الذمة فإننا في حاجة إلى زيادة إيضاح لهذه النقطة أي: شدة التحذير من اعتناق بعض عقائد هذه الفرق دون أن ندري، فالحق أنها أصبحت علمًا على انحرافات عن عقيدة السلف، نكتفي بالإشارة إليها سريعًا قبل الدخول إلى مضمون الكتاب:

فإن الخوارج أصبحوا علمًا على (تكفير) المسلمين من مرتكبي الكبائر والحكم عليهم بالخلود في النار.

ومذهب (المرجئة) يشير إلى الاستهانة بأوامر الدين ونواهيه حيث فصلوا بين القول والعمل، وفي صفوفنا الكثير من هؤلاء الذين يهملون في أداء الصلوات والصيام والزكاة بزعم أن (الرب رب قلوب).

(والمذهب الأشعري) - مع اقترابه في كثير من المواضع من عقيدة السلف، إلا أن ما يتضمنه من (تأويل) لا يجعله متطابقًا تمامًا مع العقيدة السلفية ومنهج علمائها. ولعلنا نقنع الأصحاب المتابعين للأشعري أنه هو نفسه انتهى سلفيًا، فالخير كل الخير في الالتزام بالمنهج الأعلم والأحكم الذي كان عليه سلفنا الصالح.

وأفضل ما يقال عند إثارة (الخلافة) أو (الإمامة) بين السنة والشيعة هو بحث (النظام السياسي الإسلامي) أو أحد أركانها الرئيسية، فهل يتم اختيار الخليفة أو الحاكم المسلم عن طريق البيعة والشورى كما حدث في سقيفة بني ساعدة حيث اختار الصحابة أبا بكر ﷺ، أم يتحقق تنفيذًا لوصية رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين ﷺ ثم يتسلسل في أصلابه كما يزعم الشيعة؟

كذلك اشتهر بأنهم أصحاب الرأي والاتجاه العقلي، وفي مقابلهم أهل النص أو السمع. فهل هذا صحيح؟ وهل جاء الرسل بمناهج لا تتفق مع أدلة العقول واقتصر

دورهم على الإبلاغ فحسب بحيث أصبح المتقيدون بطريقتهم أهل النص والسمع؟

وسيتضح لنا في هذا الكتاب بالتحليل والمناقشة أن هذا الرأي يجانب الصواب، فإن الرسول ﷺ (بيَّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله تعالى في القرآن من كل مثل)(١).

إن كل من يفكر بغير تحيز ويسعى بالنية الصادقة ليتأكد بعد الاطلاع والقراءة أن القرآن الحكيم حض على النظر والتفكير والاستدلال العقلي في آيات كثيرة تجل عن الحصر في هذا الحيز.

وإننا لنعجب بعد هذا الإيضاح أن يظن أحد أن علماء السنة حصروا أنفسهم داخل النصوص ولم يتعدوها إلى آفاق العقول.

كذلك، فإن ما حدث في تاريخنا يجعلنا نخشى ونحذر من الانــزلاق إلى نفس البدعة، أي: اختراع مصطلحات وأسماء ثم وضع المسلمين في قوالبها كما فعل المعتزلة قديمًا ويفعل بعض الكتَّاب في عصرنا الحاضر بتقسيم المسلمين إلى فئات: (الاعتدال) و (الجمود) و(التطرف) و(الرجعية).. إلخ.. بينما المنهج العلمي الصحيح وميزان الاعتدال الحق يقتضي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كأسماء (الإسلام) و(الإيمان و(الإحسان) أو (الظالم لنفسه) و(المقتصد) و(السابق بالخيرات).

بعبارة أخرى، إن المعتزلة هم الذين فجروا هذه القضية — أي: ابتداع مصطلحات وأسماء من عندهم ثم تقويم المسلمين وفق تصوراتها. ومع الأسف فإن تأثيرهم المنهجي المعكوس ما زال فعالاً في آراء بعض الكتَّاب والباحثين المعاصرين!!

وبعد: فالشكر واجب لكل من أسدى لي عونًا من أعمال الطباعة والمراجعة والنشر، فجزاهم الله جميعًا عني خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

مصطفى بن محمد حلمي
الإسكندرية في ٢١ من ذي القعدة ١٤٠٥ هـ
٧ من أغسطس ١٩٨٥م

---

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ١٠٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإني أحمد الله تعالى على نعمه وآلائه التي تعز عن الإحصاء والوصف فإنه سبحانه القائل: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾.

إن لساني يلهج بالحمد على إحدى نعمه علي، فقد وفقني في طبعة هذا الكتاب الأولى إلى توضيح بعض القواعد الهامة للمنهج السلفي، وكنت مشغولاً بها لسنين طويلة، حيث كابدت من مناهج البحث في الكتب التي تعرض لعلم الكلام وأصول الدين من وجهة نظر خصوم السلف، دعك من خصوم الإسلام نفسه من الرواد والمستشرقين وتلامذتهم الذين عاثوا في الأرض فسادًا فاقتحموا حصون العقيدة الإسلامية يريدون دكها والقضاء عليها، وتشكيك الأجيال التي وضعها الاستعمار بين أيديهم. ولكن هيهات، فإن للإسلام وكتابه وعقيدته وأمته ربًا يحميه فقيض له العلماء الأفذاذ للدفاع عنه، وكان من فضل الله تعالى عليَّ أيضًا أن تتلمذت على بعضهم، فما زلت أنهل من علومهم حتى اقتربت من فهم العقائد الصحيحة واستوعبتها، فاطمأن القلب وسكن الفؤاد، وأرشدني الله تعالى بفضله وكرمه إلى الطريق القويم، فما زلت أسأله عز وجل أن يثبتنا والمسلمين على طريقه المستقيم حتى نلقاه.

ومن دواعي الحمد لله -أيضًا- أن أذكر نفاد الطبعة الأولى في وقت قصير، وكنت أنوي إعادة طبعه آنذاك، إلا أن شواغل الحياة وأعباءها ومسئوليات العمل وكثرة السفر وإعداد مؤلفات أخرى لازمة للتدريس، كل ذلك حال بيني وبين رغبتي.

إلى أن أذن الله -عز وجل- وأمدني بالاستطاعة على إنجاز الطبعة الثانية، حافظت فيها على هيكل البناء الأساسي للطبعة الأولى مع إضافة مقتطفات من كتب

أخرى نشرها عقب إصدار الطبعة الأولى بالمنهج نفسه، وذلك بما يتناسب مع بحوث الطبع الجديدة.

ولهذا فقد أبقيت على قواعد المنهج السلفي وزودها بمواد إضافية، وأيضًا احتفظت بموقف الشيخ السلفي ابن تيمية من الفرق، مستبعدًا النسق الإسلامي عن الألوهية والإنسان والعالم حيث نشر بموسوعة (معجم أعلام الفكر الإنساني [١])، مكتفيًا هنا بالنسق الإسلامي للإنسان عند شيخ الإسلام الذي استخلصه من الكتاب والسنة، وأكملته بشرح طرق السلوك الفعلي كما ينبغي للإنسان المسلم.

كذلك أضفت لهذه الطبعة بحثًا موجزًا عن الإمام أحمد بن حنبل كمعبر عن منهج السلف بشقيه العلمي والعملي، وأتبعته للتطابق بينهما ودورهما البارز في التعريف بالعقيدة الصحيحة مدعمة بالأدلة لمواجهة المنحرفين عنها.

وكان محور البحوث يدور حول اجتهادات ابن تيمية وشروحه للعقيدة الإسلامية وتأصيله لمناهج شرعية للدفاع عنها لصد موجات الأفكار والفلسفات التي عاصرها و لم يعرفها علماء السلف قبله.

لذلك فقد عنيت ببيان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من أهم الفرق الإسلامية.

والغرض منه شرح العقيدة الإسلامية وفقًا لمنهج ابن تيمية في العرض مع المقارنة لعقائد الفرق المخالفة، فيتضح من هذا المنهج المقارن الفهم الصحيح للعقيدة ويوقظ الوعي تحذيرًا من الوقوع في نفس الانحرافات التي وقعت فيها الفرق المنشقة عن السلف، وحينئذ نأخذ حذرنا فلا نقع في براثنها مرة أخرى فقد نفض علماء السلف أيديهم من هذه الخلافات وحسموها.

وإنه لتحذير لنا أيضًا، معشر المسلمين المعاصرين، حتى لا نسمح بإعادة الكرة من جديد إذ لو جرفنا تيار الجذب المرسوم لنا بمكر ودهاء، لحققنا بلا قصد وبلا شعور رغبات أعداء الإسلام الساعين لبث الفرقة والخصومة بين المسلمين. أما

---

(١) معجم أعلام الفكر الإنساني – تصدير د. إبراهيم مدكور، المجلد الأول – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ – مادة ابن تيمية (ص ٧١– ٨٤).

البحث الخاص الذي كتبته بمناسبة إصدار ترجمة كتاب (لاووست: نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع)، فقد استبعدته لاستنفاد غرضه وكانت عنايتي به آنذاك كنموذج للنقد الموجه لأبحاث المستشرقين بعامة وإني الآن أرى ضرورة حث المسلم الغيور إلى التشمير عن ساعد الجد في طلب معرفة عقيدة الإسلام وشريعته وعباداته ونظمه من مصادرها، فإن تراثنا الإسلامي يضم كنوزًا لا تقدر بثمن، وللكف عن تعظيم كل ما يرد إلينا من الغرب، فبعد تجارب أجيال -قرأت واستوعبت وناقشت ونضجت- نستطيع الإفلات من النفوذ الثقافي الغربي، وأصبحنا مهيئين بصورة أفضل لنقد النظريات الاستشراقية مهما كانت، والدعوة إلى نبذها، للتفرغ إلى الدعوة إلى الله تعالى والتربية وإقامة شرع الله تعالى في محيط المسلمين بدلاً من ضياع الطاقات في محيط قانون الفعل ورد الفعل في المجال الثقافي وحده الذي كان دأب البعض إلى وقت قريب، وكأن الغزو الغربي قد نجح في استدراجنا إلى مراده!!

وهذه هي البداية الحقيقية لمقاومة السيطرة الحضارية الأوربية، وإقامة صرح حضارتنا الإسلامية من جديد (وتوجيه) طاقاتنا كلها إلى هذا الغرض.

يقول مالك بن نبي - رحمه الله تعالى- (فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن نذير هذا الجهاز الهائل، المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية، والإنتاجية، المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يجدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسًا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية، وبلغة الاجتماع: الذي يكسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح) [(١)].

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدوني في إخراج هذا الكتاب وتوصيله إلى يد القارئ فكم بذلوا من جهود وكم كابدوا من متاعب

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة ص ١١٧-١١٨ ترجمة عمر كامل مكاوي وعبد الصبور شاهين - دار الفكر ١٩٦٩.

وذللوا من صعاب.

اللهم اجزهم عني خير الجزاء.

وأسأل الله سبحانه أن يجعل محتوياته علمًا نافعًا للمسلمين، وأن يغفر لي أخطائي وقصوري، وأن يوفقني إلى إخلاص النية ليصبح العمل خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته، فإن الفضل منه وإليه عز وجل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،،

الجيزة في ٢٠ من المحرم سنة ١٤٠٥ هـ

١٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٤ م.

مصطفى بن محمد حلمي

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢]. **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾**[النساء: ١] **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾**[الأحزاب: ٧٠، ٧١] (١).

أما بعد:

فهذا الكتاب، هو مضمون ما قدمنا به لكتاب المستشرق الفرنسي: هنري لاووست «نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع» الذي قام بترجمته الأستاذ محمد عبد العظيم علي.

ولما كانت القضايا التي نوقشت في ثنايا هذه المقدمة يجمع بينها وحدة الموضوع، فقد رأينا -بمشيئة الله- طبعها في هذا الكتاب الصغير، ذلك لأن الكتاب الصغير أكثر قراءة، وأوسع انتشارًا بين القاعدة العريضة للقراء وبذا يتحقق الغرض الذي ننشده وتحصل الفائدة التي نرجوها، بينما لا يقرأ الكتاب الموسع إلا أهل الاختصاص وأصحاب الثقافة الواسعة، وهم في مجتمعنا قليل.

والقضايا التي تعرض لها البحث، ما زالت تشكل عدة مسائل حيوية معاصرة، كالتمييز بين السلف وغيرهم، أو الرأي الصحيح بين الفرق التي تتلخص إجمالاً في اتجاهين: العقل أو النقل، ولا ينبغي أيضًا إغفال التصوف كمنهج ادعى أصحابه أنهم أصحاب ذوق وأهل إرادة، وأرباب حالات ومقامات ولا نستطيع أن نتجاهل

---

(١) «خطبة الحاجة» التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه الكرام، نفتتح بها تقديمنا لهذا الكتاب إحياء لسنة من سنن النبي ﷺ كادت أن تنسى.

المذاهب الفلسفية المعاصرة التي تحاول استغلال خلافات المسلمين في دائرة الاجتهادات الكلامية والفقهية لكي تتسلل إلى وضع مفاهيم غريبة على الإسلام. وربما يتمثل أخطرها في إحدى محاولات الماركسية الأخيرة [١] بإعادة الروح إلى كتاب (الإسلام وأصـــول الحكـــم) [٢] من جديد أو إثارة الدعوة إلى العلمانية [٣] أوتقديم العقل على الشرع أو الفصل بين دوائر العقيدة والشريعة والأخلاق ... إلى غير ذلك من مناهج تحاول التجزئة التي فرضها علينا الغرب الصليبي في تعليمنا، وتشريعنا، وتفكيرنا وسلوكنا، وسياستنا واقتصادنا، ففصل بين الإسلام وحكم الدولة، وأبعد الإسلام عن مجالات الحياة العامة، وتركه داخل المسجد وفي قلوب الناس يمارسونه اعتقادًا وقلما ينـــزلون به إلى التطبيق [٤].

وقد عالجنا هذه القضايا في كتابنا هذا أربعة أقسام.

القسم الأول:

إذا كان المستشرق الفرنسي لاووست يعتبر فلتة بين أترابه من المستشرقين في

---

(١) ينظر البحث التفصيلي لهذه الأساليب بكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد (بلشفة الإسلام عند الماركسيين والاشتراكيين العرب) ط دار الكتاب الجديد ١٩٦٧.

(٢) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٥، وهو كتاب شاذ وغريب يخالف ما يعتقده المسلمون، إذ أنكر مؤلفه فرض الخلافة وفرض الجهاد وفرض القضاء، وكل جوانب الإسلام السياسية والاجتماعية. ومؤلف الكتاب الأصلي أي كتاب ((الإسلام وأصول الحكم)) شخص غير مسلم، ويرجح أن يكون هو أحد المستشرقين الإنجليز وليس هوالشيخ على عبد الرازق، ويمكن مراجعة تفصيلات حقيقة هذا الكتاب وحملته المفعمة بالحقد الأسود على الإسلام ورجاله في كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الريس، من منشورات الدار السعودية سنة ١٩٧٢.

(٣) (العلمانية): تعني التقسيم أو الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، وقد نشأ هذا (المصطلح) على أثر النـــزاع بين الدولة والكنيسة في ظروف تاريخية خاصة بالمجتمع الأوروبي وأوضاعه وقيمه لم يعرفها التاريخ الإسلامي، فالإسلام لا يعرف هذه الأقسام والحكومة جزء منه واتباع منهجه وشريعته في السياسة والاجتماع فريضة من فرائضه.

(٤) الدكتور محمد البهي: (العلمانية والإسلام) (مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر) ص ٥.

حياده وإخلاصه العلمي في دراساته الإسلامية... فلتة من حيث اجتماع المستشرقين بعامة على تشويه وطمس حقائق الإسلام: في عقائده وقيمه وحضارته، ومن حيث تركزت أهداف الاستشراف على تنوعها، في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والاستسلام للمدنية المادية الغربية، فإنه -أي لاووست- لم يسلم من هذا المنهاج الملتات، فقد اضطرب وتخبط في مدركاته لبعض معالم شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية، كما اضطرب فهمه أيضًا في معالجته لموضوع حقوق وأوضاع أهل الذمة في الدولة الإسلامية، واختل فكره كذلك في تفسير أهداف حركة الفتح الإسلامي.. الأمر الذي جعلني -في هذا القسم من الكتاب- أتعرض لهذا التخبط في الإدراك والفهم والالتواء في التفسير والتعليل بالنقد والتحليل.

القسم الثاني:

وإذا كان المسلمون يتلمسون اليوم طريقًا للنهوض، فليس لهم من سبيل إلا الإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، وهذه خلاصة الاتجاه السلفي.

عودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لذلك جاء موضوعنا -بتوفيق الله- في هذا القسم، شرحًا لبعض قواعد الاتجاه السلفي التي تساعد على إبرازه وتمييزه عن باقي الاتجاهات سواء في الأزمنة الماضية أو عصرنا الحاضر.

القسم الثالث:

وإذا فهمنا شيخ الإسلام ابن تيمية: على أنه الإمام المسلم الذي قصد بتفكيره إعادة بناء المجتمع الإسلامي [١] على أسس إسلامية لا زيف فيها، وبدون إضافة غريبة عن الإسلام.وإذا أردنا للمسلم أن يكون مسلمًا، لا صاحب بدعة أو مذهب خاص في الإسلام، فلابد من تجلية موقفه -رضي الله تعالى عنه- من أهم الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والشيعة والمتصوفة. لذلك وضعنا هذا الهدف -لهذا

---

(١) الدكتور محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره- دار الفكر-ط. الأولى سنة ١٩٧١- ص ٧٤.

القسم- ليتمكن القارئ من الوقوف على الحقائق، فيسهل عليه بعد ذلك معرفة- أخطاء لاوست وغيره من المستشرقين أو المتغربين ممن يتعرضون لمعالجة الموضوعات نفسها. ونحن نرى أنه ينبغي وضع حد لقبول آراء الغربيين في ميادين نحن أولى بها. فهي جزء من كياننا العقيدي، والتاريخي، والحضاري، وإذا لم نقطع أو نصد التيار الزاحف في مجال الثقافة الإسلامية، فعلى الأقل ينبغي التعريف بالحقائق تجنبًا للخلط الذي نقع فيه انسياقًا وراء أصحاب الأهواء من مدارس الاستشراق والمفتونين بهم.

القسم الرابع:

وجاء هذا القسم، محاولة سريعة لوضع النسق الإسلامي في مسائل الألوهية والعالم والإنسان، لدى شيخ الإسلام: ابن تيمية، استقرأناها من اجتهادات إمامنا، فاتضح منها التناسق والوحدة في اجتهادات الشيخ، بخلاف ظن لاووست أو غيره من المستشرقين.. ذلك أن شيخ الإسلام -رضي الله تعالى عنه- قد حرص على تحقيق معنى «إنسانية الإنسان» والتفريق بين الخالق والمخلوق أو بين العابد والمعبود، ففصل في تعاليم الإسلام التي تدور حول هذه المبادئ وبين العناصر الثقافية والدينية التي اختلطت بالتعاليم الإسلامية حتى أصبحت لا تمثل القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، على نحو ما كان يمثل فيهم الرعيل الأول للإسلام لهذين المصدرين، حيث أدرك ببصيرته المشرقة أن سبب ذلة وضعف مسلمي يومه: هو البعد عن أسلوب الأوائل في فهم الإسلام والعمل به وله، والبعد عنه بوقوفهم عند حد تلك المذاهب والاتجاهات، والتزامهم آرائها، دون أن يمحصوها في ضوء القرآن وفهم الأسلاف الكرام له.. وهي نفس العلة التي أصيب بها مسلمو اليوم. حزبية فكرية، وخصومة طائفية ومذهبية، وتقليد وتبعية للغرب الصليبي أوالشرق الماركسي فأصبح بأسهم بينهم شديدًا، وذلك أنهم نسوا الله ونسوا منهجه، فأنساهم الله أنفسهم، فكان هذا الفشل الذريع في كل مجالات الحياة.

وإني إذ أقدم هذه العجالة إلى الفئة المؤمنة، وإلى الذين يبحثون عن الطريق مخلصين جادين، يريدون لأنفسهم ولأمتهم العزة، حيث لا عزة إلا بالإسلام.

راجيًا المولى العلي الكريم، أن يلهمنا التسديد والتوفيق، وأن يكتبنا مع الراضين المرضيين. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

مصطفى حلمي

تمهيد

سنكتفي هنا بكلمة موجزة عن سبب انجذابنا نحو شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد لا يعنينا شخصه- والبشر كلهم إلى فناء- ولكن يجذبنا نحوه الإشعاع الفكري لعقل متعدد المواهب، أوتي من الإمكانيات وغذي بالجهد الدائب، فتمكن من الرؤية الإسلامية الواضحة التي تنير الطريق لكل مسلم يعيش في وقت ضعف المسلمين وتكالب الأعداء عليهم -كما نحن الآن- فأرشدنا إلى الموقف الصحيح وسط أضابير الاختلافات المذهبية: منها العقيدة وفقًا لمنهج السلف، وبيان أساس التوحيد الإسلامي، ومسائل الفقه على اختلاف فروعها.

وأيضًا فإننا نرى أن ابن تيمية لم يأخذ حظه من العناية والبحث بعد، مع حاجتنا الماسة للاسترشاد باجتهاداته وآرائه، إذ لا ترتبط أفكاره بعصره الذي عاصره بقدر ما تتصل بالظروف المشابهة التي تتكرر على وتيرة واحدة، ونعني بذلك غربة الإسلام.

وترجع جدة أفكار ابن تيمية إلى ظهوره في عصر متأخر كانت الانشقاقات قد حدثت، وجعلت الغالبية الاتجاه السلفي وسط تراكمات الفكر الفلسفي، والتأويل الكلامي، والشطح الصوفي، حتى ظن غالبية المسلمين أنها هي الإسلام، كما أثيرت أيضًا مشاكل لا يزال العالم الإسلامي يعاني منها حتى اليوم، وإن اختلفت المظاهر. وما جهود الشيخ مع تعددها وتنوعها إلا تعبير عن منهج. ولذا فإن موقف شيخ الإسلام منهجي قبل أي شيء آخر، فقد كان أمينًا في الدعوة إلى طريقة السلف علمًا وعملاً، وسيأتي ذلك تفصيلاً فيما بعد، إلا أننا نوجزها فيما يلي:

(أ) اتفاق الأدلة الشرعية مع الأدلة العقلية، فالحق ما ورد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وقد بين خطأ أصحاب النظر العقلي من فلاسفة ومتكلمين عندما قدموا النظر العقلي على الدليل الشرعي، وكل من خالف صحيح المنقول، فقد خالف أيضًا صريح المعقول، وكان بمنـــزلة من قال الله تعالى فيه: ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك: ١٠] وقد بين الرسول صلوات الله عليه أصول الدين وفروعه بيانًا كافيًا شافيًا، وظهرت البدع خروجًا عما جاء

به، إذ اتخذت كل فرقة أصولاً للدين فصدق عليهم وصف الإمام أحمد بن حنبل بقوله: مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي كتاب الله بغير علم [١].

(ب) إن في القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين، ومن المسائل والدلائل ما يستحق أن يكون أصول الدين (كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد، أو دلائل هذه المسائل)، وآيات الله تعالى السمعية والعقلية والعيانية كلها متوافقة.

كما وجه الأنظار إلى القاعدة الصحيحة المنهجية في فهم الإسلام وتلقيه، مؤكدًا معنى الحديث الذي يصف السابقين بأنهم الأفضل، لأنهم كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق والباطل، وأعظم محبة للحق الذي أرسل إلى محمد ﷺ، وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذى، وأكثر اتحادًا وألفة لبعضهم البعض ممن جاء بعدهم، ثم حدث ما اقتضته نشأة البشر من التفرق والاختلاف في القرون التالية. وسيأتي الحديث عن تفاصيل كل ذلك، ولكننا هنا وقبل الانتقال إلى دراستنا عن مضمون الكتاب، نرى تعريف القارئ بجوهر اجتهادات إمامنا، فمهما تشعبت أبحاثه وأجهدت الدارس وراءها لاستخلاص المحور الأساسي لها، فإن من معالم مواقفه هو الوحدة المنهجية، والتناسق بين تفسيراته الميتافيزيقية،والطبيعية والأخلاقية والسياسية والمنطقيه.

- فإن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، وهو المحبوب وحده والغني بالذات عن مخلوقاته الفقيرة فقرًا إلى خالقها عز وجل.

- وكل ما عدا الله سبحانه وتعالى باطل، وحركة العالم هي حركة خضوع وسجود لخالقها.

- وفي مجال الأخلاق فإن تعريفه للإنسان هو، أنه حي حساس متحرك بالإرادة، أي أنه علم وعمل، أو عقيدة وعبادة، أو معرفة وسلوك، وللنفس قوة الإرادة مع الشعور، وهما متلازمان، والنفس تتقوم بمرادها، وهو الإله المعبود لا

---

(١) ابن تيمية: النبوات، ص ١٢٨.

بمجرد ما تشعر به ولكي يسعد الإنسان لابد أن يسأله ربه وحده فإن أطيب ما في الدنيا معرفته عز وجل، وأطيب ما في الآخرة مشاهدته في الجنة.

- وفي السياسة والاجتماع ينبغي أن تكون غرض الراعي والرعية إصلاح أمور الدين، وإلا فسدت هذه وتلك.

- ويضع قاعدة في استدلالاته المنطقية تستند على الاقتصار على ما يسميه بالطريقة الفطرية العقلية السمعية الشرعية الإيمانية فهي تغني عن الطريقة القياسية الكلامية.

ويتوج هذا كله بقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[التغابن: ١٦].



المبحث الأول

العقيدة الإسلامية في عصر النبي ﷺ والصحابة

سنبحث هنا العقيدة الإسلامية في عصر النبي ﷺوصحابته وذلك لاقتناعنا بأن نقطة البداية لصحوة إسلامية حقيقية ينبغي أن تبدأ بالتأسي برسول الله وخلفائه الراشدين من بعده.

فما من شك أن جيل العصر الأول هو (الجيل المثالي) كما سماه الأستاذ محب الدين الخطيب مقررًا أن الله تعالى بعث صاحب هذه الرسالة الكريمة ﷺ لتكون لنا به أسوة حسنة، وطريقة لا يحوجنا إلى أي طريق آخر لا طريق موسكو ولا طريق واشنطون ولا طريق باريس. كذلك فإن نصوص الإسلام التي تكفل بها الله تعالى بحفظها كفيلة بأن تجعلنا من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه (إذا حرصنا على فهمها فهمًا سليمًا كما لو كنا معاصرين له، وملازمين لمجاله، وسائرين في ركابه) [1].

وقد قام الصحابة رضي الله عنهم بتنفيذ وصايا الرسول ﷺ في العقيدة والشريعة بأفضل الطرق وأقومها. كذلك امتدت رقعة بلاد المسلمين في عصورهم إلى أطراف المعمورة لتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه الجيوش لحمل هذه الرسالة إلى فارس وبلاد الدولة البيزنطية في الشام. وفي عهد عمر رضي الله عنه تكاملت أدوات الدولة في التنظيم وإنشاء الوظائف وغيرها من الشئون الإدارية كوظائف العمال أو المالية كقواعد توزيع الخراج، وكان عمر رضي الله عنه رجل واجب وعدل، وقانون، وسعد المسلمون في حكمه بالعدل المطلق والأمان الشامل.

وفي عهده فتحت الشام، وإيران ثم امتد الفتح إلى أذربيجان وبلاد ما وراء النهر. كذلك امتد العالم الإسلامي نحو الغرب ففتحت مصر، وفي عهد عثمان رضي الله عنه فتحت أفريقيا [2].

---

(١) السيد محب الدين الخطيب (مع الرعيل الأول) ص ١١، ١٢.

(٢) الدكتور حسين مؤنس: (عالم الإسلام) ٤٢، ٤٤، ٥٠- دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣.

ومضت الفتوحات كما دونت لنا كتب التاريخ لتكتب أروع صفحاته لأن هؤلاء الفاتحين تحركوا بالعقيدة في نفوسهم وقلوبهم، وعرفوا رسالتهم وفهموا حق الفهم دورهم.

وكان المسلمون يعبرون بعقائدهم السمحة وأخلاقهم الحسنة عن الإسلام أحسن تعبير، ولم يستهدفوا الغزو لذاته أو فرض الإسلام بالقوة كما يشيع المستشرقون وأتباعهم. ويقدم الدكتور حسين مؤنس خير شاهد على ذلك من واقع دراساته وأبحاثه الشاملة العميقة في تاريخ المسلمين ويرى أنه سواء (في مصر أو الشام أو المغرب أو إيران فتح العرب البلاد ودعوا الناس لدخول الإسلام وبينوا لهم فضائله، ثم تركوهم بعد ذلك يتمثلونه على مهل.. ومنها نرى كيف أن الإسلام لم يدخل بلدًا ثم تلاشى منه، إلا في حالة الأندلس وصقلية وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة [(١)].

ونستخلص أيضًا أن القرون الأولى للمسلمين كانت خير القرون في الدين والدنيا معًا، فقد حققوا الإسلام في قلوبهم فدانت لهم الدنيا، وأقاموا أفضل حضارة لأنها قائمة على الحق والعدل، ومستوية على (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

فإذا نادينا بالاقتداء بهم، فإن هدفنا الارتفاع بالمستوى العالي الذي حققوه كرواد فهموا الإسلام كدين وحضارة.

ومن زاوية بحثنا، سنرى أنهم بلغوا الذروة في فهم العقيدة الإسلامية استيعابًا وتنفيذًا، والاقتداء بهم يتطلب (الارتفاع) إلى مستواهم لا (الرجوع) إلى الزمن الذي عاصروه بوسائله وأدواته، فالاتباع إذن في (القيم) التي حققوها وعاشوا من أجلها، لا في (وسائل) المعيشة التي استخدموها.

منهج البحث:

ظلت أغلب الدراسات المعاصرة في الإسلاميات التي تحوم حول العقيدة تعتمد

---

(١) أرجعه إلى أن النظام النصراني الذي جعل محل النظام الإسلامي لجأ إلى أشد أنواع الاضطهاد والإبادة، وفرض رجاله سياسة استئصال الإسلام بالقوة. المصدر السابق ص ٣٢، وتعليقه بصفحتي ٣٢، ٣٣.

على كتب المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة في الغالب، فلا تكاد تعثر على دراسة عن المسلمين الأوائل ومناهجهم الشرعية العقلية في الاستدلال على أصول الدين.

ونلحظ أن أغلب البحوث المعاصرة تعتمد على أراء المستشرقين الذين يهتمون عادة بالفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة، والاهتمام بإيجاد الصلات بين معتقدات الفرق والمصادر الخارجية من عقائد وديانات وفلسفات يونانية وفارسية ونحوها.

وكثيرًا ما تتضخم أبحاثهم بالمسائل الخلافية والعناية بالفرق الغالية، وتصور التاريخ الإسلامي من خلال الخلافات والانشقاقات، فتختفي الحقيقة تحت أكوام من الجدل والخلاف بحيث يصعب على القارئ التمييز بين الحق والباطل.

ومثل هذا المنهج- فضلا عن النتائج المغرضة التي يراد الوصول إليها، فإنه يتجاهل حقيقة بارزة لا يمكن إخفاؤها، ألا وهي أن آراء الفرق المنشقة قد حوصرت منذ ظهورها بواسطة علماء الحديث والسنة، ورفضتها الغالبية من أهل السنة والجماعة التي ظلت مستمسكة بالعقيدة الصحيحة المتلقاة بالقبول والفهم منذ عصر النبي ﷺ وصحابته.

لهذا رأينا – مستعينين بالله سبحانه وتعالى- إجلاء المنهج المتبع بواسطة علماء الإسلام من الفقهاء والمحدثين، وكانت أولى خطواتنا البدء بعصر الصحابة لاستقراء الاتجاهات الدالة على ألوان من النظر العقلي قبل أن يظهر أهل الكلام وقبل أن ينشق الصف الإسلامي إلى فرق ومذاهب لنحاول أن نقف على تفسيرات أصحاب الصدر الأول للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بما سماه المتكلمون بـــ (أصول الدين) والتي لم توضع في الصيغ الكلامية أو الأنساق الفلسفية خلال العصور المبكرة التي تتحدث عنها، ولكن الذي حدث هو أنه كلما تفتقت مسألة، أو حدث انشقاق طارئ مستحدث، قام لها من يتصدى بالتفسير والتوضيح، أو النهي والزجر إذا كان من قبيل البدع المنهي عنها.

ثم ظهر على العصور المتكلمون ومذاهبهم المختلفة فصاغوا كل هذا الكلام وشرحوه في أبواب وفصول نقلته إلينا مصادرهم، وجاء الباحثون لمحاولة استقصاء هذه المسائل في صيغتها التقليدية بعينها، فلم يعثروا لها على أثر، فظنوا أن الصحابة لم

يعرفوها، ولم يتطرقوا إليها، بينما الحق أنهم عرفوها وفهموا دقائقها كما ينبغي أن تفهم وتعرف.

ولاشك أن الأدلة تدعم اتجاهنا في اتخاذ عصر الصحابة نقطة البدء في البحث، لأن دراسة التاريخ الإسلامي ترشدنا إلى معرفة أسبقية الأوائل في العلم والعمل، في العقيدة والسلوك. وسنتخذ هذا المنهج في البحث لمحاولة شجب النتائج التي توصل إليها أمثال جولد تسهير وغيره من المستشرقين الذين يطبقون على الإسلام -في العقائد والعبادات- آثار فكرة التطور، فيتصورون أنه بدأ بسيطًا ثم تطور على يد المسلمين!! فكانت أكبر زلاتهم. ولما كانوا غير مسلمين معنا بالدليل القطعي الثابت في قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣] فإن استقراء الأحداث بأناة وصبر وجهد-مع توافر الصدق وحسن الطوية- ليثبت أن الإسلام في حياة الرسول ﷺ اكتمل في عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ونصوصه وقواعده وأن الرسول صلوات الله عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الإسلام على هذا النحو وأن المسلمين من القرن الأول إلى يوم الناس هذا، يعتبرون أي تزيد على هذا الدين بدعة تحارب، ويرفضون من أي مخلوق، ومن أي جماعة، أن يضعوا في هذا الدين جديدًا) (١).

وسنحاول على قدر الاستطاعة، وبقدر ما تسمح به هذه الدراسة، الالتفات إلى عصر الصحابة والتابعين تنقيبًا عن فهمهم للعقيدة وتحقيقًا لرسالتهم.

أصول الدين في عصر النبي ﷺ والصحابة:

تتعدد المواقف التي توضح اتجاه الصحابة في الآيات القرآنية والنظر إليها. فإذا بدأنا في دراسة تلك المواقف بمنهج استقرائي، استطعنا الوقوف على استنباطهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، فيتضح لنا كيف بدأ التنازع، وأسباب حدوث الانشقاقات عن القوعد الإسلامية بعدهم. وكيف جوبهت الفرق المنشقة عن صف الجماعة، كالخوارج، والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرهم؟ وظل علماء السلف من أهل الحديث والسنة يحملون على أعناقهم هذه المهمة فيفندون مزاعم المنشقين.

(١) محمد الغزالي ص ٧٨ "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين".

موضحين أسباب انحرافاتهم، مبينين القواعد الإسلامية الصحيحة المتلقاة عن الأوائل.

وتجتمع عناصر بحثنا فيما رأينا من قواعد عامة تجمع مواقف الصحابة منها: أنهم تكلموا في أصول الدين جميعًا، كما أنهم يتفقون في المنهج فيفسرون القرآن بالقرآن مستندين إلى طرق الاستدلالات العقلية التي أشار إليها وحض على استخدامها.

إخبار الرسول ﷺ لصحابته بما كان وما هو كائن:

ما أسهل الاستدلال بالأحاديث النبوية والأحداث التاريخية على أن الرسول ﷺ شرح لهم الأصول الإسلامية كلها، أو ما يسميه المتكلمون بـــ (أصول الدين):

عن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري ؓ قال: (**صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنـــزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر ثم نـــزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا**) رواه مسلم. ولنتصور ذلك الجمع الحاشد من الصحابة وهو يستمعون باهتمام شديد لكل كلمة عما كان وما هو كائن، فإن الرسول ﷺ لا يردد عليهم معلومات مألوفة، أومعارف عادية ولكنه يبلغهم ما أوحى الله تعالى به من مشاهد عالم الغيب الذي تعجز العقول مهما بلغت من الذكاء والفطنة عن التوصل إليها. إن كل أسباب التعليم مهيأة من حيث الرسول المبلغ، والنفوس المتعطشة لتلقي عنه الرسالة الخاتمة، فهي الفرصة الأخيرة السانحة لهم وللناس أجمعين، إنها فرصة التلقي من مشكاة النبوة.

عن أنس ؓ قال أبو بكر لعمر -رضي الله عنهما- بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن -رضي الله عنها- نـــزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، **فلما انتهينا إليها بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ فقالت: إني لا أبكي، إني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معا**) رواه مسلم.

كان الوحي المعصوم إذن هو المصدر الذي تلقى منه الصحابة بواسطة النبي

ﷺ هذه الأصول الدينية كذلك أرشدهم إلى منهج المحافظة عليها ونهاهم عن مخالفتها، وما نشأت الفرق، وما انشق الصف الإسلامي الأول، إلا بمخالفة نواهي رسول الله ﷺ.

وهذه النواهي أجملها ابن الوزير اليماني في النصوص التالية:

١- النواهي عن البدع.

٢- النواهي عن المراء مطلقًا، بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن.

٣- النواهي عن المراء في القرآن.

٤- النواهي عن المراء في القدر خاصة.

٥- النواهي عن التفكير في ذات الله تعالى [1].

وسيتضح لنا في الصفحات القادمة أن الخلاف والفرق - بل وهزائم المسلمين أمام أعدائهم- كانت بسبب بعض أو كل عصيانهم لهذه النواهي النبوية.

وسنقتصر الآن - ما دمنا نعرض لمعالم عصر النبوة- على بحث أهم مسائل أصول الدين، تلك المتصلة بأشرف العلوم وأعلاها، أي العلم بالله تعالى، وكيف أرشد الرسول ﷺ صحابته خاصة والمسلمين عامة إلى أحكم الطرق وأفضلها لسد منافذ الشيطان ووسوسته.

توضيحه -عليه الصلاة والسلام- للمنهج الأمثل في العلم الإلهي:

روى مسلم في صحيحه في باب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: ((**لا يزال الناس يسألونك عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟**)) قال أبوهريرة: جاءني ناس من الأعراب فقالوا: يا أبا هريرة هذا الله خلقنا. فمن خلق الله؟ فأخذ حصى فرماهم به ثم قال: قوموا صدق خليلي ﷺ وهناك عدة روايات لمسلم بهذا المعنى، جاء في إحداها قول الرسول صلوات الله عليه ((**فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله**)) وقوله: ((**فمن بلغ ذلك فيلستعذ بالله**))، فأرجع الرسول ﷺ هذا السؤال إلى وسوسة الشيطان. ولم يأمر باستعادة البراهين

---

(١) ابن الوزير اليماني ((ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)) ص ٤٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

على إثبات الله عز وجل.

وكان بعض المتكلمين ومنهم الرازي (٦٠٦هـ) عندما سئل لم لم يأمر النبي ﷺ عند هذا الوسواس بالبرهان المبين لفساد التسلسل والدور، بل أمر الاستعاذة؟

فأجاب بأن مثل هذا من عرض له كلب ينبح عليه ليؤذيه ويقطع طريقه فتارة يضربه بعصا، وتارة يطلب من صاحب الكلب أن يزجره فبين الرازي أن البرهان (١)

---

(١) إن البراهين الدالة على إثبات الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى أكثر من أن تحصى فهي - كما يذكر المقدسي- غير محصاة ولا متناهية في أوهام الخلائق لأنها بعدد أجزاء أعيان الموجودات من الحيوان والنبات وغير ذلك ((مما خفي عن الأبصار لأنه ما من شيء وإن صغر جسمه ولطف شخصه إلا وفيه عدة دلائل تعبر عن ربوبيته وتصرح عن ألوهيته تصريحًا ينفي مع أدناها الشبهة ويزاح العلة)).

ولكنه يحاول إبراز أهم هذه البراهين ويوجزها فيما يلي:

أولا: فزع القلوب إليه سبحانه وتعالى عند نـــزول الحوادث ووقوع المصائب، إذ لا يوجد مضطر وقد عضته نائبة ولدغته ناكبة يفزع إلى حجر أو شجر أو مدر أوشيء من الخلائق.

ثانيا: أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وآفاقها إلا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم، ومستحيل وجود اسم لا مسمى له كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل.

ثالثا: ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع الترتيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتساق والإتقان.

رابعًا: إن كتب الله المنـــزلة مملوءة بدلائل الإثبات والتوحيد تأكيدًا للحجة لأنه موضوع نفس الفطرة وخاصة القرآن، وقال الله لرسوله -ﷺ- حيث سئل عن الدلالة عليه ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنـــزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويمضي المقدسي فيستدل بأدلة أخرى مستقاة من كتب السابقين، وهي في شكل سؤال وجواب بين ملك وحكيم.

سأل الملك الحكيم: ما أدل الأمور على الله؟

الدلائل كثيرة وأولها مسألتك عنه لأن السؤال لا يقع على لا شيء.

=

هو الطريق الأول وفيه صعوبة والاستعاذة بالله هو الثاني وهو أسهل.

ولكن اعترض البعض على هذه الإجابة لأنها تفضل طريقة البرهان على طريقة الاستعاذة وهي الأكمل والأقوى، فإن دفع الله تعالى للوسواس عن القلب أكمل من دفع الإنسان ذلك عن نفسه [(١)].

ويرى ابن تيمية أن كلا الإجابتين خطأ مبينًا ذلك من وجوه: [(٢)]

=

قال الملك: ثم ماذا؟

قال: شك الشاكين فيه، فإنما يشك فيما هو، لا فيما لا هو.

قال الملك: ثم ماذا؟

وله الفطن إليه (أي التفكير فيه سبحانه) الذي لا يستطيع الامتناع منه.

قال الملك: زدني.

قال: حدوث الأشياء وتنقلها على غير مشيئتها.

قال: زدني.

قال: الحياة والموت اللذان يسميهما الفلاسفة النشوء والبلى، فلست واجدًا أحداً أحيا نفسه، ولا حيًا إلا كارهًا للموت ولكن ينل منه -يعني لا ينجو.

قال: زدني.

قال: الثواب والعقاب على الحسنة والسيئة الجاريان على ألسنة الناس.

المقدسي: ((كتاب البدء والتاريخ)) ج ١ ص ٥٧/ ٧١ مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر.

بعد هذه البراهين الساطعة، يأتي الشيطان يعبث بالإنسان ويوسوس له بالتشكيك؟

فما موقف الإنسان في هذه الحالة؟

هل يعود في كل مرة إلى استعراض الأدلة والبراهين العقلية والفطرية، وتذكر آيات الله في مخلوقاته وفي نفسه؟ أم يسلك طريقًا آخر لدفع الشيطان عنه وطرده؟

لا شك أن الطريق الأمثل هو ما أمر به وأرشد إليه الرسول ﷺ كما اتضح في السياق أعلاه.

(١) ابن تيمية ((درء تعارض العقل والنقل)) ج ٣ ص ٣٠٨ تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم - طبع على نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

(٢) ينظر المصدر السابق الذي عرض فيه لهذا الموضوع ص ١١٧- ١١٨ والصفحات من ٢٠٦ إلى ٣١٨.

الأول:

إن الإنسان حادث كائن بعد أن لم يكن والعلم الحاصل في قلبه علم ابتداء، فلابد من علوم بديهية أولية يبتدؤها الله في قلبه، وغاية البرهان أن ينتهي إليها.

وهذا حال الإنسان السليم الحس والعقل الذي يستخدم معه طرق البرهان والنظر والاستدلال، أما إذا أصابه مرض في الحس أو العقل فعجز عن فهم العلوم البديهية الأولية، فإنه يعالج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء ونحو ذلك.

ويقرر ابن تيمية أن الوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزال بالبرهان بل متى فكر العبد ونظر ازداد دورها على قلبه، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه. وهذا يزول بالاستعاذة بالله، فإن الله هوالذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية، ولهذا أمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة فيقول ﴿**اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وفي الحديث الإلهي الصحيح عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: ((**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**)) وقال تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ [النحل: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿**وإما ينـــزغنك من الشيطان نـــزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وكان يمين النبي ﷺ: ((**لا ومقلب القلوب**))، وكان كثيرًا ما يقول: ((**والذي نفس محمد بيده**)).

ثم يغوص ابن تيمية بعد هذه الشواهد في النفس البشرية حيث تمر بها الخواطر التي هي من جنس الاعتقادات ومن جنس الإرادات، وفيها المحمود والمذموم، والله هو القادر على صرفها عن الإنسان، فالاستعاذة به سبحانه وتعالى طريق مؤدية إلى المقصود الذي لا يحصل بالنظر والاستدلال [1].

الثاني:

أن النبي ﷺ لم يقتصر على الأمر بالاستعاذة وحدها بل أمر العبد الانتهاء عن

---

(١) نفسه ص ٣١٣.

ذلك مع الاستعاذة، إعلانًا منه بأن هذا السؤال هو نهاية الوسواس فيجب الانتهاء عنه، ليس هو من البدايات التي يزيلها ما بعدها، فإن النفس تطلب سبب كل حادث وأول كل شيء حتى تنتهي إلى الغاية والمنتهى، وقد قال الله تعالى: ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ [النجم: ٤٢].

ويستطرد شيخ الإسلام بعد ذلك في شرح معنى العلم الضروري الفطري لكل من سلمت فطرته إذ أن المخلوقات كلها لابد لها من خالق، أما وجود المخلوقات كلها بدون خالق فإنه معلوم الامتناع بالضرورة [١].

الثالث:

أن النبي ﷺ أمر العبد أن يقول: آمنت بالله. وفي رواية: ورسوله فهذا من باب دفع الضد الضار بالضد النافع، فإن قوله آمنت بالله، يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد.

ولهذا كان الشيطان يخنس عند ذكر الله ويوسوس عند الغفلة عن ذكر الله، ولهذا سمي الوسواس الخناس، فإنه جاثم على فؤاد ابن آدم، فإن ذكر الله خنس.

وينبه ابن تيمية أيضًا إلى الوسواس الذي يعرض لكثير من الناس في العبادات حتى يشككه هل كبَّر أم لم يكبِّر؟ وهل قرأ الفاتحة أم لا؟ وهل نوى العبادة أم لم ينوها وهل تطهر أم لا؟ فيشككه في علومه الحسية وهي أمور حسية علم الإنسان بها علم ضروري يقيني أولي لا يتوقف على النظر والاستدلال. وفي هذه الحالة يوجهنا شيخ الإسلام إلى علاج ذلك بالثبوت على الحق ودفع ما يعارضه من الوسواس فينصرف عنه الشيطان متى رأى قوة العبد وثباته على الحق وإلا فمتى رآه قابلاً للشكوك والشبهات. مستجيبًا إلى الوساوس والخطرات، أورد عليه من ذلك ما يعجز عن دفعه، وصار قلبه موردًا لما توحيه شياطين الإنس والجن من زخرف القول، وانتقل من ذلك إلى غيره، إلى أن يسوقه الشيطان إلى الهلكة [٢] قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾[البقرة: ٢٥٧].

---

(١) نفسه ص ٣١٤.

(٢) نفسه ص ٣١٨.

وفي موضع آخر من كتابه (**درء تعارض العقل والنقل**) يذكر الوسوسة التي سأل الصحابة عنها النبي ﷺ من هذا القبيل حتى قالوا: (يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأنه يحترق حتى يصير حمة أو يخر من السماء إلى الأرض خيراً له من أن يتكلم به، فقال: ذلك صريح الإيمان.

ويلخص ابن تيمية تحليله وشروحه الآنفة كلها في تفسيره لرد النبي ﷺ وهو تفسير يحمل على الاطمئنان إذ في رأيه أنه أراد بذلك (أن كراهته هذه الوسوسة ونفيها هو محض الإيمان وصريحه) (١).

كذلك روى البخاري في صحيحه في كتاب (بدء الخلق) عن عمران بن حصين قال: ((دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر. قال: ((**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والارض..**))

وسئل رسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنـزل الله تعالى هذه الآية ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية (٢).

رد الرسول ﷺ على وفد نجران:

تروي لنا كتب التاريخ قصة المباهلة المشهورة بين الرسول ﷺ، ووفد نجران نختار منها المناقشة الدائرة بينه وبينهم، وكان عمادها الجدل بالتي هي أحسن.

وقد أورد الطبري في تفسيره أن النصارى أتوا إلى رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟

وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. فقال لهم النبي ﷺ: (**ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه**)؟ قالوا: نعم.

---

(١) نفسه ص ١١٨.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢ يقول ابن تيمية: وقعتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير، وأهل التفسير، وأهل الحديث وأهل الفقه وأصل حديثهم معروف.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه.

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قالوا بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما علم؟

قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يتغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحودًا فأنـــزل الله تعالى: ﴿**الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ [آل عمران: ١] [(١)].

القرآن كلام الله تعالى:

قبل إثارة محنة خلق القرآن قد لا تعثر في المصادر التاريخية على روايات تشرح موقف الصحابة بنفس الطريقة التي تقابلنا بكتب الفرق أثناء مناقشة بعضها البعض،

---

(١) وينظر «أسباب النـــزول» للواحدي ص ٦١ و٦٢ مؤسسة الحلبي بالقاهرة ١٣٨٨ هـــ - ١٩٦٨م.

كالمعتزلة والأشاعرة، أو المعتزلة والسلف، ولكن مع هذا نستطيع لمح آراء متناثرة تفيدنا في التوصل إلى معرفة موقف الصحابة بما ورد على ألسنة أئمتهم كعلي وابن مسعود وابن عباس ﷺ، وأقوالهم حجة.

ومن المعروف تاريخياً أن أول من قال بأن القرآن مخلوق الجعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة بعد الهجرة ثم الجهم بن صفوان.

ولكن الثابت عن هؤلاء الصحابة -رضوان الله عليهم- أنهم قالوا: إن القرآن كلام الله، صحيح لم يرد لفظ غير مخلوق، لأن المشكلة ظهرت بعدهم واستخدم المتكلمون هذا اللفظ المستحدث، ولكن استقراء النصوص الواردة عنهم تفيد ذلك، فقد اعترض الخوارج كما هو معروف على علي بن أبي طالب لأنه حكم الحكمين وقالوا له: (حكمت رجلين؟ قال: ما حكمت مخلوقًا إنما حكمت القرآن) وفي إجابته أنه ما حكم إلا القرآن نفي لهذا الخلق عنه.

وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما، فقد كان مرة في جنازة، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن اغفر له، فوثب إليه ابن عباس فقال: القرآن منه، وفي رواية أخرى: ((القرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج وإليه يعود)) [(١)].

الإيمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح:

وفي الإيمان بالقدر الذي تنازع فيه المسلمون فيما بعد رأينا كيف كان أبو بكر ﷺ حين يقول: أقول برأيي فإن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، فهذا القول يدل على تأييده لحقيقة المسئولية الأخلاقية ونفي الخبر، كما عزر عمر بن الخطاب ﷺ من ادعى أن سرقته كانت بقضاء الله، فلما سأله فقال: قضى الله علي، فأمر بقطع يده وضرب أسواطًا، فلما استفسروا من عمر عن سبب هذا التعزير فأجاب: القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله.

ولما قال محاصرو عثمان ﷺ حين رموه: الله يرميك. قال: كذبتم لو رماني ما أخطأني!!

---

(١) ابن تيمية (الفتاوى الكبرى)، تحقيق حسنين محمد مخلوف ج ٥ ص ٥٦.

وهناك توضيح أيضًا على لسان علي بن أبي طالب ﷺ شارحًا الفرق بين قضاء الله تعالى وأمره، فقد سأله شيخ عند انصرافه من صفين (أكان المسير بقضاء الله وقدره)؟ فأجابه علي رضوان الله عليه: (والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما هبطنا واديًا ولا علونا قلعة إلا بقضاء وقدر)، ففهم الشيخ خطأ أن عليًا يفسر ما حدث بالجبر لذلك أسرع علي فأفهمه معنى الإيمان بالقدر على حقيقته، وأنه لا يتنافى مع حرية وإرادة الإنسان ومسئوليته عن أفعاله، فقال له:

(لعلك تظن قضاء واجبًا وقدرًا حتماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن.. ثم أردف قائلا: (إن الله تعالى أمر تخييرًا، ونهى تحذيرًا، ولم يكلف مجبرًا، ولا بعث الأنبياء عبثًا)[1].

ويسوق لنا التاريخ أيضًا ما فهمه عمر بن الخطاب وابنه -رضي الله عنهما- وتمييزهما الدقيق بين العلم الإلهي المسبق المحيط بكل شيء وبين أفعال الإنسان التي يؤديها بحريته وإرادته.

وللقارئ هذا المثل الذي يضربه عمر بن الخطاب ﷺ في شرح الصلة بين العلم الإلهي والفعل الإنسان قال: (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم، والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، كما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب، كذلك لا يحملكم علم الله ما تم).

وبسؤال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن حالة بعض الناس الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس زاعمين أن ذلك كان في علم الله تعالى، فغضب ثم قال: (سبحان الله العظيم، قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها، ولم

(١) القاضي عبد الجبار «فرق وطبقات المعتزلة» ص ٢٤- ط. دار المطبوعات الجامعية بالإسكندرية تحقيق د. النشار وعصام الدين محمد علي.

يحملهم علم الله على فعلها) [1].

والإجابة توضح نفسها ولا تحتاج إلى مزيد، فإن علم الله تعالى المحيط بكل شيء -لأنه سبحانه بكل شيء عليم- صفة من صفات الكمال، والعلم الإلهي بما حدث ويحدث وسيحدث لا يحمل العباد على أفعالهم.

الملائكة:

قال جماعة من المفسرين: كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكأن يأتيها، وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم وأنه دخل عليهم ذات يوم فقالوا: يا عمر ما من أصحاب أحمد ﷺ أحد أحب إلينا منك. إنهم يمرون فيؤذوننا وتمر بنا فلا تؤذينا، وإنا لنطمع فيك، فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمن، قال: فبالرحمن الذي أنــزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمدًا عندكم نبيًا؟ فسكتوا، قال: تكلموا ما شأنكم والله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني، فنظر بعضهم لبعض، فقام رجل منهم فقال: أخبروا الرجل أو لأخبرنه، قالوا: نعم إنا نجده مكتوبًا عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتل وخسف، ولو أنه كان وليه ميكائيل لآمنا به فإن ميكائيل صاحب رحمة وكل غيث قال لهم: فأنشدكم بالرحمن الذي أنــزل التوراة على موسى بطور سيناء أين ميكائيل وأين جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، قال عمر: فأشهد أن الذي هو عدو للذي عن يمينه هو عدو للذي عن يساره والذي هو عدو للذي عن يساره هو عدو للذي عن يمينه وإن من كان عدوا لهما فإنه عدو لله.

ثم رجع عمر ليخبر النبي ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فدعاه النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿**قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نــزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين**﴾ [البقرة: ٩٧].

﴿**من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**﴾ [البقرة: ٩٨].

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦.

فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئت وما أريد إلا أخبرك [(١)].

مكانة الصحابة ﷺ في الأمة:

تخبرنا كتب التاريخ وصحائفه على اكتمال الفهم والمعرفة لأصول الدين جميعًا لدى الصحابة ﷺ وكان ذلك بفضل طاعتهم للآيات القرآنية التي حثتهم على التدبر في غير موضع، مثل قوله تعالى: ﴿**كتاب أنـــزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾ [ص: ٢٩] وعلى العكس وصف الكفار والمنافقين بالإعراض عن تدبره في مثل قوله تعالى عز وجل: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد: ٢٤] قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا**﴾ [النساء: ٨٢] ومعنى ذلك أن معانيه مما يمكن للكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فهي إذن ممكنة للمؤمنين أيضًا، ويدل على أن معانيه كانت معروفة بينة لهم.

وأيضًا فإن الله -عز وجل- بين أنه أنـــزل القرآن عربيًا لكي يعقلوه ﴿**إنا أنـــزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون**﴾ [يوسف: ٢] والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه. وذم من لا يفقهه ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا**﴾ [النساء: ٧٨] فلوكان المؤمنون لا يفقهونه لاصطفوا في صف واحد مع المنافقين والكفار الذين ضرب لهم مثلا بقوله تعالى: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾ [البقرة: ١٧١] فكيف إذن يمكن وضع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بمنـــزلة الكفار الذين ذمهم الله في أكثر من موضع؛ لأنهم أعرضوا عن تدبر القرآن واتبعوا أهواءهم، فقال تعالى في وصفهم: ﴿**ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتـــوا العلم، ماذا قال آنفًا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعـــوا أهواءهم**﴾ [محمد: ١٦].

ويضيف شيخ الإسلام ابن تيمية إلى كل هذه الأدلة، ما ثبت عن كل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس أنه نقل عنهما من التفسير ما لا يحصيه إلا الله فقال ابن مسعود: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه إلا بل لأتيته).

---

(١) الحافظ ابن عبد البر (٤٦٣هـ) "جامع بيان العلم وفضله"، ج٢، ص١٢٣-١٢٤.

وجاء التابعون فتعلموا التفسير من الصحابة، قال مجاهد: عرضت المصحف على أبي عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية وأسأل عنها (ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به [١]) فالأصل أن الرسول ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئًا تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿**وأنــزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نــزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤] وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنــزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ [المائدة: ٦٧] وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين، وقال الرسول صلوات الله عليه: ((**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، وما من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به**)).

وبناء على هذا الأصل، فإنه كما تبين لنا أوضح كافة الأصول الإسلامية مما أخبر به الله تعالى من أسماء الله وصفاته، مما جاء في القرآن وشرح وبَيَّن لأصحابه هذه الأصول كلها كأحسن ما يكون البيان. قال أبو ذر: (لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا إذا ذكر لنا منه علمًا).

وكان الصحابة حريصين على الفهم والاستيعاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث، فإن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا) وقام عبد الله بن عمر يحفظ سورة البقرة في ثمان سنين لاستغراقه في المعرفة والفهم [٢].

وكانت أم الدرداء تصف زوجها بأن أفضل عمله التفكر [٣] وعلى العكس من هذه الحقيقة، فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد.. كما يذكر بعض المتكلمين، فإنه يحمل في طياته ذم الصحابة، بل يجعلون مذهب السلف أن الرسول ﷺ بلغ قرآنًا لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم

(١) ابن تيمية: "الفتاوى الكبرى" ج ٥ ص ١٥٧ و ١٥٩ ط الرياض.
(٢) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج ٥ ص ١٥٥، ١٥٦.
(٣) نقض المنطق ص ٨٧.

معناها، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك وهذا الموقف -كما يذكر ابن تيمية- ضلال عظيم [(١)].

وشرح ذلك يحتاج إلى مزيد من الإيضاح، نذكره فيما يلي:

منهج الصحابة في النظر والتدبر:

لقد خاطب الإسلام العقل كما رأينا ودعا الإنسان إلى النظر في آثار مخلوقات الله تعالى، وقد مضى عصر الصحابة في الصدر الأول على هذا المنهج القرآني الواضح وكان قدوتهم الرسول ﷺ وحده في النظر والسلوك، حيث عاشوا معه وشاهدوا التنـــزيل وسألوا واستفسروا عما يعن لهم من قضايا تحتاج إلى شرح وإيضاح.

وهكذا استمدوا من كتاب الله تعالى معرفة وحدانية الله تعالى، وإثبات صفاته، وعرفوا الأنبياء والرسل -عليهم السلام- وقصصهم مع أقوامهم، ووقفوا منه على أصل خلق آدم عليه السلام وعداوة إبليس له ولبنيه، وعرفوا مكانة الملائكة وأدوارهم من بين مخلوقات الله تعالى، واستمدوا معلوماتهم عن اليوم الآخر وحساب الله تعالى وجنته وناره والقدر وخيره وشره إلى غير ذلك من القضايا التي تشكل أركانًا رئيسية وأصولاً في الإيمان. وكلها جمعها القرآن الكريم -كما يرى الزركشي في أقسام ثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام **فالتوحيد** تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، **والتذكير** ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن، **والأحكام** ومنها التكاليف كلها وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب. فالأول ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾ فيه التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال والثاني: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ [الذاريات: ٥٥]، والثالث: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنـــزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنـــزل الله إليك**﴾ [المائدة: ٤٩] [(٢)].

وقد خط لهم القرآن الكريم الاستدلال بمخلوقات الله تعالى على وحدانيته سبحانه وعلمه وحكمته. فإنها جميعًا تبرهن على أن لها صانعًا حكيمًا خبيرًا تام

(١) شرح "أسباب النـــزول للواحدى" ص ٦٥.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٧ ط الحلبي ١٩٥٧م.

القدرة بالغ الحكمة، كما دعاهم إلى آثار الصنعة في أنفسهم أيضًا: **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾** [الذاريات: ٢١] إشارة إلى ما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم [(١)].

ونهاهم الرسول ﷺ عن التفكر في الخالق -جل شأنه- فجاء في الأثر (تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق)، وتعليل النهي أنه سبحانه ليس كمثله شيء (فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه. وإنما هو معلوم بالفطرة. فيذكره العبد) [(٢)].

كذلك جاء الرسول ﷺ بسنته كمصدر ثان للإسلام ولذلك أصبح المنهج الصحيح يقتضي معرفة سنته وتنفيذها، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه، وهذه الأوصاف تنطبق على الصحابة ﷺ ثم الأجيال التالية من أهل الحديث والسنة (وهؤلاء هم الذين لا ينتصرون إلا لقوله ولا يضافون إلا إليه، وهو أعلم الناس بسنته وأتبع لها، لكن التفرق والاختلاف كثير في المتأخرين) [(٣)].

وبهذه الطريقة وضعوا الأسس السليمة للمنهج الصحيح في معرفة أصول الدين وفروعه، فمن أراد إذن معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول ﷺ. فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل. فهذا أصل منهج أهل السنة.

أما المخالفون لهذا المنهج، فلم يراعوا قاعدته ولم يلتزموا بخطواته، إذ أنهم بدلا من البدء بالنظر فيما قاله الله ورسوله ﷺ، بدأوا بما رأوه بعقولهم كما فعل المتكلمون، أوذاقوه بوجدانهم - كما فعل الصوفية- فإذا وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها تخالفه، أعرضوا عنها تفويضًا أو حرفوها تأويلاً [(٤)].

وهذه الصورة المخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح كثيرًا ما نراها في عصرنا

---

(١) السيوطي: صون المنطق ج ١ ص ١٤٣.

(٢) ابن تيمية: نقض المنطق ص ٣٥.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة ج ٣ ص ٤٦.

(٤) ابن تيمية: الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧.

أيضًا. فبسبب ضغوط ثقافة الغرب وحضارته، وعلى إثر انتصاره العسكري والسياسي وتفوقه العلمي ونفوذه الثقافي، وتأثيره الساحر على العقول والنفوس في مقابل ضآلة المعرفة بالإسلام وأصوله وفروعه، نجم عنه أن أصبح الكثيرون يتبنون الأفكار والفلسفات الغربية ويعطونها شكلا إسلاميًا، ظانين بذلك أنهم يدافعون عنه ويقدمونه إلى الأجيال الشابة في ثوب عصري [١].

الأدلة الشرعية على فضل الصحابة ﷺ:

منها ما قاله تعالى في وصفهم: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان**﴾ [التوبة: ١٠٠]، فكانوا هم الأفضل ثم يتناول الوصف من اتبعهم إلى يوم القيامة.

وأيضًا ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي ﷺ قال: ((خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).

كما ظهر من دراسة السنة النبوية مكانة الصحابة الخاصة بعد رسول الله ﷺ، لا سيما الخلفاء الراشدين وباقي العشرة المبشرين بالجنة. وفي الحديث: ((**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**))[٢].

والآيات والأحاديث كثيرة في وصف أفضالهم ومكانتهم الممتازة، مثل قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى**﴾ [الحديد: ١٠].

والحديث ((**أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو**

---

(١) كالقول مثلا بديمقراطية النظام الإسلامي أو اشتراكيته وتحرر نظمه وقابليته للتطور وغيرها من المصطلحات اللصيقة بفلسفة الغرب وحضارته وتاريخه، ولها مدلولاتها ومعانيها المختلفة تمامًا عن مقابلها في الإسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته.

(٢) جزء من حديث ص ٤٣ رواه الإمام أمين وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد)) [١].

كما وصفهم الرسول ﷺ في حديث آخر بأنهم خير القرون وأن غيرهم لو أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. وقد عانوا وكابدوا كثيرًا بعد الاهتداء للإسلام من أهلهم وعشيرتهم وقبائلهم وأقرب أقربائهم لكنهم لم يبالوا، بل صبروا وثبتوا لأنهم تذوقوا حلاوة الإيمان في القلوب وأيقنوا صدق الرسول ﷺ واقتنعوا بعقيدتهم ولم تتأثر نفوسهم وقلوبهم بأية اضطهادات، أو مشاق يقابلونها بسبب عقيدتهم، ثم انطلقوا ينشرونها ويدافعون عنها ويبذلون في ذلك الأنفس والنفائس.

يقول ابن الوزير اليماني:

لولا ثقل موازينهم في الشرف والدين ما اتبعوا رسول الله ﷺ بأدلة الدين الجديد فلم يعبأوا أمام وضوح الأدلة ورسوخها في عقولهم ومالوا عن ألف دين الآباء والأتراب والقرباء إلى أمر شاق على القلوب، ثقيل على النفوس، لا سيما وهم في ذلك الزمان أهل الأنفة [٢].

والصحابة ﷺ أيضًا الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأمة، ولذلك امتدحهم عليه السلام وجعلهم الأفضل على مدى الأجيال، ففي حديث صحيح قال رسول الله ﷺ: **((لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))** [٣].

قال ابن عبد البر: (وما أظن أهل دين من الأديان إلا وعلماؤهم معنيون بمعرفة أصحاب أنبيائهم، لأنهم الواسطة بين النبي وبين أمته) [٤].

والأدلة كثيرة تدل على فطنتهم وذكائهم، وأنهم كانوا أصحاب دراية وفكر ونظر، ولم يكونوا من السذج بحيث يخدعون أو يؤمنون كإيمان العامة.

---

(١) الحديث رواه أحمد والترمذي.

(٢) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم ج ١ ص ٥٥.

(٣) رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ والمد: ربع الصاع، وإنما قدره لأنه أقل ما كانوا يتصدقون به في العادة.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب ج ١ ص ١٩.

يروي لنا ابن كثير في تفسيره عن أحد صالحي المهاجرين هو (جندب بن كعب الأزدي) قد رأى عند الوليد بن عقبة ساحرًا يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى!! فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب إلى مكان الساحر حيث يلعب لعبته تلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿**أفتأتون السحر وأنتم تبصرون**﴾ [الأنبياء: ٣]؟ ولا شك أنه كان يعرف الحديث ((**حد الساحر ضربه بالسيف**)) (رواه الترمذي).

ولا نظن أننا نغالى إذا قلنا أنهم عاشوا على أعتاب عالم الغيب وتمثلوه، وكأنه عالم مشاهد حاضر أمامهم يرونه ويعيشون فيه، فكانوا يتنافسون في طلب الشهادة للانتقال من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية تحقيقًا للسعادة الأبدية عند ربهم -عز وجل- وها هو حارثة ﷺ يسأله رسول الله ﷺ (**كيف أصبحت يا حارثة؟**) قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًا، قال: **انظر ما تقول؟** فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي -عز وجل- بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، قال: ((**الزم. عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الإيمانَ في قلبه**). فقال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة. فدعا له[1] رسول الله ﷺ، فنودي يومًا في الخيل، فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد. فأما درجة السابقين كأبي بكر وعمر فتلك لا يبلغها أحد وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((**قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي فعمر**)) وفي حديث آخر: ((**إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه**)) وقال علي: (كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر) وفي الترمذي وغيره ((**لو لم ابعث فيكم لبعث عمر، ولو كان بعدي نبي ينتظر لكان عمر**)) ومع هذا فالصديق أكمل منه، فإن الصديق كمل في تصديقه للنبي ﷺ فلا

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ١ ص ٤٢٥- ٤٢٦- ط الشعب، وقال الرسول ﷺ يوم استشهاده (يا أم حارثة إنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنان وإن حارثة في الفردوس الأعلى).

يتلقى إلا عن النبي، والنبي معصوم، والمحدث -كعمر- يأخذنا أحيانًا عن قلبه ما يلهمه ويحدث به، ولكن قلبه ليس معصومًا. فعليه أن يعرض ما ألقى عليه على ما جاء به الرسول ﷺ فإن وافقه قبله، وإن خالفه رده. ولهذا قد رجع عمر عن أشياء، وكان الصحابة يناظرونه ويحتجون عليه، فإذا بينت له الحجة من الكتاب والسنة رجع إليها وترك ما رآه والصديق إنما يتلقى عن الرسول ﷺ لا عن قلبه. فهو أكمل من المحدث. وليس بعد أبي بكر صِدِّيقٌ أفضل منه، ولا بعد عمر محدث أفضل منه [1].

بعد هذا التوضيح لا نرى مزيدًا لمستزيد لتقرير كمال المنهج الذي اتبعه الصحابة في معرفة أصول الدين أصولاً وفروعًا [2].

ثانيًا: الدليل العقلي:

ففضلا عن النصوص المستفيضة عن الصحابة ﷺ في التفسير، والتي تدل على فهمهم للقرآن الكريم وتدبرهم، وإحاطتهم بالأدلة التي قدموها كالآيات وضرب الأمثلة واستخدام الأقيسة العقلية، فإن استخدامنا للدليل العقلي يبرهن أيضًا على أن حواري الرسل وصحابتهم هم أكثر الناس فهمًا لرسالتها من غيرهم بأصولها الكبرى وفروعها ودقائقها أيضًا. وأن المتأخرين هم أكثر الناس بعدًا عن الرسالات وفهمها باستثناء القلة الحريصة على اتباع السابقين عليهم بمنهج النقل الدقيق كما فعل أهل الحديث والسنة.

وهذا هو التفسير المنطقي المعقول الذي يشهد به تاريخ الدعوات الدينية فهي (تقوم إبان نشأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا فيها بأرواحهم وكم روى التاريخ من أخبار الرسول صلوات الله عليه أن إشارته كانت تقابل بالتنفيذ من الجميع، فإذا ما فترت الدعوة وضعفت العقيدة وخمدت حرارة الإيمان الأولى، أخذ

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٥١٣- ٥١٤.

(٢) لم يكن تقسيم الدين إلى أصول وفروع معروفًا في عصر الصحابة والتابعين ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة.

الناس يبحثون في معتقداتهم ويعللون ويناقشون ويعارضون [(١)].

ولم نذهب بعيدًا في التعليل والتفسير بينما كان عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– سباقًا إلى تعليل اختلاف المسلمين، متنبئًا بما سيحدث في العصور التالية لعصر الصحابة، مفسرًا إياه بنقص درايتهم بالقرآن وافتقادهم لفهمه على الوجه الصحيح. فقد خلا عمر ﷺ ذات يوم فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس –رضي الله عنهما– فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد؟ فقال ابن عباس: ياأمير المؤمنين إنما أنـــزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنـــزل وأنه سيكون بعدنا أقوامًا يقرأون القرآن ولا يدرون فيما نـــزل، فيكون لهم فيه رأي فإذا كان كذلك اختلفوا فيكون لكل قوم فيه رأي.. فإذا اختلفوا اقتتلوا [(٢)].

وكانت طرق استدلال الصحابة مستمدة من النظر في المخلوقات والتأمل في عجائب صنع الله تعالى وما يطرأ عليها من تغيرات على مدار الأزمنة، فأيقنوا أنها لابد أنها مخلوقة من رب حكيم. أحسن كل شيء خلقه وأتقن صنع كل شيء. عن الحسن البصري (كانوا –يعني الصحابة– يقولون: الحمد لله الرب الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقًا دائمًا لا ينصرف، لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق رب لحادثه، وأن الله قد حادثه بما ترون من الآيات: إنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشًا وسراجًا وهاجًا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكنا ونجومًا وقمرًا منيرًا، وإذا شاء بنى بناءً جعل فيه من المطر والبرق والرعد ما شاء، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يقرف (من الرقفة أي الرعدة) الناس، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحرٍ يأخذ بأنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يحادثه بما يرون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة).

وترى الصحابة –طبقًا لهذا الاستدلال– قد سلكوا الطريق الفطري المطابق

(١) د. إبراهيم مدكور: في الأخلاق والاجتماع ص ٢٦ ط الهيئة العامة للنشر.

(٢) الشاطبي: الاعتصام ج ٢ ص ١٠٧ ط دار الشعب.

لطريق البرهان العقلي في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وأنه خالق كل شيء، وهو سبحانه المحدث الفاعل بمشيئته وقدرته، ولم يفعلوا كما فعل بعض فلاسفة اليونان عندما فسروا صدور الكون بأنه معلول يقارن عنه فإن ذلك يمتنع محادثته أي إحداث الحوادث فيه(١).

من هذا يتبين أيضًا أن أدلة الشرع أدلة عقلية، فقد فطر الله تعالى عباده على معرفة الحق وقد بعد الرسل، كما يصفهم ابن تيمية -بتكميل الفطرة. قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣] وتفسيرها أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة، لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق. فتتطابق الدلالة البرهانية العيانية ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول (٢).

والتفسير العقلي أيضًا يبرهن على تجاوبهم الكامل مع العقيدة التي تغلغلت إلى أعماق نفوسهم، فإن الدارس لأحوالهم وسلوكهم خلال سنوات الأزمات والجهاد الشاق على النفس وعلى الهوى وفي مواجهة الأهل والأصحاب والعادات المألوفة والعقائد الوثنية الباطلة التي نشأ البعض عليها بالمقارنة بتصرفاتهم وعقائدهم قبل وبعد الإسلام، وفي ضوء دراسة أعمالهم وسلوكهم مع رسول الله ﷺ وخشيتهم لربهم وفهمهم لدقائق العقيدة بعد أن تلقوها من رسول الله ﷺ، بعد كل هذا يمكن وصفهم بأنهم الأعلم والأحكم من كل من جاء بعدهم.

ونكتفي بواقعة واحدة للمقارنة. تلك هي موقعة تبوك حيث بلغت بهم الشدة مبلغها. يقول ابن كثير: (ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ﷺ على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وعدم تعنتهم كما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم

---

(١) ابن تيمية: جامع الرسائل – المجموعة الأولى ص ١٣٩ تحقيق: محمد رشاد سالم ١٣٨٩هـ ١٩٦٩ م ط المدني القاهرة.

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ٨٢.

فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع المتمشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ) [(١)].

وهل نتصور أن أهل العصور التالية كانوا أكثر فهمًا للدين وأصوله من الصحابة؟ أو أنهم أفقه وأورع منهم؟ إن ذلك يعد قلبًا للأوضاع وتبديلا لموازين القياس الصحيح، إذ سجل لنا التاريخ فضائل أعمال الجيل الأول بمثاليتهم الفهم والتطبيق فلم يشغلهم الجهاد عن التدبر والفهم العميق للإسلام بعقيدته وعبادته وأحكامه، وكثرة الروايات عن الجهاد والأعمال الصالحة تنطوي في عمق الإدراك والوعي بالرسالة والتحرك بها فانصرفوا عن الجدال واهتموا بالأعمال، ولكن الأوضاع انقلبت بعدهم، فظهر الجدل في الدين على حساب العمل، أو كان بداية لتفرقة وحدة المسلمين وتفتيت جماعتهم وظهور علامات الوهن بين صفوفهم.

لذلك اعتبر علماء السنة ظهور الجدل الكلامي لونًا من الردة، وعللوه، بقلة الفقه في الدين وذهاب العلماء، يقول الدارمي: (وكانوا مقموعين أيام الصحابة والتابعين، مقهورين بسلطان الدولة وحجج العلماء، ولكنهم عندما بعد الزمن، وجدوا الفرصة لنشر مذاهبهم، عندما وجدوا من الرعاع جهلاً، ومن العلماء قلة) [(٢)].

لقد بحث المتكلمون ونقبوا في تاريخ الصحابة وأيامهم فلم يجدوا آثار تدل على خوض الصحابة فيها بنفس طريقتهم وتبويباتهم، فاستنتجوا أنهم لم يعرفوها. وهذا منهج خاطئ في البحث والتصور، يقول السفاريني:

(ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان خاليًا من البدع الكلامية والشبه الخيالية والخصوم المعتزلية، لم تكن أدلة علم أصول الدين مدونة هذا

---

(١) ابن كثير: التفسير ج ١ ص ١٣٩ ط الشعب.

(٢) عقائد السلف تحقيق د. علي سامي النشار ود. عمار الطالبي- منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧١م.

التدوين) [١].

كما تمادى المتكلمون بالطعن في الصحابة، فزعموا أنهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين، وهذا خطأ جسيم وتفسير مقلوب؛ إذ لا يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة إلا في ضوء استجابتهم لعقيدة الإسلام، وفهمها حق الفهم وتطبيقها عمليًا فاجتذبوا غيرهم من الشعوب ذات الحضارات العريقة فكان الصحابة في وضع الطلائع والصفوة الممتازة.

وظهرت حروب الردة لتكشف معادن الرجال مبرهنة على أن قوة الإيمان في صف أبي بكر والصحابة وقد وقفت سدًا مانعًا لمواجهة أية ثغرة في العقيدة وكانت محكًا لأثر الإيمان في النفوس والفهم الصحيح لعقائد الإسلام، فقد كشفت الردة عن حقيقة التصور الإلهي في أذهان المسلمين وسلوكهم حين تحول إلى أعمال وحرب حتى لا يتمكن المرتدون من تشويه العقيدة، أو انتقاض المنهج، أو إدخال شيء من الجـــاهليـــة في الإسلام [٢].

إن هذا الفهم الممتزج بالإيمان هو الدافع الحقيقي لجهاد الصحابة مع رسول الله ﷺ والتسابق للاستشهاد، ومع الصديق رضي الله عنه بعده، وفي عصر الخلافة الراشدة عمومًا.

ألا يحق لعلماء أهل السنة والجماعة سلوك طريقهم واعتبارهم الجيل المثالي في العقيدة والسلوك؟

ولن يدهشنا إذن عندما نرى أحد علمائهم -وهو الدارمي- يقول: فلم يظهر جهـــم [٣] وأصحابه -وهم أول من قالوا بالجبر ونفوا الصفات الإلهية - في زمن أصحاب رسول الله ﷺ وكبار التابعين فيُرْوَى عنهم فيها أثرٌ منصوصٌ مُسَمًّى، ولو كانوا بَيَّنُوا وأظهروا آراءهم لقتلوا، كما قتل علي رضي الله عنه الزنادقة -وهم أتباع عبد الله

(١) مختصر شرح الإسفراييني، ص ٥.

(٢) محمد حسن بريغش: ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأول ط مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

(٣) جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، الضال المبتدع لرأي الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين وما علمته روى شيئًا ولكنه زرع شرًا عظيما، الذهبي: ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٩٧ ط الخانجي ١٣٢٥ هـ.

ابن سبأ اليهودي الذين قالوا بتأليه علي - والتي ظهرت في عصره، ولقتلوا كما قتل أهل الردة [١].

ويوضح لنا الدارمي بهذا الرأي كيف دارت عجلة التاريخ لتطبيق سننه في رقي الأمم وتدهورها، إذ عَبَّرَت الفلول المهزومة في الحضارات المغلوبة عن نفسها بنشر فلسفاتها ونظراتها للألوهية والكون والإنسان، أو بإثارة المشكلات العقائدية التي كانت تعاني منها إبان أزماتها.

ومما أذهل عقول مؤرخي التاريخ وفلاسفته أن المسلمين قاموا بغزو بلاد ذات حضارات عريقة، فكان من المنتظر قياسًا على الغزوات المماثلة من قبل كغزوات الإسكندر الأكبر مثلا –حيث لم تتجاوز أعماله مجال التعمير الحضري بمظهرها المادي فقط– كان من المنتظر بقاء الأفكار الفلسفية والدينية للسكان الأصليين كما هي، ولكن ما حدث نتيجة انتصار المسلمين لم يتوقع لأنه اكتسح ما لاقاه في طريقه كالسيل الجارف (فتغير كل شيء بين يوم وليلة، ولم يقتصر في هذه المرة على الواجهة السياسية والاقتصادية في المدن الكبرى فقط، وإنما تغلغل في الأعماق النفسية لهذه الشعوب جميعًا، فاللغات والأفكار والقانون والآمال والعادات وتصور العالم وعقيدة الألوهية، كل ذلك قد طرأ عليه تغير جذري سريع) [٢].

والشواهد أكثر من أن يستدل بها في هذا الموضع وإلا اضطررنا إلى عرض حياة عشرات بل مئات الصحابة –رضوان الله عليهم– ومنهم من فسر القرآن الكريم ومنهم من تفقه ومنهم من اختص بالإفتاء والاجتهاد، والأمثلة كثيرة على مثل هذه التخصصات. ولو مضينا في دراسة أنشطتهم العلمية لخرجنا بصورة كاملة عن حقيقة عقائدهم إذا توصلوا إليها في كافة أوجه أصول الدين من عقيدة التوحيد إلى الصفات الإلهية إلى مسألة القضاء والقدر الإلهي، إلى الإنسان وحقيقته وغايته وأخلاقه، إلى المجتمع ومكوناته والحياة الإنسانية بكافة جوانبها حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: (لقد حدثت أجناس الأعمال في عصر الصحابة) ويقصد بذلك أنهم أرسوا قواعد

---

(١) عقائد السلف ص ٣٤٩.

(٢) د. دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٥٤ ط دار القلم - الكويت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م.

الحياة.

وقال الإمام أحمد: (إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة، وإنما تكلم بعضهم بالرأي في مسائل قليلة) [١].

ويقصد بذلك أنهم أرسوا قواعد الحياة الإسلامية الحقيقية كلها. هذه الحياة الكاملة التي تتناول العقيدة والعبادات والأخلاق في دائرة واحدة يعبرون عنها بحياتهم اليومية العادية والمعارك العسكرية والمعاملات التجارية والعلاقات الاجتماعية في الأخوة والصحبة والزواج والعتاق والمسرات والأحزان. وهذه المزية ينفرد بها الصحابة دون من جاء بعدهم، لأنه ما إن انقضى عصرهم حتى ظهرت بواكير التحول التدريجي البطيء عن هذه النموذجية إلى حياة أقل درجة منها، ظهرت الفتن والقلاقل شأن سنة الحياة في النـــزول عن القمة بعد بلوغها الذروة.

ومن هنا أصبحت تقاس أطوارنا تاريخيًا بالنظر إلى اقترابها أو ابتعادها عن المجتمع الإسلامي في الخلافة الراشدة وما حققته الحضارة الإسلامية في هذا الطور العظيم، فإذا تكلمنا عن الشورى والبيعة والعدالة، وإذا تكلمنا عن المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس، وإذا تكلمنا عن الفتوحات ورايات الإسلام الخفاقة المنتشرة في الأرض حينذاك، فلن نجد مصدرًا غنيًا كاملا بكل ما تحقق في هذه الميادين إلا في وقت الخلافة الراشدة والقرون الأولى المفضلة.

ولهذا فإن التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظهور الحضارة الإسلامية واتساع نفوذها وأثر إشعاعها وفتوحاتها وبين ظهور الفرق وانقسام صفوف المسلمين بين نحل ومذاهب تتطاحن وتتناحر.

وإذا عبرنا بلغة فلسفة التاريخ لفهم تاريخ المسلمين، عثرنا على الرباط الوثيق بين تنفيذ قواعد الشرع وفهم الإسلام من واقع مصدريه -القرآن والسنة- وبين النصر والظهور للمسلمين وبلوغ حضارتهم إلى الذروة، ففي العصور الأولى عندما كان الصحابة والتابعون يسيرون على طريق الشرع بفهم ووعي، انتصروا في

---

(١) ابن تيمية: معارج الوصول إلى أصول الدين وفروعه، قد بينها الرسول ص ٤٣، ط. المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

الغزوات وقهروا الأعداء وحققوا مجتمعًا إنسانيًا مثاليًا لم تر البشرية مثله. ثم أصاب الوهن المجتمعات الإسلامية وظهر الضعف في أوصالها على أثر ضعف العقيدة في النفوس وظهور البدع.

ولا تخطئ عين الباحث المنقب في كتب التاريخ ملاحقة ما حققه المسلمون في عصر النبي ﷺ بقيادته ثم الصحابة والتابعون.

وإذا شئنا تفصيلاً موجزًا، رأينا أن عصر بني أمية امتلأ بالفتوحات والانتصارات، ولكن يعاب على أمرائهم تأخير الصلاة. وكان أوائل خلفاء بني العباس أفضل ممن سبقهم من بني أمية لقيام الصلاة في أوقاتها.

وفي عصر المأمون (٢١٥هـ) ترجمت الكتب اليونانية وكان ذلك على حساب العقيدة. فعندما تدخلت المفاهيم الفلسفية اليونانية انحرفت العقيدة، وزادها انحرافًا غلو التشيع ثم التصوف بمذاهبه المتطرفة كالحلول ووحدة الوجود، واختلط علم الكلام لدى المعتزلة بمصطلحات الفلسفة اليونانية.

رويدًا رويدًا ضعفت الذاتية الإسلامية الأصيلة -المتضمنة للعقيدة والأعمال- لدى الكثيرين، وحلت محلها أفكار فلسفية أجنبية، أومذاهب كلامية متطرفة، فضعفت من أثر العقيدة في النفوس، وحولت المسلمين إلى غير أهداف الأجيال الأولى، ونـزعت من القلوب الخوف والرجاء والمحبة لله تعالى بأسمائه وصفاته الحسنى التي كان الأوائل يندفعون بها في ميادين الحياة والجهاد وتعمير الأراضي والسعي فيها، تحولت إلى مناقشات وجدال، فخمدت الجذور المشتعلة وتحولت أحيانًا إلى ما يشبه الرماد، فظهر الضعف وتغلب الأعداء!!

والآن، نحاول الإجابة على السؤال التالي:

كيف حدث ذلك؟

استحداث الكلام في أصول الدين ونشأة الفرق:

مر بنا الحديث عن عصر النبي ﷺ والصحابة ﷺ حيث اكتملت دائرة الدين بنص الآية الكريمة، وكانوا على دراية عميقة بالعقيدة الإسلامية وأصولها، كما كانوا على قلب رجل واحد في فهمها وتطبيقها.

وفي أعقاب الأحداث الجسام، وعندما بعد الزمان وانقضت الأعوام، ظهرت الفرق والمذاهب الكلامية، كل منها يبتدع عقائد وأقوالاً لم يقل بها الأوائل، حيث اعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك، لهذا (سُمِّيَ أهلُ البدع بـــ(أهلِ الأهواء) لأنهم اتبعوا أهواءهم) [١].

ويصفهم الشاطبي بأن أكثر هؤلاء أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويلحق بهم أيضًا من يخشى السلاطين لينال ما عندهم أو طلبًا للرياسة (فلابد أن يميل مع الناس بهواهم ويتأول عليهم فيما أرادوا) [٢].

كذلك يعلل حدوث البدع بسبب الجهل باللغة العربية حينئذ فقد فهم أهل البدع من المتكلمين كتاب الله تعالى على غير وجهه [٣] واستند الشاطبي إلى آثار كثيرة أوردها بكتابه (الاعتصام) عند حذيفة من تخريج ابن وضاح، حيث خرج عن ابن وهب أنه قال: (ليس عام إلا والذي بعده شر منه. لا أقول: عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب علمائكم وخياركم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم) [٤].

وسيأتي الحديث بمشيئة الله تعالى في المبحث الثاني من هذا الكتاب عن آراء الفرق ومناقشتها تفصيلاً، ولكننا في مجال التاريخ العام نثبت هاهنا كيف تدرجت البدع ثم تشعبت وتنوعت حيث أرجعها بعض علمائنا في الأصل إلى أربعة فقالوا: (أصول البدع أربعة، وسائر الثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا، وهم: الخوارج، والروافض (أي الشيعة)، والقدرية والمرجئة).

وربما كان تأصيل البدع في هذه الفرق وحدها يرجع إلى أنها كانت بدايات للانحراف عن عقيدة الأوائل، فنحن نعلم ما أحدثه الخوارج من انشقاقات في الصف الإسلامي فضلا عن (تكفيرهم) لمرتكبي الكبائر، وظهر التشيع في بدايته علامة على

---

(١) الشاطبي: الاعتصام ج ٢ ص ١٠٢ – تحقيق رشيد رضا – دار التحرير سنة ١٩٧٠م.

(٢) نفسه ص ١٠٣.

(٣) نفسه ص ١٠٢.

(٤) الاعتصام ج ١ ص ٥٣.

سب الصحابة ﷺ باستثناء علي بن أبي طالب ﷺ فكان بعد ذلك فاتحة للطعن في الإسلام بواسطة الطعن في أشخاصهم، وكانت القدرية علامة على إنكار نص من نصوص الدين -أي الإيمان بالقدر خيره وشره، وأصبح الإرجاء بابًا للاستهانة بالعمل وتشجيعًا للاستهتار بتعاليم الإسلام.

وعلى أية حال فإن تبويب "الكلام" وتفريعه وتنظيره نسب إلى المعتزلة؛ لأنهم أول من فعل ذلك ففي زمن عمرو بن عبيد تكلموا في الوعيد وإنكار القدر، وبعده جاء أبو الهذيل العلاف والنظام وأشباههم من أهل الكلام فنفوا الصفات الإلهية [(١)].

وكانت حجتهم الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه، إلا أنهم لم يستخدموا أدلة الشرع بل استخدموا أدلة ظنوا أنها عقلية فأساءوا أكثر مما أحسنوا وأصبحوا (كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعي، فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه) [(٢)].

لهذا بَدَّعَهُم علماء السلف وبَدَّعُوا طريقتهم، وقام أهل السنة في وجه المعتزلة وعارضوهم.

ذم السلف لأهل الكلام المخالف للكتاب والسنة:

يقول ابن تيمية:

(ولهذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام المحدث المخالف للكتاب والسنة، إذ كان فيه من الباطل في الأدلة والأحكام ما أوجب تكذيب بعض ما أخبر به الرسول ﷺ، وتسليط العدو على أهل الإسلام) [(٣)].

والنظرة المقارنة أيضًا تعطينا صورة دقيقة عن التغير الحادث بعد عصر الصحابة والتابعين من حيث المنهج ومن حيث القضايا التي كان يهتم بها أهل القرون الأولى

---

(١) ورأسهم الجعد بن درهم، عداده في التابعين مبتدع ضال، زعم أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلا و لم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق، الذهبي: ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٨٥.

(٢) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٥٧/ ٦٣.

(٣) نفسه ص ٦٣.

بالمقارنة بالعصور التي تلتهم. يقول ابن قتيبة:

(وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساوس والخطرات، ومجاهدة النفس، وقمع الهوى، فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر) [(١)]، ويقصد بذلك الاصطلاحات التي ابتدعها المعتزلة في كلامهم واستعاروها من الفلسفة اليونانية.

وقد لخص ابن خلدون تاريخ ذلك إجمالاً فبين العقائد التي تقررت في الدين، إذ قال الرسول ﷺ حين سئل عن الإيمان: ((**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**)) وهذه هي العقيدة المقررة في علم الكلام.

وبعد شرح وتحليل لأمهات العقائد الإيمانية أوضح ابن خلدون أن هذه العقائد معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة.

ومن هذا التقرير يتبين أن أدلة الكتاب والسنة تستند إلى أدلة عقلية، (وأن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة).

وفي عبارة الأخير إشارة إلى اكتفاء الأوائل بهذا المنهج القويم، واستمر الحال كذلك إلى أن عرض خلاف في تفاصيل هذه العقائد (أكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل وزيادة إلى النقل) ونجم عنه (حدوث) علم الكلام، أي أنه يعلل حدوثه بالاختلاف حول الآيات المتشابهة.

ويصف بعد ذلك بدع المجسمة والمشبهة والمعتزلة إلى أن يصل إلى سبب تسمية مسائله بعلم الكلام فيقول: (وسموا مجموعه علم الكلام، إما لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي [(٢)] وتمييزًا له عن (الفقه) لأن الفقه عمل،

---

(١) ابن قتيبة: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (كتاب عقائد السلف) تحقيق د.النشار و د. الطالبي ص ٢٢٤ – منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧١م.

(٢) المقدمة ص ٤٦٥ ط التجارية.

لأنه مجموعة العبادات تبدأ بالطهارة ثم تنتهي بالموت، والإيمان لابد له من عمل) [١].

ومن أجمل كلمات ابن خلدون التي يصف بها عجز العقل عن الإحاطة بالمخلوقات قوله: (لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقًا من ذلك، والله من ورائهم محيط) ويتبع ذلك توجيه القارئ إلى المنهج السليم النافع الذي يعود عليه بالفائدة ونبذ المنهج السقيم غير النافع، فيقول: (فَاتَّهِمْ إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتَّبِعْ ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك) [٢].

بعد ذلك علينا التعريف بعلم الكلام وموقف علماء المسلمين منه سواء المدافعين عنه أم الناقدين له.

التعريف بعلم الكلام وأهم موضوعاته:

يعرف ابن خلدون علم الكلام بقوله: (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة).

ومع أنه أجاز الدفاع عن العقائد الإيمانية بواسطة الأدلة العقلية إلا أنه عاد فأوضح أن المسائل الغيبية إنما هي لا تقع في حيز الإمكانيات التي يستطيع العقل وحده الاهتداء إليها لأنها فوق طور العقل. وتحدث أيضًا عن الملكة الإيمانية الراسخة في النفس من أثر أداء العبادات فيقول:

(فقد يتبين لك من جميع ما قررنا أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي يحصل بها السعادة).

ثم أخذ يحدد معالم الفكر والنطاق الذي يدور فيه ويصف الحدود الضيقة التي لا يستطيع أن يتجاوزها، وأن الفكر عاجز عن الإحاطة بتفصيل الوجود كله -أي

---

(١) المقدمة ص ٤٦١.

(٢) المقدمة ص ٤٦٠.

الوجود (عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، فالأمر نفسه بخلاف ذلك). وأن الأمثال التي يسوقها مؤرخنا تدعم هذا الرأي، فالأصم ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع ويفقد صنف المسموعات، ويسقط عند الأعمى صنف المرئيات.

إن هذا يثبت عجز الإدراك الإنساني عن الإحاطة بما في الوجود كله، فما بالنا بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى؟ ولكن لا يعني هذا القدح في العقل؛ بل العقل ميزان صحيح لأن أحكامه يقينية، ولكن بسبب ما بيناه من عجزه عن الإحاطة بالوجود – لأنه أوسع نطاقًا من المدارك الإنسانية أي أن العقل لا يستطيع أن يزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية [١]. وربما كان المثال الذي ضربه لنا ابن خلدون في هذا الصدد يعد أقوى دليل فيما يقدمه من رأي دقيق لإثبات عجز العقل عن إدراك ما وراء طوره في المسائل الغيبية إذ يقول: (وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينة لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك، على أن الميزان في أحكامه غير صادق، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه، وتفطن في هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك) [٢].

وقد أشار ابن خلدون في تعريفه إلى أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام في دائرتي المعتزلة والأشاعرة، وبين علماء الحديث والسنة مما جعلنا نرجح أن وراء هذه الأسطر قراءات متشعبة ومستوعبة لقضايا أصول الدين ووجهات النظر المتباينة حولها، ويتضح أيضًا أنه أعطى الجانب النقدي اهتمامه أيضًا.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٢ – دار الفكر ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م.

(٢) المقدمة ص ٣٨٤.

لذلك لا ينبغي أن ننسى جبهة عريضة وقفت تعارض علم الكلام في دائرة السلف من علماء الحديث على مر العصور، وتعده من قبيل البدع الطارئة على الفكر الإسلامي، وأنه أدى إلى الاضطرابات والفتن، وفتت جهود المسلمين وأجهد عقولهم في مجال كفاه القرآن والسنة، وحتى أمام وجهة النظر المدافعة عن المتكلمين بأنهم دافعوا عن الإسلام فإن الرأي المعارض -الذي يمثله ابن تيمية والجامع للاتجاه السلفي قبله- على العكس يرى أنهم أخفقوا في هذه المهمة لأنهم لم يستندوا في أصولهم على المبادئ الاستدلالية القرآنية، فالمتكلمون الذين ابتدعوا وزعموا أنهم به نصروا الإسلام وردوا به على أعدائه كالفلاسفة لا الإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا، بل كان ما ابتدعوه ما أفسدوا به حقيقة الإسلام على من اتبعهم [1] ومضى يذكر أسباب ذلك ودوافعه مما لا يدخل في نطاق موضوعنا الآن، وسنفصله عند الحديث عن آرائه الكلامية. ونقتصر هنا على بيانه لخطأ المتكلمين المنهجي -وهو يعبر لنا عن الاتجاه السلفي العام- إذ يستند إلى ضرورة علم ما أنـــزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة كما فعل الصحابة والتابعون ومن سلك سبيلهم -لاسيما في أصول التوحيد والإيمان- ثم بعد معرفة ما بينه الرسول ﷺ ينظر في أقوال المفكرين وما أرادوه بها فتعرض على الكتاب والسنة. مع العلم بأن العقل الصريح دائمًا موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط. فإن الميزان مع الكتاب **﴿الله أنـــزل الكتاب بالحق والميزان﴾** ولكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول ﷺ بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول. وإذا كان هذا هو المنهج الصحيح فإن المناهج المخالفة على العكس من ذلك، فإنها ناجمة عن ابتداع بدعة برأي البعض وتأويلاتهم، ثم جعل ما جاء به الرسول ﷺ تبعًا لها. فيحرف ألفاظه ويؤولها على وفق ما أصلوه [2].

---

(١) ابن تيمية: شرح حديث النـــزول ص ١٦٣.

(٢) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٧ ص ٤٤٣/ ٤٤٤.

أهم موضوعات علم الكلام (١).

تدور المناقشات في أصول الدين التي يتكلم المتكلمون فيها ويتناظرون عليها، حول المسائل الآتية:

أولا:

الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم فأخذ المتكلمون يبرهنون على حدوث الأجسام والدلالة على أن للعالم محدثًا هو الله تعالى.

ثانيًا:

تنـــزيه الله -عز وجل- للرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودحض مزاعم القائلين بكثرة الصانعين كالمجوس، فقد شبه اليهود الله سبحانه وتعالى بصفات المخلوقين وادعى النصارى القول بالتثليث. وقال المجوس بإله النور وإله الظلمة.

ثالثًا:

إثبات أن الله تعالى عالم قادر حي قيوم.وأنه واحد، للرد على النافين للصفات.

رابعًا:

الكلام في رؤية الله -عز وجل- في الجنة، وإثباها أو نفيها، وأن كلام الله في القرآن الكريم مخلوق أو غير مخلوق.

خامسًا:

البحث في أفعال العباد وهل هي مخلوقة يحدثها الله تبارك وتعالى أو العباد، وإذا كانت الاستطاعة قبل الفعل أو معه.

---

(١) ويسمى أصول الدين أو علم الكلام أو الفقه الأكبر، تمييزًا له عن علم الفروع وعلم الفقه والشريعة.

ومن الناس من يجعل أصول الدين اسمًا لكل من اتفقت فيه الشرائع بما لا ينسخ ولا يغير سواء كان علميًا أو عمليا سواء كان من القسم الأول أو الآخر حتى يجعل عبادة الله ومحبته وخشيته ونحو ذلك من أصول الدين وقد يجعل بعض الأمور الاعتقادية الخيرية من فروعه ويجعل اسم الشريعة ينتظم العقائد والأعمال..

(ابن تيمية: قاعدة في توحيد الله، وتعدد الشرائع وتنوعها ص ١٨٤، بكتاب من هدي المدرسة السلفية -إعداد وتقديم عبد الله حجاج ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

سادسًا:

الحكم على من مات مرتكبًا الكبائر، فهل يخلد في النار أو يجوز أن يرحمه الله تعالى ويتجاوز عنه ويدخله الجنة؟

سابعًا:

الدلالة على النبوة بعامة، ردًا على البراهمة وغيرهم من مبطلي النبوة، والدلالة على نبوة محمد ﷺ بخاصة.

ثامنًا:

القول في الإمامة أو الخلافة ومن يصلح لها ومن تصلح له وهل هي قضية مصلحية تتم بأهل الحل والعقد في الأمة أم أنها تتم بالنص [1]؟

ولكن في العصر الحاضر، أي عقب إلغاء الخلافة الإسلامية في دورها الأخير (الخلافة العثمانية) تفتقت المسألة في أبحاث علماء الإسلام في إطار آخر لم يتطرق إليه علماء السلف من قبل، بل ربما لم يخطر ببالهم أنه سيحدث !! ذلك لأن الخلافة الإسلامية ظلت مصاحبة لتاريخ الإسلام وأمته منذ وفاة النبي ﷺ حيث تولى (الخلافة) أبو بكر الصديق، ولم يكن يخطر على بال أحد أنه سيأتي وقت تلغى فيه هذه الخلافة وتتحول الأمة الواحدة إلى دول ودويلات متغيرة متفرقة على أيدي الاستعمار الغربي.

ومن هنا -وعقب إلغاء الخلافة- صيغت هذه المسألة في الفقه السياسي الإسلامي تحت عنوان (عدم الفصل بين السياسة والدين).

وربما أول من نبه إلى ذلك الشيخ مصطفى صبري آخر شيوخ الإسلام - الخلافة العثمانية- حيث قرر أن مسألة فصل الدين عن السياسة ترجع إلى مسألة (وجوب نصب الإمام) المعدودة من المسائل الكلامية. ومؤدى رأيه يعني أن وجوب الإمامة في اصطلاح علماء الإسلام يعني مباشرة وتلقائيًا أنه يلزم تحكيم شرع الله تعالى ولهذا أوجبوا نصب الإمام أو الخليفة المسئول عن ذلك [2].

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ط المنيرية ص ١٧- ١٨ سنة ١٣٤٢هـ.

(٢) ينظر مقدمتنا لكتاب الشيخ مصطفى صبري (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة =

هذه هي المسائل المثارة في المدارس الكلامية، ويظهر من مصطلحاتها أنها ترتبط بمراحل تاريخية للمسلمين من أهم سماتها أنهم كانوا فيها أصحاب الحضارة السائدة في عالمهم.

المشكلات المستحدثة التي تواجهها الثقافة الإسلامية:

والآن جدت مشكلات أخرى، فأصبح من الضروي أن يجابهها الفكر الإسلامي بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته. فإذا صورنا العالم الإسلامي أيام الاشتباك العقلي مع خصوم الإسلام، فإنه من الواضح أنه كان مهاجمًا، يملك في يديه العناصر الحضارية الأسمى، ثم انحسرت موجة الحضارة وانقلب العالم الإسلامي مدافعًا بعد أن كان ممسكًا بزمام الأمور مرهوب الجانب مسموع الكلمة [١].

والنظرة العامة لتاريخنا المعاصر تجعلنا ندرك صحة ما نذهب إليه، فقد اتخذ الغرب موقف المهاجم منذ شن نابليون هجومه على الشرق الذي بدأ في التمزق حينئذ بالغًا الذروة في الحرب العالمية الأولى حيث انهار النظام الذي كان قائمًا في ظل الخلافة العثمانية.

وتجددت المشاكل أمام الفكر الإسلامي الذي أخذ يجابهها بأساليب جديدة نتيجة -من ناحية- لمقاومة الاستعمار ومقاومة المذاهب والبحوث الفكرية التي خلفها بمعاونته في تمكين سلطته في رقعة البلاد الإسلامية [٢]، ومن ناحية أخرى أصبح من واجب العلماء التعريف بالإسلام بصورته الشاملة كدين وحضارة وبعث النشاط في قيمه العليا -سواء في حقائقها الميتافيزيقية أو أنظمتها التشريعية والاجتماعية والسياسية- أو في قيمها الإنسانية الأخلاقية في هذا العصر المصطبغ بالتقدم العلمي المادي، الذي عزل الإنسان عن القيم الروحية التي غذته بها الأديان.

=

والأمة) وقد اخترنا له عنوانًا آخر أيضًا باسم (الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية) من مطبوعات دار الدعوة -الإسكندرية.

(١) باول شمتز: الإسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمد شامة ص ٦٤- مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره - دار الفكر سنة ١٩٧١ م.

ومهما بلغت العلوم في تقدمها وازدهارها، ليس لها أن تعترض طريق الدين.

وقد أصبح هذا الاستدلال في غاية القوة، حيث إن العلماء اعترفوا في هذا القرن بأن العلوم المادية لا تعطي إلا علمًا جزئيًا عن الحقائق ومن جانب آخر اضطر العلماء إلى الانحناء والخضوع أمام آلاء الله -عز وجل- والإقرار بأن الزهو بالعلم والاكتشافات العلمية كان تعبيرًا عن قصور في إدراك الإنسان لمدى قدرته إزاء سنة الله الكونية ثم أظهرت الاكتشافات أن الإنسان لا يستطيع اكتشاف قوانين حياته بنفسه، وأن الاشياء التي لا نطّلع عليها هي أهم بكثير من التي نطّلع عليها، وإقرارا لهذه الواقع اشترك نحو مائة وخمسون من كبار علماء العالم في نشر معجم بعنوان (دائرة معارف الجهل) موضحين [١] الكثير من الظواهر والحقائق الإنسانية والكونية التي لا تزال بدون تفسير.

كذلك مما يقرب عالم الغيب للأذهان الذي يشمل أصول الدين أغلب قضاياه محاولات العلماء معرفة عالم الأفلاك حولنا وهو مادي منظور ولكن أبعاده وحركاته وسرعاته وأعداده كلها تحير العقل وتذهله وتعجزه عن التصور الحقيقي -لأن هذا العالم أعظم وأضخم من القوة المتخيلة للأذهان فالإنسان الذي يدرس الكون مضطر لتغيير قيمه ومقاييسه إلى هذه الحجوم والكتل الهائلة التي لا يجد لها تشبيهًا معقولا يساعده على تصورها وفهمها [٢].

حجج المتكلمين في الدفاع عن منهجهم:

يستند علماء الكلام في الدفاع عن منهجهم إلى الحجج الآتية:

الأولى:

أن ظهور علم الكلام في زمن أتباع التابعين استتبعه استحسان وتم تدوينه بالكتب، فيعد من هذا الوجه من قبيل البدعة الحسنة، به انــزاحت الشبهة عن

---

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى (مدخل علمي إلى الإيمان) تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة وتحقيق د. عبد الصبور شاهين - دار البحوث العلمية ١٣٩٣ هـــ - ١٩٧٣م.

(٢) زهير الكومي: مقدمة كتاب (الكون والثقوب السوداء) ص ١٣ سلسلة كتب (عالم المعرفة) بالكويت.

قلوب أهل الزيغ وثبت قدم اليقين للموحدين.

الثانية:

أن أدلة العقول لازمة لبيان صحة أصول الدين وحقائقها، لأن المناهج الصحيحة في معرفة حق الكتاب وصدق الرسول ﷺ مستند من البراهين العقلية.

الثالثة:

إذا جعل أصل الدين الاتباع -لا العقل- فإن ذلك مخالفة للكتاب لأن الله تعالى ذم التقليد في القرآن، وندب الناس إلى النظر والاستدلال آمرًا بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية ومن تدبر القرآن ونظر في معانيه وجد تصديق هذا الأصل [(١)].

الرابعة:

يروي القاضي عبدالجبار (٤١٥هـ) أنه لما منع الرشيد من الجدال في الدين وحبس أهل الكلام، كتب إليه ملك السند يطلب من يناظره، فوجه إليه الرشيد قاضيًا لم يحسن الجدل، فاضطر إلى البحث عمن يناضل عن الدين، وأخرج أهل الكلام من السجن ووقع اختياره على أحدهم فبعثه للمناظرة.

وتروى القصة بوقائع أخرى، تتلخص في اجتماع الرشيد برجلين من المتكلمين فتكلما في مسألة فقال بعض الفقهاء احكم بيننا فقال: هذا أمر لا يعنينى فأمر له بصلة وقال هذا جزاء من لا يشتغل بما لا يعنيه، أما الرواية الثالثة، فتشير إلى أمره بقتل رجلين تكلما أمامه في مسألة غامضة فأمر بقتلهما لأنهما زنديقان.

ولكن المؤيدين لعلم الكلام يستخصلون منها جميعًا عجز أهل الحديث عن النضال عن الدين لمغايرة منهجهم عن طريقة المتكلمين المستندة إلى العقل.

رأي علماء السلف في الحجج والاعتراض عليها:

يرى المعارضون أن الاختلاف ينبغي أن يفصل بين النظر الشرعي والكلام المبتدع ويظهر الاختلاف بينهم منهجيًا قبل أي شيء آخر، إذ يرى أهل الحديث أن العقل لا يوجب شيئًا فلا دور له ولا حظ في تحليل أو تحريم أو تحسين أو تقبيح ما لم

---

(١) السيوطي: صون المنطق ص ١٥٧.

يرد به الوحي مستدلين على ذلك بقول الله: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله عز وجل: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى حاكيًا عن الملائكة فيما خاطبوا به أهل النار ﴿**ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى**﴾ [الزمر: ٧١] فيتبين من هذه الآية أنه -عز وجل- أقام عليهم الحجة ببعث الرسل، فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثه الرسل شرطًا لوجوب العقوبة، وإذا تأسس الإيمان عن الفعل لأدى ذلك إلى إنكار دور الرسل وكأن وجودهم وعدمه بمنـــزلة واحدة، أو كأنهم اقتصروا في دعوتهم على الشرائع وفروع العبادات دون أصول الدين.

وهنا يظهر صورة مختصرة للاعتراض في صيغة تهكم، فيرى أحدهم (أنه لو قال لا إله إلا الله عقلي رسول الله لم يكن مستكفرًا عند المتكلمين من جهة المعنى، فظهر فساد قول من سلك هذا)[١]، وأيضًا ففي الدين معقول وغير معقول والاتباع في جميعه واجب، وأن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته فقد ثبت أن النبي ﷺ قال ((**والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا**)) فدل على أن الله تعالى يعرف العبد مع وجود العقل سبب الإدراك والحجة لقوله عز وجل ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يعقلون**﴾ [النحل: ٦٧] وقال: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى مخبرًا عن أصحاب النار ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** ﴾ [الملك: ١٠] فالعقل إله لإقامة العبودية لإدراك الربوبية، فهو إله التمييز بين القبيح والحسن، السنة والبدعة، والرياء والإخلاص، ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهي [٢]، وقديمًا عبر الجنيد عن عجز العقل عن إدراك الربوبية وعاب على المتكلمين منهجهم بقوله نفي العيب حيث يستحيل العيب، عيب [٣]، ولا ينكر علماء الحديث النظر لزيادة البحث، وإنما أنكروا طريقة أهل

---

(١) القاضي عبد الجبار: فرق وطبقات المعتزلة ص ٦١ – ٦٤.

(٢) السيوطي: صون المنطق ص ١٨٠.

(٣) السيوطي: صون المنطق ص ١٧٠.

الكلام إذ أسسوا طريقتهم على وجوب النظر أولا المؤدي إلى معرفة البارئ —عز وجل- بينما ينبت أتباع هذه الطريقة عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين بعده [١]، وقد علمنا من سيرته أنه لم يدع أحدًا إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر وحدوث الأجسام كما يفعل أهل الكلام [٢] بل إن دراسة منهج الأنبياء والرسل يجعلنا ندرك أنهم لم يشتغلوا بالنظر وتلقين أتباعهم والمصدقين بهم الأدلة التي هي أصول الإسلام، لكنهم حرصوا على تعليم الشرائع والآداب، وينبغي التمييز بين لفظي التقليد والاتباع، فالتقليد هو في قول الغير بلا حجة، أما الاتباع فإنه السير على منهاج رسول الله ﷺ بعد قيام الأدلة على نبوته، المنقولة إلينا بواسطة أهل الإتقان والثقات من إلى ما لا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات، وأهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه، ولو فعلوا لنقل إلينا تصانيفهم كما نقل إلينا كتب الفلاسفة والمتكلمين من علماء المسلمين، ويذهب ابن الوزير اليماني إلى أبعد من هذا فيرى أنه لم ينقل أن اثنين اختلفا في شيء قط، ولا كذب أحدهما الآخر ولا غلطه ولا خطأه، ولو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر لقضت العادة باختلافهم كما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة والمتكلمين، فإن كثيرًا منهم قد تفردوا بمقالات حتى قيل اجتماع العلماء في النظريات محال ويضيف إلى ذلك دليلا آخر، هو انقطاع الأذكياء في تحصيل علم الكلام، دقيقه وجليله، مستفيدًا بما انتهى إليه الرازي معترفًا بالقصور عن بلوغ غايته ومنتهاه، فقرر في وصيته التي مات عليها (ولقد اجتزت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم) ويورد القصة التي شنع بها أهل الكلام، على المحدثين من إرسال ملك الروم إلى هارون الرشيد وطلب ((المناظرة)) وعجز المحدث عنها وسخرية أولئك الفلاسفة، فقد كثر الكلام في التبجح بذلك، وبحكاية أخرى تشبهها. والجواب عليهم في ذلك أنهم أرادوا الاستدلال على أنهم أجدل من المحدثين فذلك مسلم لهم أنهم أجدل من رسول الله ﷺ، لأن الكل يعلم أنه لم يصدر شيء من الكلام ومجادلة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة.

(٢) ابن الوزير اليماني: البرهان القاطع ص ٥٥.

الفلاسفة من رسول الله ﷺ ولا من جميع الصحابة ﷺ ولا اشتغلوا بممارستهم لما رواه أهل اللجاج، ولا يلزم من ذلك أنهم أقل معرفة بالله ولا أقل نصرة لدين الله، ولو أحبوا الخوض في علم الكلام واشتغلوا بتعلمه وتعليمه لبلغوا فيه ما أرادوا وعرفوا ما عرف المتكلمون وزادوا، ولكنهم أعرضوا إعراض مستغن عنه - واستقراء السير والأخبار تدلنا على أنهم لم يتبعوا هذا الأسلوب في الدعوة، فها هي قصة جعفر بن أبي طالب ومهاجرو الحبشة مع النجاشي وما راجعه به خطيبهم جعفر حين قيل للنجاشي إنهم يقولون في عيسى عليه السلام قولاً عظيمًا، فلما سألهم النجاشي عن ذلك أجابوا بكلام الله تعالى واحتجوا به على صحة عقيدتهم وتلا جعفر على النجاشي صدر سورة مريم حتى بكى النجاشي وأصحابه وكان ذلك سبب إسلامه، كما أرسل صلوات الله عليه إلى هرقل من كان على صفة المحدث الذي أرسله هارون وهو دحية بن خليفة الكلبي ولم يعلمه ما يجيب به عليهم إن أوردوا عليه ما يدق من شبههم وهم أهل المنطق وسائر الدقائق النظرية، كما بعث إلى النجاشي صاحب الحبشة، وإلى المقوقس صاحب الإسكندرية وبعث أبا عبيدة إلى البحرين يعلنهم الإسلام، وبعث عليًا ومعاذًا وأبا موسى إلى اليمن، وبعث سائر الملوك للدعاة إلى الإسلام لم يضمنها شيئًا من ذلك مثل كتابته إلى هرقل وإلى كسرى. وخلا المنهاج الذي اتبعه الرسول ﷺ -كما أمره الله عز وجل- هو الاقتصار على مجرد الدعوة إلى الإسلام والاتكال في إيضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من إظهار المعاني وتقديم البيانات الواضحة للعقول، إذ قال الله -عز وجل- تسلية لرسول الله ﷺ وبيانًا لحد ما يجب عليه ﴿**وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**﴾ [آل عمران: ٢٠] أي الذي في بواطنهم وما أقام عليهم من الحجة، إذ لا مطمع في هداية المرء والجدل والحجة وكيف يطمع فيهم وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم جادلوه يوم القيامة وأنكروا ما صنعوا من معصيته سبحانه وتعالى حتى شهدت عليهم أيديهم وأرجلهم فقالوا لأعضائهم لم شهدتم علينا [١]؟

وإن قيل إن الله تعالى قد أمر رسول الله ﷺبالجدل في قوله تعالى: ﴿**وجادلهم**

---

(١) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه وسلامه ج ٢ ص ١٣١.

بالتي هي أحسن﴾ [النحل: ١٢٥] فالجواب من وجهين:

أحداهما:

أن الله تعالى بين ذلك بالتي هي أحسن ولم يأمره بمطلق الجدال، فامتثل ما أمره ومع ذلك فلم ينقل عنه أنه جادل بأساليب المتكلمين والجدليين فثبت أن التي هي أحسن ليست سبيل المتكلمين مثل ما علم الله رسوله أن يحاجهم به في قوله تعالى: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾** [سبأ: ٤٦، ٤٧] وتنفيذه للأمر الإلهي **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** فصعد على الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فسألهم (**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقي**)؟ قالوا: نعم، ماجربنا عليك إلا صدقاً قال: ((**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)) والأمثلة الأخرى كثيرة في القرآن عن محاجة الأنبياء وجدالهم كما في سورة هود، ومحاجة إبراهيم لقومه ومحاجة يوسف لصاحب السجن.

الوجه الثاني:

أن الله تعالى أجمل كيفية الجدال بالتي هي أحسن في تلك الآيات وبينه في غيرها بتعليمه في القرآن العظيم لنبيه ﷺ فقال تعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب. فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾** [آل عمران: ١٩، ٢٠][١] فهذه الآية واضحة الدلالة على الأمر بالاقتصار على مجرد الدعوة إلى الإسلام والاتكال في إيصال الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من خلق العقول وبعثه الرسول وإنزال الآيات وإظهار المعجزات وتكثير مواد البينات [٢] وسنرى أيضًا أن ابن تيمية في معارضته لعلم

---

(١) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه ج ٢ ص ١٣١.

(٢) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه وسلامه، ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها- ١٤١.

الكلام يوضح أن السلف الصالح لم يعارضوا جنس النظر والاستدلال ولكن المعارضة اتجهت إلى الأساليب الكلامية المستقاة من الفلسفة اليونانية وكان الأحرى الإحالة إلى الأدلة الشرعية وفي مقدمتها القرآن الحكيم لأنه اتجه في خطابه للإنسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه وإيقاظ قلبه من الغفلة.

المبحث الثاني

انحراف عقائد الفرق عن عقائد السلف

دراسة مقارنة:

* التحذير من الفرقة والاختلاف.
* السلف الصالح هم الأحكم والأعلم.
* الفرق: نشأتها وعقائدها.

(١) الخوارج.

(٢) الشيعة.

- موقف ابن تيمية من مسألة الإمامة أو الخلافة عند الشيعة.
- السياسية الشرعية عند ابن تيمية.

(٣) المرجئة.

(٤) القدرية (نفاة القدر) .

(٥) الجهمية.

(٦) المعتزلة.

(٧) الأشاعرة. ابن تيمية والتصوف.

(٨) ابن تيمية والتصوف.

* تفسير ابن تيمية للتاريخ.
* حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية.

التحذير من الفرقة والاختلاف

تحدثنا في المبحث السابق إجمالاً عن أصول البدع الأربع: الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة، وجاء دور النقد الذي وجهه العلماء إلى هذه الفرق:

ولسنا نريد بطبيعة الحال إثارة الحديث عن (الفرق) و(الاختلاف) و(الانشقاق)، ولكننا نريد التحذير من تكرار (البدع) فهي ليست موقوتة بعصر دون آخر، فإن الزمان -كما يقول الإمام الشاطبي: باق، والتكليف قائم والخطرات متوقعة. ويتساءل أيضًا: وهل قرن أو عصر يخلو إلا وتحدث فيه البدع؟ مرددًا بذلك المعنى الذي قصده ابن عباس ﷺ حين قال: (وما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سنة، حتىتحيا البدع وتموت السنن) [(١)].

ودارس تاريخ المسلمين سيرى صحة تنبؤاته، لا سيما في العصور الأخيرة حيث يلاحظ وكأن بعض الفرق عادت من جديد !!

ولكن ليس شرطًا أن تعود بأشخاصها ورجالها وأسمائها، ولكن بمذاهبها وانحرافاتها عن العقيدة الإسلامية التي عضت عليها الفرقة الناجية بالنواجذ [(٢)].

إن الحقيقة التي لا سبيل إلى التشكيك فيها أن عقائد الفرق تعشعش في أذهان البعض وربما بلا دراية أو معرفة بأصولها عند الفرق التي انقضى زمانها وأصبحت في ذمة التاريخ !!

وإذا عرضنا لأسمائها وعقائدها فلكي نحافظ على ما تتطلبه الأمانة العلمية من بسط لوجهات النظر المختلفة التي سجلتها صفحات التاريخ.

ولكن غرضنا الأسمى التحذير من الفرقة والاختلاف، والتنبيه إلى الانحرافات العقائدية التي انحدرت إليها هذه الفرق، وتعظم مسئوليتنا إذا علمنا أن أعداء الإسلام لا يزالون ينفثون سموم أحقادهم بإشعال نار الفتنة والاختلاف من جديد بين المسلمين كلما التأم شملهم، أو نهضوا رافعين راية الإسلام من جديد !!

وبصرف النظر عن أسماء هذه الفرق؛ فإنها كما نعتقد ما زالت تعبر عن

---

(١) الشاطبي: الاعتصام ج ٢ ص ١٢٨.

(٢) سيأتي بيان عقيدة الفرقة الناجية المقصودة بالحديث النبوي في نهاية هذا المبحث.

(عقائد) البعض إلى الآن.

وأفضل الطرق لتصحيح العقائد لذوي النوايا الحسنة. أن نتتبع مواطن الخلل والخطأ في عقائد هذه الفرق لنتجنب الانـــزلاق إليها من جديد. وعلى ذلك يكون أحسن الطرق للتحصن ضدها هو التعريف بعقائدها ومناقشتها بالحجة مع مقارنتها بالعقيدة الصحيحة المتلقاه عن السلف بأدلتها من الكتاب والسنة:

وللقارئ فكرة عامة مختصرة قبل العرض والمناقشة.

* إن عقيدة الخوارج قائمة على تكفير مرتكبي الكبائر.

* ونشأ التشيع بسبب النـــزاع حول قضية (الإمامة) أو (الخلافة) وهي الرئاسة العامة للمسلمين.

* ويعبر المرجئة عن الفصل بين القول والعمل وربما يؤدي إلى الاستهانة بأوامر الدين.

* وكان اسم (القدرية) عنوانًا على نفاة القدر ومخالفة للعقيدة الإسلامية بالإيمان بالقضاء والقدر.

الجهمية:

ابتدعوا بدعًا بآرائهم ليس فيها كتاب ولا سنة، ثم كفروا من خالفهم فيما ابتدعوا، ولهذا كان ذم السلف للجهمية من أعظم الذم، حتى قال عبد الله بن المبارك (إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية)[1].

ويعبر موقفهم عن مخالفة عقيدة مقصودة للكتاب والسنة وإحلال (الآراء) محلها، ثم ارتكاب ما هو أشنع، حيث يتهمون من خالفهم بما يحلو لهم !

والمعتزلة:

بعد اندثارهم كفرقة ما زالوا يعيشون بيننا تحت رداء تحكيم (العقل) و(حرية الرأي) واستبعاد الأحاديث النبوية. وسنرى عند مناقشتهم بأدلة السلف أنهم يتذرعون بهذه الحجج وينسبون أنفسهم إلى الحكمة والفكر، بينما هم في الحقيقة يتحاكمون إلى غير الكتاب والسنة.

---

(١) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج ١ ص ١٤٧.

مع العلم بأن القرآن الكريم حذر من ذلك تحذيرًا شديدًا. وقد أورد ابن تيمية آيات كثيرة في هذا الصدد، منها قوله تعالى: ﴿**الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا**﴾ [غافر: ٣٥]. وفي الآية الأخرى ﴿**إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير**﴾ [غافر : ٥٦].

والسلطان:

هو الحجة المنــزلة من عند الله.وقال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنــزل إليك وما أنــزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدًا**﴾ [النساء: ٦٠].

ويرى شيخ الإسلام أن هذه الآيات، وغيرها تحذر من يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة (وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية، وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب، وغير ذلك من أنواع الاعتبار) [١].

السلف الصالح هو الأحكم والأعلم:

وسنحاول أن نخط طريقنا من القاعدة المنهجية التي يدعمها ابن تيمية شرعًا وعقلاً، وتتلخص في الاعتقاد أن السلف الصالح من الصحابة كانوا هم الأعلم بلغة القرآن ومراميه، والأدق في فهم محكمه ومتشابهه، فلم تظهر في عصرهم خلافات في أصول العقيدة، وكان هناك إجماع عليها بين الكافة، ثم بدأت الانشقاقات رويدًا رويدًا، وكلما تفتقت الأحداث عن مسألة، أو ظهرت ثغرة، أسرع الجهابذة من علماء المسلمين ومفكريهم لسدها، كظهور الخوارج بسبب سوء فهم القرآن، أو إعلان التشيع على إثر مقتل الحسين.. إلى آخر الأحداث التي نقلتها كتب التاريخ. فأخذت الآراء تتضخم فيعلو البناء الكلامي طبقة، طبقة حتى صبغ في الشكل الذي نراه في كتب المتكلمين بفرقهم ومدارسهم المختلفة.

على أنه ينبغي معرفة تقسيم الدين إلى أصول وفروع لم يكن معروفًا عند

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج ١ ص ٣١.

الصحابة والتابعين، وقد يرجع إلى زمن ظهور المعتزلة [١] عندما خاض البعض في (علم الكلام)

وظل هذا العلم في دائرة البدع عند السلف بأساليبه ومصطلحاته، فيذكر ابن تيمية أنه (حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين) [٢] ويحرص في ثنايا آرائه على التأكيد بأن نقد السلف لعلم الكلام لم يصدر عن انتقادهم المنهج العقلي، ولكنهم فضلوا المقاييس الشرعية، لأنها عقلية أيضًا، وبهذا يثبت أنهم كانوا أهل نظر ودراية، بجانب كونهم علماء أثر ورواية.

فالأصل أن الرسول ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئًا تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿**وأنــزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نــزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنــزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ [المائدة: ٦٧] وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين، وقال الرسول ﷺ ((**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به،وما من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به**)).

وبناء على هذا الأصل، فإنه يتبين لنا أنه ﷺ أوضح كافة الأصول الدينية مما أخبر به عن الله تعالى من أسماء الله وصفاته، مما جاء في القرآن. وشرح وبين لصحابته هذه الأصول كلها كأحسن ما يكون البيان.

قال أبو ذر: (لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا) وكان الصحابة حريصين على الفهم والاستيعاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث، فإن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا) وقام عبد الله بن عمر بحفظ سورة البقرة في ثماني سنوات لاستغراقه في المعرفة والفهم [٣].

---

(١) ابن تيمية: رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٨٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٢ ص ٤٦٠- ٤٦١.

(٣) الفتاوى: ج ٥ ص ١٥٥- ١٥٦.

وكانت أم الدرداء تصف زوجها بأن أفضل عمله التفكر [١].

وعلى العكس من هذه الحقيقة، فإن الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد -كما يذكر بعض المتكلمين -يحمل في طياته ذم الصحابة، ومؤداه أيضًا أن الرسول بلغ قرآنًا لا يفهم معناه، بل تكلم بأحاديث الصفات، وهو لا يفهم معناها، وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك... وهذا الموقف -كما يذكر ابن تيمية- ضلال عظيم [٢].

ويستند ابن تيمية إلى معرفة عميقة بآيات القرآن والأحاديث النبوية التي تضع الأوائل في المكانة الأقصى والأفضل، ولا يفوته استقراء التاريخ وعقد المقارنات بين القواعد الراسخة التي استقاموا عليها، وبين الخارجين عليها في العصور التالية. ولكن وجه الأفضلية يلتحم أيضًا مع منهج الاتباع للأوائل، إذ ظلت الجماعة الإسلامية المتصلة بالسلف تعض بالنواجذ على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

ثم بدأت العواصف تهب على أرض وحدة المسلمين وتأزوهم، فتقتطع عوامل الاستقرار من جذورها تدريجيًا، وتشق أخاديد الفتن بعقم. أول ما ظهرت عند استشهاد عثمان بن عفان ﷺ.

المخطط العدائي للإسلام ونتائجه:

واختفت وراء مقتل عثمان ﷺ دواعي الفتن والمؤامرات، فإن الأحداث التي أشعل نارها عبد الله بن سبأ تدلنا على أنه كان المحور الذي التف حوله الحانقون والحاقدون والمنافقون، فأطلوا برأسهم بعد أن قمعهم الشيخان قبله، لسببين: أحدهما خوفهم من الظهور أمام عمر بن الخطاب لأنهم يعرفون أسلوبه في الزجر والردع، والثاني، كثرة عدد الصحابة الذين يعرفون فضائل عثمان فيخرصون ألسنة الطاعنين فيه، وربما وجدنا في دفاع عبد الله بن عمر عنه في وجه الطاعنين ما يؤيد نظرنا، ولم يكن كل الناس كابن عمر [٣].

---

(١) نقض المنطق ص ٨٧.

(٢) شرح حديث النـــزول ص ٦٥.

(٣) د. عزت علي عيد عطية: البدعة ص ٥٦.

ولا نستطيع الاسترسال في ذكر هذه المطاعن ودفاع عثمان عن نفسه، فقد لا تسمح طبيعة هذه الدراسة من تحقيق غرضنا [١]، ولكننا نكتفي بالقول، إن المتابع للأحداث في كتب التاريخ بحيدة مع سلامة قصد، يعثر على ملامح خطط معدة من قبل، وأشهرها تزييف كتاب على لسان عائشة -رضي الله عنها- تأمرهم فيه أن يخرجوا. ثم إن عثمان دافع عن نفسه في كل الافتراءات التي وجهت إليه وأبى تنفيذ مشورة بعض الصحابة بقتلهم قمعًا للفتن، وأعاد الوفود إلى بلادها، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا بعد تظاهرهم بالرجوع متعللين مرة أخرى باكتشاف كتاب على لسان عثمان يأمر فيه أمراء الأمصار بقتلهم ولكن الخليفة تبرأ مما نسبوه إليه. وناظرهم محمد بن مسلمة فتظاهروا مرة ثانية بالعودة، ولكن ما لبثوا أن عادوا.

ومما يدلنا على حرص عثمان على وحدة المسلمين ودرء الفتن عنهم، أنه قبل مناقشتهم والدفاع عن نفسه لمقارعة الحجة بالحجة فبرهن على سلامة موقفه وقوة شخصيته وحرصه على الإقناع والاقتناع. ويقوي هذا الاستنتاج أنه ما كان أحد من الصحابة يظن أن الأمر يصل إلى حد قتله.

وعانت الأمة الإسلامية من آثار استشهاده ما عانت، إذ تحول الدفع الإسلامي النشط، إلى نكسة مؤسفة أصابت المجتمع الإسلامي في الصميم، ولهذا فإننا نظن أننا لا نخطئ إذا عللنا هذه الأحداث بأصابع محركة من وراء الستار بدهاء وإحكام، وسنحت لأصحابها فرصة المضي قدمًا لتنفيذ أهدافهم فكان هدفهم الأول إحداث صدع كبير فلما تحقق أصبح من الميسور أن تتلاحق الفتن. فيأخذ بعضها برقاب بعض، وما دامت الشرارة الأولى قد بدأت. فقد أصبحت النتائج محققة، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

ونقول هذا ردًا على منكري وجود شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي المتظاهر بالإسلام للكيد والطعن، أو المستبعدين لهذه الأحداث الضخمة ونسبتها إلى شخصه وحده. وقد يصعب فعلا تصديق أن يقوم شخص واحد بكل هذا، ولكننا نرى أن هناك مخططًا محبوك الأطراف، يصل بين وفود الأمصار، وترويج شائعات حول

---

(١) ينظر كتاب نظام الخلافة في الفكر الإسلامي - ط دار الدعوة بالإسكندرية.

تصرفات الخليفة، ثم الإصرار على قتله بعد أن اتضح سلامة موقفه، بدليل أن الحصار حول منـــزله قد استمر أكثر من شهر، ثم هاجموه على حين غرة فقتلوه وهو يقرأ القرآن!!

والحق إن دور ابن سبأ كان إدارة شبكة المنافقين والأعداء وتوظيفها في إشاعة الفتن والقلاقل في العالم الإسلامي هذا المخطط الذي لم يتوقف.

ففي الدراسة التي أجراها الدكتور الزغبي خلص إلى:

ترجيح وجود مؤتمر سري أومحفل من محافل القوة الخفية (الماسونية) عقد في سبأ، وخطط إلى ما يفضي إلى عرقلة سير الدعوة الإسلامية، وكلف فرقة بهبوط المدينة المنورة منذ عهد عمر ﷺ فاندست كعادتها المتقنة في المجتمع الإسلامي، وما لبث أن استعانت بالعناصر الموتورة التي يتزعمها تلامذة عبد الله بن أبي بن سلول، أو الموتورة بقوميتها لفيروزالفارسي والهرمزان، ونفذت قرار اغتيال عمر بن الخطاب وأطاحت بعثمان بن عفان وخلفت ألوهية علي بن أبي طالب.

ونقول في النهاية: (ذهب مؤسسو الفتنة، وعاش أبناؤهم مسلمين فيما يبدو للناس، ويهود في الحقيقة، أي: عاشوا عيونًا وآذانًا، ومطلقي التهم وخالقي الأحزاب ومنظمي المؤامرات)[١].

---

(١) الماسونية في العراء ص ٢٣٤ مؤسسة الزغبي ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

الفرق نشأتها وعقائدها

ما أن استشهد عثمان ﷺ حتى ابتدأ ظهور الفرق، لأن حادث استشهاده أثار العديد من القضايا فتلاحقت الأحداث وأخذ بعضها برقاب بعض فبينما بايع الصحابة عليًا ﷺ، رأى معاوية الاقتصاص أولاً من قتلة عثمان، ثم اقتتل الفريقان، وظهر التحكيم كوسيلة لرأب الصدع وألح أصحاب علي على التحكيم، بالرغم من معارضته، لأنه كان قاب قوسين أو أدنى من الظهور على الفريق الآخر.

ولما أطاعهم كارهًا، عاد أتباعه فأعلنوا أنه (لا حكم إلا لله) وخرجوا عليه وكفروه، واستتبع ذلك انقسام المسلمين إلى ثلاثة أقسام، فريق يؤيد عليًّا وفريق يؤيد معاوية، وفريق ثالث أبى الخوض في النـــزاع، ومن ثم ظهر التشيع في بدايته لتأييد علي، ثم تحول إلى عقائد كلامية عند مقتل الحسين بن علي في موقعة كربلاء.

ويلخص لنا ابن تيمية أهم معتقدات الفرق التي ظهرت على أثر استشهاد عثمان ﷺ، فيذهب إلى أن أصل مذهب الخوارج تعظيم القرآن وطلب أتباعه، ولكنهم خرجوا على السنة والجماعة- فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون مخالفتها للقرآن، كالرجم ونصاب السرقة، ويجوزون على الرسول ﷺ أن يكون ظالمًا ويكفرون عثمان وعليا ومن والاهما لحكمهما -في نظرهم -بغير ما أنـــزل الله، حيث خالفوا القرآن، وكل من خالف القرآن يكفر !!

وظهر بإزائهم الشيعة فقالوا بعصمة الأئمة وعلمهم بكل شيء، وأوحوا الرجوع إليهم في جميع ما جاء به الرسل فلا يأخذون إلا بقول من ظنوه معصومًا، ولا يرجعون إلى كتاب ولا سنة.

وأما القدرية فخاضوا في قدرة بالباطل وانقسموا فريقين:

فريق يغلب الشرع فيكذب القدر وينفيه أو ينفي بعضه، فينفي قدره ومشيئته.

وفريق يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول: لا فرق بين ما أمر الله وما نهى عنه أو بين الأولياء والأعداء.. فينفي حكمة الله سبحانه

وتعالى ومشيئته [(١)].

وهكذا يرى أن أكثر الفرق الكلامية يروون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة وسننظر في أهم آراء هذه الفرق، ثم نتبعها ببيان مدى انحرافها عن مسلك الجماعة الإسلامية كل على حدة ومن وجهة نظر شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) الخوارج:

تبين لنا أن بعض أهل الفتنة والظلم قتلوا عثمان بن عفان ﷺ. فتفرق المسلمون، إذ نشبت معركة صفين فكانت أشبه بانفجار ذي دوي شديد، ألقيت فيه قنبلة التحكيم ففجرت في الحال قيام الخوارج.

وكان معاوية بن أبي سفيان ممن رأى أن بيعة علي لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق. وأنه يجب المطالبة بدم عثمان أولا، ثم يجتمعون على إمام، بينما كانت حجة علي بن أبي طالب التي استند إليها أن البيعة التي تمت له قد عقدها نفس القوم المبايعين أبا بكر وعمر وعثمان قبله، وأنها تمت عن شورى المهاجرين والأنصار، فلا معنى لخروج أحد عن هذه البيعة التي أجمع عليها هؤلاء وأولئك، وإلا حق على الخارج عن الجماعة أن يقاتل.

أما معاوية فإنه يبرر موقفه بأنه مطالب بدم عثمان الذي قتل مظلومًا، ولأنه وليه ويؤيد مطالبته بقتل قاتليه، بقول الله تعالى: ﴿**ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا**﴾ [الإسراء: ٣٣] وقد أجابه أهل الشام إلى طلبه حيث بايعوه وأوثقوا له، على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم أو يدركه بثأره أو يفنى الله أرواحهم.

وتحفل المصادر المختلفة بالجدل والحجاج العقلي بين علي والخوارج مما يعطي في مضمونها صورة واضحة عن المعتقدات التي اعتنقها هؤلاء ويعوضنا بعض الشيء عن التماس آرائهم من كتبهم نفسها. لقد أعلنوا شعارهم (لا حكم إلا لله) ولكن عليًّا لم يرتج عليه لسماعه هذا الشعار فهو العالم بكتاب الله يعرف جيدًا أنه لم يحد عنه بقبوله التحكيم؛ فقال: (كلمة حق أريد بها باطل).

---

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٣ ص ٢٠٨ – ٢١٣.

والخوارج في جمعهم بين تكفير عثمان وعلي يستندون على حجة واحدة هي الحكم بغير ما حكم الله، فيقولون: (لأن عليًّا حكم الحكمين وخلع نفسه عن إمرة المؤمنين وحكم في دين الله فكفر، وعثمان ولى رقاب المؤمنين ولاة جور، فحكم بغير ما حكم الله فكفر).

وقد تولى الرد عليهم أهل السنة لبيان خطئهم فيما ذهبوا إليه، فقد حكم الله الناس في كتابه في غير موضع إذ قال -عز وجل- في جزاء الصيد: ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ [المائدة: ٩٥] وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠] وأيضًا: ﴿**فردوه إلى الله والرسول**﴾ [النساء: ٩٥] وقال: ﴿**ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا**﴾ [النساء: ٨٣].

فهذا محكم القرآن فد جعل أحكامًا كثيرة إلى العلماء، وإلى الأمراء من الناس ينظرون فيه مما لم ينــزل بيانه من عند الله، فكيف يساغ لهم القول (لا حكم إلا لله)؟

ولا حجة لهم في تكفير عثمان وعلي -رضي الله عنهما- لأنهما كان وليين للمسلمين في الأصل بإجماع لا اختلاف فيه؛ فالإجماع على إيمانهما وولايتهما ثابت حتى يجيء مثله فيزيل ولايتهما وإيمانهما ويثبت كفرهما، فلا حجة لهم في تكفيرهم.

ثم حدث في آخر عهد الصحابة القدرية، فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي: أمره ونهيه،ووعده ووعيده، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه،ومن يكون مؤمنًا ومن يكون كافرًا، فخاضوا في حكم الله أي شرعه بالباطل.

أما عن تفسيرهم للآيات القرآنية التي يتسلحون بها في تكفير من يرتكب الكبائر فإنهم يقيسون على قوله تعالى: ﴿**ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾ [المائدة: ٥] وقوله عز وجل: ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورا**﴾ [الإنسان: ٣] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ [التغابن: ٢] فهم يرون أن الله لم يجعل منــزلة ثالثة تقع وسطا بين الكفر والإيمان فمن كفر وحبط عمله فهو مشرك والإيمان رأس الأعمال وأول الفرائض في العمل، ومن ترك ما أمره الله به فقد حبط عمله وإيمانه ومن حبط عمله فهو بلا إيمان، والذي لا إيمان

له فهو مشرك وكافر.

ويرجع تسويتهم بين الكبائر والصغائر إلى سوء فهمهم للقرآن فالله -عز وجل- قد فرق بينهما بقوله: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا**﴾ [النساء: ٣١] وكذلك ينص الحديث: ففي سنن أبي داود والنسائي وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»، وهناك من الأحاديث أيضًا ما وصف فيها الذنوب بالكبائر مما يزيد عن السبعين وربما كان تفسير ذلك أن النبي ﷺ علم أولاً بالسبع المذكورات ثم علم بما زاد، والأرجح أن النص على السبع في كل حديث لزيادة عظمها، وفي الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**». قلت ثم أي قال: «**أن تزني بحليلة جارك**».

فأنـــزل الله تصديق ذلك: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

ومن أقوال السلف في هذا الصدد إجابة ابن عباس -رضي الله عنهما- لرجل سأله عن عدد الكبائر فأجاب: (هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار) وعلق ابن مفلح على ذلك بقوله: (الفقيه كل الفقه الذي لا يوئس الناس من رحمة الله -عز وجل- ولا يجرئهم على معاصيه) [(١)].

ويعد ابن تيمية بدعة الخوارج أول بدعة ظهرت في الإسلام، إذ كفّروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وتميزوا بالإمام والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب. ومن ناحية أخرى يشيد بهم في

(١) شرح الإسفراييني ص ٢٥٥- ٢٦٢.

موضع المقارنة بينهم وبين الشيعة فإن الخوارج يرجعون إلى القرآن -وهو حق -وإن غلطوا فيه، وهم صادقون فحديثهم من أصح الحديث.

ولكن غلطوا في تكفير المسلمين بالذنوب حيث قسموا الناس إلى مؤمن لا ذنب له، وكافر لاحسنة له، بينما قسم الله تعالى الأمة التي أورثها الكتاب واصطفاها، "ثلاثة أصناف" ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.. قال تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب**﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥].

وتقسيم طبقات الأمة الواردة في الآية الكريمة ينطبق على الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل (الإسلام) و (الإيمان) و(الإحسان).

كذلك فقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب، نوجزها فيما يلي:

أحدها:

التوبة، قال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾[الزمر: ٥٣] وغيرها من الآيات.

الثاني:

الاستغفار، كما جاء في حديث: «**ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة**».

فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به، عام في كل تائب، وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب.

الثالث:

الحسنات الماحية كما قال تعالى: ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل**

إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [هود: ١١٤] وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**» وقال ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**».

السبب الرابع:

الدافع للعقاب: دعاء المؤمنين للمؤمن مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه**» وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه**» رواهما مسلم.

الخامس:

ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**».

السادس:

شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة، مثل قوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» وقوله ﷺ: «**خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكثر: أترونها للمتقين؟ لا. ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين**».

السابع:

المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه**».

الثامن:

ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، فإن هذا مما يكفر به الخطايا.

التاسع:

أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها.

العاشر:

رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد [١].

نعود للحديث عن الخوارج [٢] الذين تطرفوا في معتقداهم واتجاهاهم فظهر على آثارها -كرد فعل لها- النظريات الشيعية التي تعد بمثابة تطرف مضاد لجنوح الخوارج في تكفير معارضيهم- وعلى رأسهم علي- فكان لابد أن يظهر المدافع عنه وأن يسلك نفس الطريق المتطرف، فمقابل (تكفير) علي ظهرت فكرة (تأليه) علي كما سنرى عند إحدى فرق الشيعة.

وتكاد تجمع كتب الفرق على أهم المعنيين بالحديث الذي وصفهم بأهم يمرقون من دين الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ولهذا فإننا نعجب لموقف المستشرق فلهوزن لطعنه في الحديث ولنـــزعته التي لم يستطع إخفاءها -بما تحمله من دلالة لنظريات المستشرقين بوجه عام- هذه النـــزعة التي تمجد كل رأي يخالف جماعة المسلمين، وتبحث وتنقب دون يأس أو كلل عن المخالفين لأهل السنة لإبرازها وخدمتها وعرضها على أوسع نطاق !

(٢)الشيعة:

وسنقتصر على طائفتين فقط حيث انقسم الشيعة إلى فرق وطوائف كثيرة:

أ-الغلاة:

وكما ظهر الخوارج، أطلت الشيعة الغلاة برأسها لتعلن ألوهية علي بن أبي طالب فأمرهم بالرجوع وأمهلهم ثلاثاً، ولكنهم أصروا فأمر بإلقائهم في أخاديد من

---

(١) باختصار من كتاب (الإيمان الأوسط) لابن تيمية من ص ٢٩ إلى ص ٤٣ مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان والفتاوى ج ٧ ص ٤٨٧ إلى ص ٥٠١ ط الرياض.

(٢) ولكن الصحابة لم يكفروا الخوارج إذ كانوا يصلون خلفهم، وكان عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- وغيره من الصحابة، كانوا يصلون خلف نجده الحروري. وكانوا أيضًا يحدثونهم ويفتونهم ويخاطبونهم كما يخاطب المسلم المسلم (منهاج السنة ج ٣ ص ٦٢).

نار.

وكان على رأس هذه الفتنة عبد الله بن سبأ -أو ابن السوداء- الذي تجرأ على سب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- فطلبه علي لقتله فهرب منه. ويرى ابن تيمية أن قتله إما بسبب السب أو لأنه كان متهمًا بالزندقة واحتمال الزندقة هوالأقوى؛ لأنه كان يهوديًا وتظاهر بالإسلام لا سيما أنه كان يقصد إفساد دين الإسلام(١).

وقد ثبت أن هذا التيار السيىء هو المخطط السري الذي يجمع أعداء الإسلام منذ عبد الله بن سبأ الذي أفسد من أمور المسلمين كثيرًا، (وأنه رسم خطة محكمة ماكرة أدت إلى الفتنة السياسية والدينية التي ما زالت آثارها ماثلة في مذاهب بعض المتصوفين في الإسلام) (٢).

ويبدو أن اليهود وجدوا الفرصة سانحة لإشاعة الفرقة بين المسلمين فاختفوا وراء التشيع لآل البيت، وتظاهروا بأنهم من الشيعة مستغلين عواطف بعض المسلمين الذين كانوا يفضلون عليًا على عثمان -رضي الله عنهما- ذلك أن التشيع في بدايته كان في المفاضلة بينهما فحسب أي أنه اتجاه عاطفي إنساني لا دخل فيه لعناصر عقلية، و لم يكن الشيعة الأوائل ينالون من أبي بكر وعمر باعتراف شيوخهم الأوائل، فقد سئل شريك بن عبد الله القاضي: (أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر؟ فقال: كل شيعة على علي هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر، أفكنا نكذبه؟ والله ما كان كذابًا).

وظهر الغلو في الفرق الشيعية بعد ذلك، ومن أشدها غلوًا الإسماعيلية الذين كانوا يزعمون أنهم خلفاء علويون فاطميون -وحكموا بمصر بهذا الاسم- وهم في الحقيقة من ذرية عبيد الله القداح، وقد وصفهم الغزالي بأن (ظاهر مذهبهم الرفض

---

(١) ابن تيمية: النبوات ص ١٤٢.

(٢) د. محمود قاسم- دراسات في الفلسفة الإسلامية ص ٢٥٤- ٢٥٥ ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣م.

- أي التشيع- وباطنه الكفر المحض) [(١)].

وقد سمحت معرفة ابن تيمية بالتاريخ أن يعرف حقيقة الشيعة الباطنية الغلاة عندما سلسل نسبه عبيد الله بن ميمون القداح الذي ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل -فبرهن على كذبه بما اتفق عليه أهل المعرفة بالنسب، وغيرهم من علماء المسلمين أن أباه كان يهوديًا ربيب مجوس، فله نسبتان: نسبة إلى اليهود ونسبة إلى المجوس -وهو وأهل بيته من أئمة الإسماعيلية الملاحدة الذين وصفهم العلماء -ومنهم الغزالي- بأن (ظاهر مذهبهم الرفض- أي التشيع -وباطنه الكفر المحض).

وقد ظهر عبيد الله هذا -الذي سمى نفسه بالمهدي سنة ٢٩٩ هـ- وتوفي سنة ٣٢٤ هـ- وانتقل الأمر إلى ولده القائم- ثم ابنه المنصور، ثم ابنه المعز الذي بنى القاهرة.

وبعده العزيز ثم الحاكم ثم الظاهر ثم المستنصر، وانقرض ملكهم في الديار المصرية سنة ٥٦٨هـ- فملكوها أكثر من مائتي سنة.

وقد علق ابن تيمية على أخبارهم بقوله: إن أخبارهم عند العلماء مشهورة بالإلحاد والمحادة لله ورسوله والردة والنفاق، ويرى أن الحديث الذي رواه ابن ماجه ((**لا مهدي إلا عيسى ابن مريم**)) حديث ضعيف [(٢)].

ومن المناسب أن نورد أيضًا النص الذي وصف السيوطي به نفس الأحداث المتعلقة بالمهدي صاحب المغرب فقال: (وهو جد خلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهلة الفاطميين، فإن المهدي هذا ادعى أنه علوي وإنما جده مجوسي) كما استند إلى رأي القاضي أبو بكر الباقلاني الذي وصفه بأنه مجوسي ولم يعرفه أحد من علماء النسب؛ وكان باطنيًا خبيثًا، حريصًا على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه، أباحوا الخمور والفروج وأشاعوا الرفض [(٣)].

---

(١) شرح عقيدة السفاريني ج ١ ص ٣٣٤.

(٢) منهاج السنة ج ٢ ص ١٣٣- ١٣٤.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٩١ تحقيق الشيخ محمد محيي عبد الحميد ط. التجارية =

ويقول في موضع آخر: (وإنما كان المعروفون بالزندقة والنفاق بني عبيد القداح الذين كانوا بمصر والمغرب، وكانوا يدعون أنهم علويون،وإنما كانوا من ذرية الكفار فهؤلاء قد اتفق أهل العلم على رميهم بالزندقة والنفاق، وكذلك رمي بالزندقة والنفاق قوم من ملوك النواصي الخلفاء من بني بويه وغير بني بويه) ونفهم من هذا أن ابن تيمية على دراية بأخبارهم وأسرارهم، ويبدو أنه اطلع على المصادر المتعددة التي تكشف حقيقتهم وتؤصل نسبتهم، ومما يعضد ذلك ما نقرأه لعبد القاهر البغدادي - وكان معاصرا لهم (توفي سنة ٤٢٩هـ -١٠٣٧م) الذي اختتم كلامه عن القداح بقوله: (ثم ظهرت فتنته في المغرب وأولاده اليوم مسئولون على أعمال مصر) [١].

وتميل بعض الدراسات الحديثة حول القرامطة إثبات في انتساب المعز لدين الله إليهم، فقد جاء بالوثيقة التاريخية التي نشرها الدكتور سهيل زكار نص الرسالة التي بعث بها القرامطة عندما علم باتجاههم إلى غزو مصر فكتب إليهم كتابًا، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته، وأن دعوة القرامطة كانت له وإلى آبائه من قبله [٢].

ويميز ابن تيمية بين فرق الشيعة ويضع حدودًا بين المعتدلين والغلاة منهم، فالباطنية من بني عبيد بن ميمون القداح الذين ادعوا أنهم من ولد محمد بن إسماعيل ابن جعفر، لم يكونوا من أولاده -بل كان جدهم يهوديًا ربيبا لمجوسي وأظهروا التشيع.ولم يكونوا في الحقيقة على دين واحد من الشيعة لا الإمامية ولا الزيدية بل ولا الغالية الذين يعتقدون إلهية علي أو نبوته، بل كانوا شرًا من هؤلاء كلهم. ولهذا أكثر تصانيف علماء المسلمين في كشف أسرارهم وهتك أستارهم وكثر غزو المسلمين لهم.

وهؤلاء يدعون المستجيب لهم أولاً إلى التشيع، والتزام ما توجبه الشيعة وتحريم مايحرمونه، ثم بعد هذا ينقلونه درجة بعد درجة حتى ينقلونه في الآخر إلى الانسلاخ

=

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م.

(١) البغدادي: الفَرق بين الفرق ص ٢٨٣ ط. صبيح.

(٢) ثابت بن سنان وابن النَديم: تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٩- ٦٠ ترجمة الحسن الأعصم القرمطي- تحقيق د. سهل زكار - دار الأمان- لبنان ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.

من الإسلام [١].

ونتوقف عند الفقرة الأخيرة لتطابقها بما عرفنا عنهم ونقلته المصادر التاريخية وكتب الفرق - فنقرأ مثلا عبارة لأبي قاهر البغدادي يوضح لنا فيها خطتهم في الدعوة بقوله: (والدليل على أنهم كما ذكرناه، قرأته في كتابهم المترجم ((السياسة والبلاغ الأكيد، والناموس الأعظم))، وهي رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني - أي المهدي- إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي أوصاه فيها بأن قال له: ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فمن أنست منه رشدًا فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا، وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم..) [٢].

ومن النصوص التي ينقلها لنا البغدادي أيضًا عن الكتاب الآنف الذكر الوصية التالية: - إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان بعد آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم [٣].

من هذا يتبن لنا أن شيخ الإسلام لم يتجن عليهم عندما نقل لنا أخبارهم وحكم على مخططاتهم وأهدافهم بأنها متصلة بالمخطط اليهودي السيء الذي أراد الكيد للإسلام وأهله، فقد أجمع المحققون من أهل السنة -كما يذكر البغدادي أن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده[٤] وتتحد كتب التاريخ والفرق المجمعة على ذكر أهداف الباطنية، كما تكاد تتفق في شرح خططهم وتعاليمهم [٥].

---

(١) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ج ٤ ص ١٦٢ ط الرياض.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣) نفسه ص ٢٩٦.

(٤) نفسه ص ٢٢٥.

(٥) ويمكن الرجوع لمن يريد الاستزادة إلى المصادر الآتية:

- فضائح الباطنية (الغزالي).

=

(ب) المعتدلة:

أما الشيعة المعتدلة، فهي الاثنى عشرية التي تنتسب إلى جعفر الصادق، وهي تقول بإمامة علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين (زين العابدين)، ثم محمد بن علي بن الحسين (محمد الباقر)، ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر، ثم الرضا، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري، ثم الإمام محمد المنتظر (وترتيبه الثاني عشر في سلسلة الأئمة).

وقد استقلوا بمصادر الحديث والفقه عن أهل السنة والجماعة -ويرون الإمامة بالنص وليست بالبيعة. ولكن ظهرت في العصر الحديث روح التقريب بينهما لمواجهة خصوم الإسلام، وإننا لنجد خير من يعبر عن هذه الرواية قول أحد علماء الشيعة الاثنى عشرية (ما زلنا نتشاجر حول الخلافة حتى أصبح خليفتنا المفوض السامي الفرنسي) وقول الشيخ عبد العزيز البشري (ما زلنا نختلف حول غسل أو مسح قدم، حتى أصبحنا لا نملك من وجه الأرض موضع قدم).

فهل حققت نداءات التقريب، النتائج المرجوة؟

إننا مع الأسف الشديد لم نعثر فيما اطلعنا عليه من مصادر على مظاهر تغيير، بل وجدنا الإصرار على عقائد الإمامية المتوارثة [(١)].

وربما ظهر من بينهم من يعارض الغلو، ويدعو إلى تصحيح العقائد وفق أهل السنة -كالدكتور موسى الموسوي[(٢)] - ولكن هل سيجد عندهم آذانًا صاغية؟

نسأل الله تعالى أن يوفق مساعيه.

=

- الفرق بين الفرق (البغدادي).
- التبصير في الدين (للإسفراييني).
- كشف أسرار الباطنية (الباقلاني).
- فرق المسلمين والمشركين (للرازي).

(١) ينظر مقدمة كتابنا (نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة) دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) ينظر كتابه (الشيعة والتصحيح -الصراع بين الشيعة والتشيع) ط الزهراء للإعلام العربي بمصر ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

موقـــف ابن تيمية -معبرًا عن أهل السنة- من مسألة الإمامة أو الخلافة عند الشيعة:

سنعرض هاهنا مناقشة للمسألة في إطارها التاريخي كقضية عقدية، أما الخلافة كجوهر النظام السياسي الإسلامي فهو موضوع آخر له أهميته لا سيما بعد إلغائها بواسطة أتاتورك اليهودي الدونمي.

لقد وضع الشيعة مسألة الإمامة في المكان الأول من الأهمية، وعدوها من أهم المطالب في أحكام الدين، وتدخل ضمن العقائد الإيمانية، وقد تعرضت هذه الفكرة لأعنف مهاجمة قام بها ابن تيمية لأنه يرى أن إحلال مسألة الإمامة هذا الموضع لا يتفق مع الأصول الإسلامية، فالعقائد الشيعية في رأيه ترتبط بعقائد غير إسلامية أو على الأقل تتشابه معها في خطوطها وملامحها، فقد قالت الشيعة: لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي، وقالت النصارى: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينـــزل سيد من السماء، وقالت الرافضة لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الإمام المهدي وينادي مناد من السماء [(١)] هذا هو الدليل الأول، أما الدليل الثاني فهو أن المصنفين في أصول الدين يذكرون مسائل أكثر أهمية منها، وهي التوحيد، والعدل، والنبوة، ثم يأتون بالإمامة في نهاية المطاف.

كذلك ترتيب المعتزلة أصولهم لخمس حسب درجاتها من الأهمية، فوضعوا الأصل الخامس -وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الذي تتعلق به مسائل الإمامة في آخر هذه الأصول من حيث الترتيب.

ويذكر ابن تيمية ما دار بينه وبين بعض شيوخ الشيعة الذين حاولوا إقناعه بصحة عقيدتهم في مسألة الإمامة، فهي عندهم لطف لأن الإمام يأمر الناس بالواجب وينهاهم عن القبح، ولابد أن يكون معصومًا لكي يتم المقصود من نصبه فيصبحون أقرب إلى أفعال الأوامر الدينية واجتناب النواهي، وقد بدأت سلسلة الأئمة منذ علي ابن أبي طالب إلى أن انتهت إلى المنتظر صاحب السرداب. وقد بسط شيخنا رده

---

(١) ويجعلون للمنتظر هذا عدة مشاهد ينتظرونه فيها كالسرداب بسامرا الذي يزعمون أنه غائب فيه ومشاهد أخرى ج١ ص١٠.

على هذه العقيدة بنواحيها المختلفة.وهو يرى أنه لا مجال للطف بينما الإمام مختلف لا ندري من أمره شيئًا، ولا نعلم أوامره ونواهيه، ولا نجد طريقة نستطيع بها أن نعرفه لأنه مختف غائب. وإن فرض طاعته يتنافى مع المقدور والمستطاع، والله تعالى لا يكلف العباد إلا بما يطيقونه، أما فرض طاعة هذا الإمام فهو يتدرج تحت تكليف ما لا يطاق. ثم يطلب ابن تيمية إسنادًا للحديث الذي استشهد به الحلي (أحد علماء الشيعة المعاصرين له) على وجوب معرفة الإمام، ويطعن في صحة نقله لأنه لم يتم عن طريق الثقات ويقول: (ونحن نطالبهم أولاً بصحة النقل ثم بتقدير أن يكون ناقله واحد فكيف يجوز أن يثبت أصل الإيمان بخبر مثل هذا الذي لا يعرف له ناقل وإن عرف له ناقل أمكن خطؤه وكذبه، وهل يثبت أصل الإيمان إلا بطريق علمي [(١)]؟ فالحديث الصحيح يختلف عما ذكره الحلي يخرج المهدي وينادي مناد من السماء.

وكان الحلي قد عبر عن موضوع الإمامة في كلام طويل، نقتبس منه أحد الأحاديث التي استشهد بها ونصه: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) [(٢)] أما وجهة نظر ابن تيمية في هذه المسألة، فإنه يستند على القواعد التي بني عليها الإسلام وأولها الشهادة، فهي التي تنقل غير المسلمين إلى الإسلام، وبواسطتها مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وباقي الأركان يصبحون مسلمين وإخوانًا في الدين، ولم يحدث أن ذكر الرسول -صلوات الله عليه وسلامه- مسألة الإمامة حين كان يدعو الناس للإسلام.وإنما دعي إلى الشهادة فحسب كما لم تظهر حاجة المسلمين حال حياته لأنه -صلوات الله عليه- كان إمام المسلمين وقد اتفق الشيعة وأهل السنة على أن المؤمنين الذين عاصروه وصاحبوه هم أفضل الخلق دون اعتناقهم لعقيدة الإمامة التي يرى الحلي أنها أهم مسائل الدين وهي عقيدة فاسدة؛ لأن الإيمان الصحيح الذي بيَّنه الرسول ﷺ قائم على عقيدة التوحيد، ونبوة محمد والإيمان بالملائكة والكتب والرسل والبعث بعد الموت، ويستتبعه إقامة الصلاة وسائر العبادات والتكاليف [(٣)].

---

(١) منهاج السنة ج١ ص٢٧.
(٢) منهاج السنة ج١ ص٢.
(٣) منهاج السنة ج١ ص١٦.

وإذا افترضنا أن الإمامة هي أهم مسائل الدين، لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب ولأظهرها النبي ﷺ فإن القرآن يتضمن مواضيع عدة تتناول ذكر الخالق تعالى وصفاته وآياته وملائكته، كما يحتوي على قصص الأنبياء والرسل، وينص فيه على الفرائض التي كلف المسلمين بأدائها فلو كانت أهم مسائل الدين لنص عليها الكتاب، كما فعل بالنسبة لغيرها من الموضوعات، ولكنها لأن نصه «**من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**» كما يتفق مع حديث آخر ينهى الرسول -صلوات الله عليه- فيه عن الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة وهو ينطبق على الشيعة الذي يخرجون عن الطاعة، ويفارقون جماعة المسلمين ويستشهد بحديث لا يسلم من النقد دراية أو رواية، مع أنه حجة عليهم لأنهم لا يعرفون إمام زمنهم، ويدعون أنه الغائب المنتظر (الذي لم يره أحد ولم يسمع له خبر.. ومعلوم أن هذا ليس معرفة بالإمام).

وقد أثار الحلي الاعتراضات التي يواجهها الشيعة لنظرية الإمامة عند أهل السنة والجماعة، وهي تتلخص بصورة عامة فيما يلي:

أولاً:

لم يجعلوا الأئمة محصورين في عدد معين.

ثانيًا:

يعتقدون أن الإمامة تنعقد للقرشي وتجب طاعته على جميع المسلمين بمجرد مبايعته.

ويسهب ابن تيمية على طريقته في التحليل والنقد في الرد، فيتناول النقاط التي أثارها الحلي بالتفصيل الآتي [١]:

أولا:

أن أهل السنة متفقون على عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالات، وكل ما يبلغونه عن الله تعالى من أمر ونهي فهم مصدقون، واتفق أهل السنة والجماعة على هذه العقيدة ما عدا طائفة الخوارج التي اعتبرت العصمة للنبي ﷺ قاصرة على ما يبلغه عن

---

(١) نفس المصدر ص ٢٧.

الله، لا فيما يأمر أو ينهي به، وهذا خطأ عند ابن تيمية ولا يجوز تحميل المسلمين جميعًا بذنب قلة أخطأت، ومع هذا فإن (الجمهور الذي يجوز الصغائر ومن يجوز الكبائر، ويقولون أهم لا يقرون عليها، بل يحصل لهم بالتوبة منها من المنــزلة أعظم مما كان من قبل ذلك [١]).

أما دعوى عصمة الأئمة، فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضرورة عدم خلو العالم من أئمة معصومين، وهو علة اللطف والمصلحة ويعود ابن تيمية - كدأبه دائمًا_ ليستقرئ الأحداث التاريخية في هذه النقطة ليدلل بها على أن اللطف لم يتحقق طوال عصور الأئمة الشيعة الاثنى عشر.

ويذهب إلى أبعد من هذا، فيعقد مقارنة بين علي بن أبي طالب والخلفاء حيث تمتع المؤمنون في ظل حكم الأوائل بالاستقرار والأمن، وكانت المصلحة واللطف متحققين في نطاق أوسع مما كان خلال حكم الإمام علي لحدوث القتال والفتنة. فمن خطأ العقيدة وضع الإمام المنتظر الغائب وأجداده المتقدمين في نفس مرتبة الرسول ﷺ وهو وحده الذي انفرد بالعصمة والسلطان، و لم يثبت أن تلاه أحد من الأئمة المعتقد في عصمتهم الذين تولوا الحكم بمبايعة ذي الشوكة إلا عليًّا وحده. ثم يصرح بهذه العبارة التي لا يمل من ترديد معناها في جنبات كتابه "منهاج السنة" (وكانت مصلحة المكلفين واللطف الذي حصل لهم في دينهم ودنياهم في ذلك الزمان أقل منه في زمن الخلفاء الثلاثة، فعلم بالضرورة أن ما يدعونه من اللطف والمصلحة الحاصلة بالأئمة المعصومين باطلــة قطعًــــا [٢]).

أما حصر الأئمة في عدد معين ثابت، فإنه يسهل الاستدلال على عدم صحته بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩] وكذلك الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ لم يوقتهم فيها بعدد معين.

وقول الحلي بأنه بمجرد بيعة القرشي يصير إمامًا غير صحيح من عدة وجوه هي:

---

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٨٢.

(٢) منهاج السنة ج ٢ ص ٨٤.

الأول:

ليس من مذهب أهل السنة أنه بمجرد المبايعة للقرشي يصبح إمامًا منعقد واجب الطاعة، إنه لا بد من توافر شروط أخرى، منها الشورى، فقد قال عمر ابن الخطاب: (من بايع رجلاً بغير مشورة من المسلمين، فلا يبايع هو ولا الذي بايعه) [١].

الثاني:

لا يجيز أهل السنة طاعته- حتى ولو كان إماما عادلاً- إلا فيما لا يعد معصية، فالطاعة مشروطة بتوافق أوامره ونواهيه مع الأوامر والنواهي التي رسمها الشرع، كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدق والعدل والحج والجهاد في سبيل الله مصداقًا للآية: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩] فالطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ واجبة؛ لأنه لا يأمر إلا بطاعة الله وجعل طاعة أولي الأمر داخلة في ذلك ولم يذكر لهم طاعة ثالثة لأن ولي الأمر لا يطاع طاعة مطلقة وإنما يطـاع في المعـروف[٢]، والأحاديث في معنى الطاعة متوافرة ومتحدة القصد، منها: إنما الطاعة في المعروف ولا طاعة في المعصية، ولاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.. إلخ.

أما شرط القرشية فإن ابن تيمية ينـزع إلى الغض منه عند عدم توافره، فهو لا يحبذ التفاخر بالأنساب، ويرى أن من الفضائل التي يحث عليها الإسلام التباعد عن الفخر كما يقول صلوات الله عليه: «**إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**» فنهى بهذا عن الاستطالة على الناس والتفاخر، فإن كان الرجل ينتمي حقيقة إلى الطائفة الفاضلة كبني هاشم أو قريش، فإنه يخطئ إذا تطاول على غيره بهذا الانتماء لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص... فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش [٣].

---

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ٨٥.

(٢) نفس المصدر: ص ٨٥.

(٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ١٦٤- ١٦٥.

والإمامة عند ابن تيمية عبارة عن عقد، وهو بهذا الاعتبار لا يأت بجديد عن هذه النظرية التي طرقها علماء أهل السنة قبله. فإن علماء الفقه يجمعون على هذا الرأي لأن الإمامة عندهم هي عقد مبايعة بين الإمام وبين أهل الحل والعقد (١)، ومن التعاريف التي وضعها الماوردي لهذا العقد مثلا أنه (عقد مرضاة واختيار لا يدخله إكراه أو إجبار) (٢).

ولكن ابن تيمية أوضح بصفة خاصة حظر الاتفاق في أي عقد على ما يخالف كتاب الله، وعرض لما اتفق عليه العلماء من بطلان الشروط المناقضة لحكم الله، فيقول: «فهذه الشروط مخالفة لحكم الله ورسوله. فهي باطلة باتفاق المسلمين، وهذا في جميع العقود» (٣)، ويستدل أيضًا بنصوص كثيرة تؤيده فيما ذهب إليه، ومنها الحديث الذي ورد في الصحيحين ونصه: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىالله، ومن أطاع أميري فقد أطاعنى، ومن عصا أميري فقد عصانى**» ولهذا فلو ولي شخص، وكان شرط توليته أن يحكم بغير حكم الله، فإن هذا الشرط يقع باطلاً ولا يعتد به.

وكان لزامًا على ابن تيمية، أن يوضح معالم النظرية السياسية الإسلامية للرد على الإمامية، فعالجها من زاوية ما أسماه بالسياسة الشرعية.

السياسة الشرعية:

قدم ابن تيمية لكتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية بكلمة يقول فيها: «أما بعد، فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الإلهية (٤) وسيتضح لنا حالاً السبب في ربطه بين السياسة والخالق جل شأنه، فالكتاب الكريم حافل بالآيات التي تأمر بالعدل، وتحض على اتباعه، وتنهي عن الظلم وتأمر باجتنابه في مثل قوله

(١) محمد نجيب المطيعي: حقيقة الإسلام وأصول الحكم.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٥.

(٣) ابن تيمية: نظرية العقد ص ١٥.

(٤) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص١. ويقول لاووست" "إن ابن تيمية في هذا الكتاب قد تميز بعرض ينفرد به كلية حيث حدد مسألة طبيعية وأشكال وصفات الدولة، فأصبح بعرضه هذا ينفرد عما هو معروض بالطرق التقليدية للمدرسة السنية".

تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكمـــوا بالعـــدل**﴾ [النساء: ٥٨].

وهذه الآية -مع غيرها من الآيات القرآنية التي تنص على العدل والقسط تعني أنه ليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا. لأن الله تعالى رسم الطريق القويم العادل فإن حكم الله هو (أحسن الأحكام والشرع وهو ما أنـــزل الله، فكل من حكم بما أنـــزل الله فقد حكم بالعدل) [١].

أما الآية الثانية التي يخاطب فيها الله -عز وجل- الرعية بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ [النساء: ٥٩] فإن هذه الآية تكمل الهدف الذي تعنيه الآية الأولى. فأولهما موجهة لأولي الأمر حيث أوجبت عليهم الحكم بالعدل، والثانية خاصة بالرعية ليطيعوا ولاة أمورهم فيما أمر به الله، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لهم كما ينبغي في حالة الاختلاف الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله -صلوت الله عليه- فإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة [٢].

وقد أكد الرسول ﷺ شريعة العدل، وحرم ظلم المسلمين أحياء وأمواتًا كما حرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، لهذا كانت خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع متضمنة لهذه الأحكام بقوله: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**» [٣] هذه هي الاجتهادات المنقولة عن شيخ الإسلام.

وقد بايعه تلميذه ابن القيم، وصاغ فكرة العدالة في إطار الشريعة فأصبحت العدالة عنده هي المتفقة مع أحكام الشريعة، وبالعكس فما لا ينطبق على الشريعة يعد غير عادل، فإن غاية الشريعة صلاح العباد في المعاش والمعاد فأتت بأحكام بلغت

---

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٣١.

(٢) ابن تيمية: السياسة الشرعية ص ٣.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة ج ٣ ص ٣٣.

الدرجة القصوى من حيث العدالة، ولا تعدو السياسة العادلة كونها جزءًا من أجزاء الشريعة وفرعًا من فروعها والنتيجة المترتبة على هذا التصور لفكرة العدالة وعلاقتها بالشريعة أن أصبحت السياسة عند ابن القيم نوعين (سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر بعين الشريعة [(١)] ولا يوافق تلميذ ابن تيمية على فصل السياسة عن الشريعة، ويذكر أن السياسة العادلة هي الموافقة لما جاء به الشرع ولا فصل بينهما، ويبرر استعماله لمصطلح السياسة بقوله: ((نحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم [(٢)]، وإنما هي في الحقيقة (عدل الله ورسوله) فإن الله أرسل الرسل وأنـــزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط الذي قامت به السموات والأرض. فالسياسة العادلة إذًا هي جزء من أجزاء الشريعة التي اكتملت أركانها لمعالجة شئون العباد. أما تقسيم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة، أو تقسيم الدين إلى شريعة وحقيقة أو إلى عقل ونقل، فإن كل هذه التقسيمات باطلة فنقول (بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين، صحيح وفاسد فالصحيح قسم من أقسام الشريعة والباطل ضدها ومنافيها [(٣)] والشريعة كاملة الأحكام غنية بذاتها عما عداها فلم يأت تصور قصورها عن تحقيق صالح المسلمين إلا لسببين:

أولهما:

تقصير البعض في معرفة الشريعة، وعدم القدرة على مطابقتها مع الواقع، مما أدى إلى تعطيل الحدود وضياع الحقوق، فتجرأ البعض على انتهاك حرمات الشريعة والضرب بها عرض الحائط.

وثانيهما:

قابل الاتجاه الأول اتجاه غالى في التعسف وطبق الشريعة بطريقة خاطئة لا توافق حكم الله ورسوله ﷺ (وكلا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث

---

(١) ابن القيم: الطرق الحكمية ص ٤.

(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية ص ١٤.

(٣) ابن القيم: إعلام الموقعين ج ٤ ص ٣١١.

الله به رسوله وأنـــزل به كتبه) [١] أي لم تستهدف العدل الذي أقام الله تعالى به السموات والأرض.

ويبدو أن استعمال مصطلح (السياسة الشرعية) والتقسيم الذي وضعه ابن القيم كان له تأثيره فيما بعد، إذ نلاحظ أن المقريزي (٨٤٥ هـــ-١٤٤١م) يستعمل هذا الاصطلاح عندما يطرق نفس الموضوع. ويتناوله بالتحديد، فيذكر أن المسلمين في عصره بل منذ عهد الدولة التركية يقسمون الأحكام إلى شرعية وسياسية، والسياسة بدورها نوعان: العدالة وهي تتبع الأحكام الشرعية والظالمة التي تحرمها الشريعة، والسياسة هي كلمة مغولية أصلها (ياسة) ثم أدخلت عليها حرف السين (فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية).

وينسب المقريزي إلى جنكز خان كتاب (الياسا) [٢] الذي فيه القواعد والعقوبات واتخذ منها شريعة لقومه، وظل متداولاً بين أيدي أولاده واحدًا بعد واحد، يلتزمون به كالتزام أوائل المسلمين بالقرآن. ولما كثرت طوائف المغول وانتشرت في البلاد الإسلامية واعتنقوا الإسلام ديناً، ولقنوا تعاليم الكتاب الكريم، وعرفوا أحكام الشريعة فجمعوا بين ما جاء بها من الحق، وبين ما تضمنه كتاب (الياسا) من الباطل، وقاموا بتفويض قاضي القضاة أحكام العبادات والأقضية الشرعية ومع تأثرهم بالقواعد التي رسمها لهم زعيمهم جنكز خان في (الياسا) نصبوا ما يسمونه (الحاجب) ليقضي بينهم بقواعده في الأموال عند اختلافهم [٣].

(٣) المرجئة:

رأينا كيف بدأ الاختلاف بين المسلمين وما نجم عنه من ظهور آراء ونظريات الفرق مثل الخوارج والشيعة، وقد دخل هذا المعترك أيضًا فريق ثالث هم المرجئة.

وكلمة (مرجئة) مشتقة من (أرجأ) بمعنى آخر أمهل، فهم يرجئون أمر هؤلاء

---

(١) ابن القيم: الطرق الحكمية ص ١٤.

(٢) المقريزي: الخطط ج ٣ ص ٣٥٧.

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٥٩ وينظر كتاب نظام (الخلافة في الفكر الإسلامي) د. مصطفى حلمي – دار الدعوة- الإسكندرية.

المختلفين إلى يوم القيامة، وبعضهم يشتق اسمهم من (أرجأ) بمعنى بعث الرجاء في نفوس العصاة، فهم يؤملون كل مسلم عاص بأن يتوب ويرجع إلى الله [١].

ثم بدأت هذه الفرقة تتناول المسائل الثلاث التي بحثها قبلهم الخوارج والشيعة. وقد تبين لنا أن الخوارج تعد كل كبيرة كفرًا، كما ذهب الشيعة إلى اعتبار الإمامة ركنًا أساسيًا في الإسلام، وجاء المرجئة فأعلنوا أن الإيمان هو المعرفة بالله سبحانه وتعالى ورسله عليهم السلام، فمن عرف أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن، أي أنهم لم يشترطوا العمل مع الإيمان، فكان ذلك ردًا على الخوارج - الذين اشترطوا الإتيان بالفرائض والكف عن الكبائر، وكان هذا الرأي أيضًا بمثابة الرد على الشيعة الذين يعتقدون أن الإيمان بالإمام والطاعة له جزء من الإيمان.

وقد عرض ابن تيمية لمذهب المرجئة وأرجع أصول الخطأ عندهم إلى عاملين.

الأول:

ظنهم أن الإيمان في مرتبة واحدة، فقالوا: إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء.. بينما الإيمان الذي أوجبه الله يتباين تباينًا عظيمًا، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر، أو يجب على الأنبياء ما لا يجب على غيرهم، وليس المراد هنا أنه يجب عليهم من العمل فحسب، بل ومن التصديق والإقرار أيضًا.

الثاني:

لم يفطن المرجئة إلى تفاضل الناس في الإتيان بالأعمال، فليس إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها وليس إيمان السارق والزاني والشارب للخمر كإيمان غيرهم [٢].

(٤) القدرية (نفاة القدر):

يقول ابن تيمية (ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية وتكلم فيهم من بقي من الصحابة كابن عمر وابن عباس ووائلة بن الأسقع وغيرهم [٣].

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٧٩.

(٢) ابن تيمية: الفرقان بين الحق والباطل ص ٢٩.

(٣) ابن تيمية: النبوات ص ١٤٢.

وهم يقولون: الأمر مستقبل وأن الله لم يقدر الكتاب والأعمال. ويقال أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة من أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد [(١)].

وسيأتي الشرح والتحليل لعقيدة الإيمان بالقدر، وتمهيدًا لذلك فإننا نضع هنا أمام القارئ نبذة مختصرة عنها.

فإن مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان بالقدر يقتضي -كما ينص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه، كما قال تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾ [الشورى: ٣٠] وقال تعالى: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ [النساء: ٧٩] أي ما أصابك من خصب ونصر فالله أنعم به عليك، وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك. وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه، فلابد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأن يوقن العبد بشرع الله وأمره.

والقدر السابق لا يحول بين العبد وبين العمل وفقًا لشرع الله تعالى وأوامره الدينية، فقد ورد في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «**كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد في جنازة فقال: ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة** فقالوا: يا رسول الله: فلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: **اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

ويتضح من ذلك أن ارتباط الأفعال بالنتائج في السلوك الإنساني كارتباط

---

(١) شرح عقيدة الاسفراييني ج١ ص٢٥١.

الأسباب بالمسببات في العالم الطبيعي بحكم العقل والتجربة، فإن الزرع ينبت ببذر البذور والسقاية بالماء، والشبع يتحقق بالأكل، والري بالشرب والموت يكون بالقتل ..الخ.

لذلك حث الرسول ﷺ على العمل وحض عليه وكان الأسوة الحسنة في عمل كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه وأمرنا بذلك، ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

فأمرنا النبي ﷺ بشيئين: أن نحرص على ما ينفعنا وهو امتثال الأمر وهو العبادة وهو طاعة الله ورسوله وأن نستعين بالله وهو يتضمن الإيمان بالقدر فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

أما من ظن أنه يطيع الله بلا معونته -كما يزعم القدرية- قد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة، وخلقه لكل شيء. ومن ظن في الطرف الآخر المقابل أنه إذا أعين على ما يريد كان محمودًا سواء وافق الأمر الشرعي الديني أو خالفه فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده واستحق من غضبه وعقابه أعظم ما يستحق الأول.

إذن لا بد من الإيمان بالقدر مع الإذعان للأمر والنهي الشرعيين وإذا أحسن العبد حمد الله تعالى وإذا أساء استغفر الله تعالى، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين، فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه فمن تاب كان آدميًا ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً فالسعداء يتبعون أباءهم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس [١].

هذه هي الفرق الأربعة التي ظهرت في عصر الصحابة، فقد حدثت الخوارج والشيعة في فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وظهرت المرجئة والقدرية في أواخر العصر، يقول عبد الله بن المبارك (أصول البدع أربعة الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة) [٢].

---

(١) ابن تيمية: النبوات ص ١٤٢- ١٤٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ٦٣- ٧٣ باختصار.

٥- (الجهمية): أتباع جهم بن صفوان:

أي بدعة الجبر ونفي الصفات الإلهية:

نشأ الجهم بن صفوان بسمرقند بخراسان وكان تلميذ الجعد بن درهم وتلقى عنه منهجه في التأويل.

ويروى أن خالد بن عبد القسري خطب الناس بواسط فقال: (يا أيها الناس، ضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد علوًا كبيرًا، ثم نـــزل فذبحه).

قال الذهبي: (والجهمية والمعتزلة تقول هذا، وتحرف نص التنـــزيل في ذلك وزعموا أن الرب منـــزه عن ذلك [١].

وإلى جهم ينسب الجبر ونفي الصفات الإلهية، فبدعه العلماء وفسّقوه لأن تأويلاته المنحرفة خالفت النصوص الشرعية الدالة على إثبات الصفات والأسماء الحسنى لله تعالى، والمثبتة لحرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله ونفي الجبر عنه، وقد تصدى للرد عليه أئمة أهل السنة أمثال ابن حنبل وابن قتيبة وابن المبارك وغيرهم.

ومن العجب أنه بالرغم من اعتقاد جهم بن صفوان بالجبر إلا أنه خرج مع الحارث بن سريح على بني أمية وقتل مما ينبئ على فعله ما لا يعتقد إذ لو اعتقد الجبر حقيقة لانعكس أثره على فعله ومنعه من الخروج على بني أمية.

ومع أنه يعد جبريًا كما وصفه الشهرستاني، إلا أنه في الوقت نفسه يعد من شيوخ المعتزلة لقوله بنفي الصفات وخلق القرآن [٢].

ويعطينا الأشعري صورة أدق وأشمل لمعتقداته حيث يذهب إلى أنه (لا فعل أحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس، إنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه، إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل واختيارًا له منفردًا

---

(١) الذهبي: العلو للعلي الغفار- ط. المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨١.

بذلك كما خلق له طولا وكان به طويلا ولونًا وكان به متلونًا) [١].

والمغالطة في قوله واضحة في التسوية بين أفعال العبد والصفات التي خلقوا بها كما يتبين من معالجتنا لمسألة القضاء والقدر، فإن خلقه الإنسان: طوله وعرضه وباقي صفاته ليست مرادًا له ولا مقدورًا له، وأما أفعاله الداخلة تحت مشيئته وقدرته فهي أفعال له ومقدوره ومراده [٢].

وقد بدأ الصحابة في استخدام اصطلاح البدعة مقابل (السنة) إذ عدوا كل من خرج على السنة فهو من قبيل البدع (فإن السنة التي يجب إتباعها هي سنة رسول الله ﷺ، والسنة تذكر في الأصول والاعتقادات، وتذكر في الأعمال والعبادات وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به[٣].

ويقسم ابن تيمية البدع إلى نوعين: نوع كان يقصد أهلها متابعة النص فأخطأ في فهم الآيات القرآنية والأحاديث، كالخوارج والشيعة المعتدلين والمرجئة. أما النوع الثاني -وهو الجهمية- فلم يكن أصل دينهم إتباع الكتاب والرسول ﷺ إذ أنهم نفوا الصفات التي أثبتتها النصوص.

ويقول في عبارة جامعة [٤]: (ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن الله جعله شفاء لما في الصدور وبيانًا للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ إما أن لا يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يكونون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ومن هنا يقع الشر وتفرق الدين التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم فإذا انقطع نور النبوة عنهم وقعوا في البدع وحدثت البدع والفجور، ووقع الشر بينهم؛ فمسائل النــزاع في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله ورسوله

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣١٢ تحقيق محيي الدين عبد الحميد- ط. النهضة ١٩٥٠م.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة ج ١ ص ٥٨.

(٣) ابن تيمية: النبوات ص٦٧ (السنة والبدعة بالتفصيل).

(٤) ابن تيمية: النبوات ص ٩٥.

لم يتبين فيها الحق بل يصير المتنازعون فيها على غير بينة من أمرهم.

وقبل الانتقال إلى بحث ما آلت إليه هذه الانشقاقات في دوائر المتكلمين وأكبرهم المعتزلة والأشاعرة، علينا بحث موقف السلف حينذاك، فترى في وصف أبي حنيفة ما يوضح لنا الاتجاه الصحيح السائد للمسلمين، المعارض لكل ما حدث من نـــزاع، فقد سئل عن أهل الجماعة، فأجاب:

«الجماعة سبعة أشياء أن يفضل أبا بكر وعمر، وأن يحب عثمان وعليًا، وأن يصلي على من مات من أهل القبلة بذنب، وألا ينطق في الله بشيء من رأيه ولكنه يصفه بما وصف به نفسه».

وكذلك قال من أصحابه أبو يوسف: (مذهب أهل الجماعة عندنا وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه، ممن لم يأخذ من البدع والأهواء، أن لا يشتم أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يذكر فيهم عيبًا، ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرف القلوب عنهم، وأن لا يشك بأنهم مؤمنون، وأن لا يكفر أحدًا من أهل القبلة ممن يقر بالإسلام، ويؤمن بالقرآن، ولا يخرجه من الإيمان بمعصية إن كانت فيه، ولا يقول بقول أهل القدر، ولا يخاصم في الدين فإنها من أعظم البدع.

وهكذا اتضحت عقيدة أهل السنة والجماعة لتجابه أيضًا الانشقاق الذي حدث على أيدي المعتزلة كما سنرى:

(٦) المعتزلة:

أصول المعتزلة واعتراضات علماء السنة عليها:

تعريف:

تكاد تجمع المصادر التاريخية وكتب الفرق على أن نشأة مذهب الاعتزال ترجع إلى اختلاف واصل بن عطاء مع شيخه الحسن البصري (١١٠هـ) في الحكم على مرتكب الكبيرة، واعتزاله مجلسه لهذا السبب، فيما عدا هذه الرواية الشهيرة فإن الملطي- توفي سنة (٣٧٧) -يعود بنشأة المعتزلة إلى أيام تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، لأنهم كانوا من أصحاب علي فاعتزلوا الناس ولزموا البيت والمساجد قائلين (نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك «المعتزلة».. والأرجح الرواية الأولى.

وعلى أية حال، فقد انفصل الخوارج عن الجماعة للأسباب التي ذكرناها، آنفًا، وفعل المعتزلة بالمثل بطريقة أخرى، وأطلقوا على أنفسهم اسم المعتزلة مشتركين معًا في اعتقاد الأصول الخمسية التي وضعوها، ففارقوا جماعة المسلمين وانفصلوا عنهم حريصين على التميز والظهور بما أعلنوه من عقائد مخالفة، ولهذا فقد قوبلوا بالاستنكار والمعارضة من جانب العلماء، لأنهم ابتدعوا آراء لم يعرفها الأوائل كالحكم على مرتكب الكبيرة بأنه في (منـــزلة بين المنـــزلتين) ونفي القدر. فكان عبد الله بن المبارك حينذاك يحذر المسلمين منهم بقوله (أيها الطالب علما ايت حماد بن زيد، فخذ العلم بحلم، ثم قيده بقيد، وذر البدعة من آثار عمرو بن عبيد) ومنه نفهم الانشقاق الذي بدأ يظهر بين علماء الحديث والمتكلمين منذ بزوغ المسائل الكلامية في مهدها، إذ كان عمرو بن عبيد قبل ذلك منخرطًا في سلك الجماعة الإسلامية، مرتبطًا بالأصول الإسلامية، منتميًا إلى حلقة الحسن البصري إمام البصرة الكبير، ولكنه بإعلانه لرأيه المخالف لرأي الجماعة اعتبر مبتدعًا فوصفه ابن حبان بأنه كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن، وجماعة معه فسموا معتزلة، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث وهما لا تعمدا....

الأصول الخمسة عند المعتزلة:

والأصول الخمسة التي اتفقوا عليها هي:

التوحيد، العدل، والوعد والوعيد، المنـــزلة بين المنـــزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن أنقص منها أو زاد عليها أصلا واحدًا لا يستحق لقب الاعتزال.

ولأفكار المعتزلة مظهر براق كالمعدن المزيف يجذب بظاهره العيون، ولكن سرعان ما يظهر بريقه الزائف من يتعمق في فهمه، فإذا دققنا في فهم أصولهم واحدًا فواحدًا، تحليلاً لها ومقارنة بما يقابلها من عقائد أهل السنة والجماعة، ظهر لنا زيف بريقها.

إن مرادهم بالتوحيد [1] نفي صفات الله تعالى، وقد أورد عقيدتهم كاملة أبو

---

(١) فجر المعتزلة باختيارهم للأصول الخمسة كما قلنا في مقدمة هذا الكتاب مسألة المصطلحات وكيف نستخدمها في نطاق العلوم الإسلامية. وهم ينشئون ويفخرون بأصلين من هذه الأصول هما (التوحيد والعدل)، وقد قصدوا في الحقيقة بالأول نفي الصفات الإلهية، وبالثاني نفي القدر.

=

الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين)، ومنها نستقي بعض ما ذهبوا إليه في هذا الأصل، إذ أجمعوا على أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا الحلول في الأمكان، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له، لم يزل سابقًا للمحدثات، موجودًا قبل المخلوقات، ولم يزل عالمًا قادرًا حيًا ولا يزال كذلك، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار.

ويمضي الأشعري -وهو خبير بعقائدهم لأنه كان معهم طوال أربعين عامًا- فينقل لنا ما قالوه في (التوحيد)، ويكفي من الاطلاع عليها معرفة الألفاظ والمصطلحات الفلسفية، فضلا عن استخدام أوصاف غير لائقة تجعلنا ندرك خلو القلوب والنفوس من الهيبة التي استشعرها المسلمون الأوائل، ونفهم أيضًا التعليق المنسوب للجنيد القائل: (نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب) وربما عني بذلك مثل إطلاقهم المترادفات الآتية (ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق.. إلخ.

وغيرها من الألفاظ التي تتنافى مع أدب الحديث عن رب العالمين -جل شأنه-

=

وقبل الدخول في إيضاح أصولهم الخمسة فإن ما يجدر مناقشته أولا هو ضرورة الاتفاق على تعريف موضوعي في دائرة الإسلام نفسه، فما أصل التوحيد عند المسلمين الأوائل الذي فهمه من الكتاب والسنة؟

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن "توحيد الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو توحيد ألوهيته المتضمن توحيد ربوبيته، كما قال تعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾[البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿**لا تتخذوا إلهين اثنين إنمـــا هو إله واحد فإياي فارهبون**﴾[النحل: ٥١] وقوله عز وجل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[الأنبياء: ٢٥].

إن دعوة الرسل إذن قائمة على هذا التوحيد المنافي لعقيدة الشرك التي اعتنقها المشركون، حيث كانوا يقرون بأن رب العالمين واحد، لكن كانوا يعبدون معه غيره، كما قال تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾[يوسف: ١٠٦] وقال عز وجل: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله**﴾[لقمان: ٢٥]

(ينظر شرح العقيدة الأصفهانية ص٢٠-٢١ لابن تيمية-ط. كردستان بمصر سنة١٣٢٩هـ.

ومن هنا نفهم حكمة سكوت السلف الصالح عن مثل هذا الكلام واكتفائهم بالقرآن العظيم، وهو دليل على عمق الإيمان والعناية الفائقة بكتاب الله تعالى تلاوة وحفظًا وعملاً فأيقنوا أنه يغنيهم عن كل ما سواه.

والمفهوم من (التوحيد) وهو الأصل الأول عند المعتزلة وأهم يعنون به إثبات وحدة الذات الإلهية فنفوا الصفات ظنًا منهم أن إثباتها يؤدي إلى الشرك وأنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة وعن هذا الأصل أيضًا تفرع قولهم في القرآن بأنه محدث، مخلوق، وقد وقف لهم علماء السنة بالمرصاد ودحضوا عقيدتهم بالحجج العقلية وشكلت مجادلة الإمام أحمد معهم أهم سند لعقيدة أهل السنة والجماعة.

وقد ظن المعتزلة أنهم بنفي الصفات الإلهية يؤكدون عقيدة التوحيد، ويتحاشون التشبيه والتجسيم والحشو، ووصفوا من خالفهم بهذه الصفات وهم أول من رموا مخالفيهم بهذه الصفات.

ويرى ابن تيمية عند نقده لهم أن الأسماء التي يتعلق بها المدح والذم من الدين لا تكون إلا من الأسماء التي أنـــزل الله بها سلطانه ودل عليها الكتاب والسنة والإجماع كالمؤمن والكافر والعالم والجاهل والمقتصد والملحد، فأما هذه الألفاظ الثلاثة فليست في كتاب الله ولا في حديث عن رسول الله ولا ينطبق بها أحد من سلف الأمة وأئمتها نفيًا ولا إثباتًا، ولذلك أصبح التوحيد عندهم مصطلحًا يعنون به نفي جميع الصفات الإلهية، وكل من أثبت شيئًا منها رموه بالتجسيم والتشبيه حتى أن من قال (إن الله يرى) أو (إن له علمًا) فهو عندهم مشبه مجسم، وأما التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنـــزل به الكتب فليس هو متضمنًا شيئًا من هذه الاصطلاحات بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئًا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها، هذا في العمل، وفي القول: هو الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه رسوله ولا بد من التوحيد بالقول والكلام- وهوأن يصفوا الله بما وصفته رسله وهذا وحده لا يكفي في السعادة، والنجاة في الآخرة، بل لابد من أن يعبد الله وحده، ويتخذ إلها دون سواه وهو معنى قول (لا إله إلا الله) إن هذا الفصل بين العلم والعمل وترجيح جانب علىآخر، وإثارة الجدل في قضايا مستقرة، كل هذه الأسباب قربتهم من الفلاسفة، وحولت العقيدة النابضة بالحياة إلى نظريات يدور حولها النقاش وتختلف عليها وجهات النظر بين أخذ ورد.

أضف إلى ذلك، أن أية مقارنة بين صفات الله تعالى وأفعاله وأسمائه الحسنى وبين ما ابتدعوه بحجة التوحيد، ترينا مدى الافتعال الظاهر من مصطلحاتهم فهي أدنى إلى ألفاظ الفلاسفة اليونان منها إلى آيات القرآن. والقرآن الكريم مملوء بإثبات صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، فعن العلم نقرأ قوله تعالى: ﴿**ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون**﴾ [هود: ١٢٣].

قوله عز وجل: ﴿**الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾ [طه: ٥-٨] وقوله سبحانه: ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**﴾ [الرعد: ٨-٩].

وعن القدرة، يقول تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير**﴾[الحج: ٦] ﴿**يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾[المائدة: ١٧].

ثم انظر إلى القدرة التي تبهر القلوب وتحير العقول إذا فكر الإنسان في أصله وفصله وحياته وموته وبعثه !! قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾[المؤمنون: ١٢-١٦].

ولزيادة الإيضاح فإننا سنتكلم عن:

آثار الإيمان بالصفات الإلهية في حياتنا الدنيوية:

ويتضح لقارئ القرآن الكريم والمطلع على السنة النبوية عنايتهما الفائقة بإثبات الأسماء والصفات الإلهية. فما مغزى ذلك وما جدواه وما آثاره في حياتنا كبشر مخلوقين، نتعلق بالرجاء والأمل، ونخضع لعوامل القهر والخوف، وتعترينا نوازع الضعف وهواجس الإخفاق، ونتطلع إلى من يأخذ بيدنا ويحقق رجاءنا ويغذي

نفوسنا بالطمأنينة والسكينة وسط بحر الحياة المتلاطم الأمواج؟ !!

قلنا من قبل، إن الإنسان مفطور على معرفة ربه -عز وجل- والإقرار بوجوده ونستطيع القول هنا أيضًا (على سبيل اليقين، لا على سبيل الظن، بأن صحائف الفكر البشري لم تشهد إنسانًا بغير عقيدة في إله.

ولكن يأتي الاختلاف بين البشر في التصور نفسه لاختلاف في أساس الاعتقاد بوجود الله [1].

خذ مثلاً فلسفة أرسطو التي تصف المبدأ الأول بواجب الوجود، ولكنها ذاتًا مجردة من كل وصف، ولا دخل له في أي شأن من شئون الكون، فسدت بذلك باب الدعاء والالتجاء بل قطعت كل خيط من الأمل والرجاء لدى بني آدم، إذ لا جدوى من محاولة إيجاد أية علاقة بينهم وبين (المبدأ الأول) كما تصوره هذه الفلسفة.

وعلى العكس خلقت عقيدة العرب الجاهلية كل صفة من صفات الإله على أشخاص من خلقه، كالقدرة على الإحياء، والرزق، والعلم الخ.. فقطعت بذلك أيضًا الرجاء في سؤال الإله الواحد والالتجاء إليه ثم جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. مذكرة الإنسان بصفات الله أي بعلمه وقدرته وسائر صفاته، وأسمائه الحسنى.

فهو سبحانه الحي القيوم، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه عز وجل معه بعلمه أينما كان. حيث يطمئن قلبه، ويجعله شديد الثقة بالعون الإلهي، إذ يؤمن أن لا ملجأ منه إلا إليه، فيصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء: يستنصره فينصره ويسأله فيعطيه، يستسقيه فيسقيه، ويتقرب إليه فيقربه.

وهكذا تأتي الأسماء والصفات الإلهية منبهة بني آدم إلى حاجتهم الدائمة إلى خالقهم ورازقهم لكي لا يتوهم الاستقلال والغنى بذواتهم عن مولاهم، وتفتح

---

(١) د.زكي نجيب محمود: الله وحياة الإنسان في فكره وسلوكه ص ١٨- ١٩ مجلة الهلال - جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـــ - إبريل سنة ١٩٧٩م.

أمامهم باب الأمل في حياة أفضل دائمًا سواء في الدنيا أو الآخرة.

فبمعرفة العبد لربه ذاتًا وصفاتًا تجعله يدرك أن الله يراقبه في حركاته وسكناته في سره وعلنه، فيخشاه ويتقيه ويلجأ إليه عابدًا داعيًا متضرعًا.

وبوسعك الإلمام بطرف من عقائد أهل الملل والنحل الأخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية، فلا تعثر في تصوراتها الإلهية، بمثل تصور المسلم لربه -عز وجل- مما أدى إلى الافتقار إلى الألوهية بالنسبة إلى الإنسان الغربي، وإحلال العلم والإنسان مؤلهين، محلها على الأرض، ولنتدبر بعد ذلك ما أوقعته كوارث القرن العشرين المتلاحقة بتلك الألوهية الجديدة للعلم والإنسان من دمار).

والأسوأ من ذلك انتقال العدوى إلينا معشر المسلمين بعد ضعف عقيدة التوحيد وهي الحصن الذي نلوذ به لرفع هذه البلوى، بعد أن تسرب إلينا انحراف الغرب فأصبح خضوعًا لحواسنا يكاد يكون تامًا مثلهم، وكادت الغالبية منا تفقد القدرة على تخطي الظواهر ببصائرها وعقولها إلى الله -عز وجل- خالق الكون ومدبره [1].

وعلى المستوى الحضاري، قامت الحضارة الإسلامية على عقيدة التوحيد فظلت متماسكة عندما وازن المسلمون بين أطرافها، أي بين الإيمان بالله غيبًا وذاتًا وصفاتًا- وبين إعداد العدة بالأساليب العسكرية المعروفة آنذاك، فاجتاح المسلمون الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية بفضل إيمانهم بالله تعالى على هذه الصورة، إذ أيقنوا أنه ناصرهم، فلم ترهبهم قوى الأعداء الظاهرة الملموسة ولم يخفهم الفارق المشاهد في القوى والعتاد والعدد، لأنهم أيقنوا أن الله من وراء الغيب يؤيدهم ويشد أزرهم ويأتي الآن الدور لتناول الأصل الثاني.

والمقصود بالأصل الثاني، وهو العدل إرجاع كل عمل إلى الإنسان لتفسير ظهور الشر ونسبته إلى الإنسان فقط، وإذا كان المسلمون كافة يؤمنون بعدل الله

---

(١) أبو الحسن الندوي: دعاء النبي ﷺ معجزة من معجزات السيرة ودليل من دلائل النبوة - مجلة البعث الإسلامي -لكهنؤ (الهند) ص ١٦، ١٧ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ - مايو سنة ١٩٧٦م.

سبحانه وتعالى، فإن المعتزلة فرعوا الكلام عن هذا الأصل، فأدى بهم إلى إيجاب الصلاح والأصلح على الله تعالى، وانبثقت فكرهم عن الحسن والقبيح العقليين وأنهما ذاتيان عقليان كما تفرغت أيضًا مسألة خلق أفعال العباد قالوا: (ويمتنع عليه إرادة الشر والمعاصي والقبائح) وقالوا: (يريد ما لا يقع، ويقع ما لا يريد) فزعموا أنه تعالى أراد من الكافر الإيمان وأن لم يقع إلا الكفر وإن وقع، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق حتى زعموا أن أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراد الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وظاهر عقيدتهم إرادة تنـــزيه الله تعالى، ولكننا سنعرف عندما نعرض لآراء علماء أهل السنة، كم أخطأوا وشذوا لأنهم لم ينتبهوا إلى التمييز بين الأمر والرضا والمحبة إذ الأخيرة لا تكون إلا في الخير، ولكن الإرادة قد تكون في غيره فهي تتعلق بكل ممكن كما يذكر ابن تيمية، قال الله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ [الزمر: ٧] فإن قيل، قد قال الله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها**﴾ [الإسراء: ١٦] فالمقصود هنا أن الإرادة التي تعنيها هي الإرادة الكونية المتصلة بالحكمة من خلق العالمين.

وأما الإرادة الدينية المتصلة بالأوامر الشرعية فهي ترادف الرضا والمحبة، وربما يلخص لنا موقف المعتزلة عبارة القاضي عبد الجبار في قوله: (سبحان من تنـــزه عن الفحشاء) بينما يعبر عن اتجاه أهل السنة والجماعة رد أبي إسحق الإسفراني: (سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء) [(١)].

ويتفرع عن ذلك الحديث عن الإيمان بالقدر وعلاقته بالإرادة الإنسانية:

الإيمان بالقدر وعلاقته بالإرادة الإنسانية:

من أفضل ما نستهل به هذا الموضوع، هو إجابة السؤال الذي وجه إلى جعفر الصادق ﷺ عندما سئل عن قول الله تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ [المؤمنون: ١١٥] لم خلق الله الخلق؟ فأجاب: لأن الله كان محسنًا

(١) شرح عقيدة الإسفراييني ص ٢٣١- ٢٣٢.

بما لم يزل فيما لم يزل، فأراد الله أن يفيض إحسانه إلى خلقه وكان غنيًا عنهم، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم فأرسل إليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل فمن أحسن كافأه الجنة ومن عصى كافأه النار) [١].

ويشرح ابن القيم أنواع الابتلاءات التي يتعرض لها الإنسان أثناء حياته في الدنيا، محصيا الآيات القرآنية الدالة عليها.

ويذكر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم، بالمصائب، وأن ذلك كله ابتلاء؛ فقال: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦][٢].

وقال: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ [تبارك: ٢] وقال: ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ [هود: ٧].

فأخذ سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشركهم في الخير والشر والسراء والضراء.

كذلك وردت الأحاديث الكثيرة في بيان ما يقابله المؤمن في حياته من ابتلاءات طوال عمره، منها:

-عن صهيب الرومي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره له كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**)) رواه مسلم.

عن مصعب بن سعد عن أبيه قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ – أي

---

(١) ابن تيمية شرح حديث النـــزول ص ١٥٩ – منشورات المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـــ – ١٩٦٩م.

(٢) في تفسير ابن القيم: قال الله تعالى: كلا، أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان بل قد أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي.

محنًا وشدائد : قال: ((**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**)) (رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والترمذي وقال حديث حسن صحيح).

والعبد المؤمن أمام شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتاز طريق الدنيا ويعود إلى الجنة موطنه الأصلي كوعد الله تعالى إياه (فإنه ما حرمه -عز وجل- إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل وجه. كما قيل: يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها، فلك خلقتها وسأعيدك إليها) [١].

موقف الإنسان:

الإنسان إذن أمام هذه الحقيقة لا يملك فرارًا، فهو بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، والصبر مع هذين الطرفين لازم ولا يخلو من نوعين:

أحدهما:

يوافق هواه ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال.

والآخر:

المخالف للهوى وهو على شكلين:

(أ) يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي، وعليه يترتب الأجر.

(ب) لا يرتبط باختياره كالمصائب، وبها تمحى السيئات وترفع الدرجات [٢].

ولكن الثابت أن الإنسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجبلية كالذكاء والصحة والأنوثة أو الذكورة، ولا يملك اختيار أبويه فيرث عنهما مواهب وسمات معينة دون الأخرى، ولا انتخاب الزمان الصالح ليعيش فيه، ولا البيئة الصالحة لينمي فيها طفولته. هذه كلها أمور لا يملكها الإنسان وخارجة عن نطاق اختياره وليس

---

(١) ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٤٧، ٥١، ٦٩.

(٢) ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٤٧، ٥١، ٦٩.

مسئولاً عنها [١].

ولكن المتعللين بالقدر على أفعالهم الإنسانية يحتجون بآيات قرآنية يختارونها وفق أهوائهم، كقول الله تعالى: ﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ [النحل: ٩٣] وهذا الاحتجاج سرعان ما يدحض أمام النظرة القرآنية لآيات أخرى تخبر الإنسان بين فعلين، كقوله عز وجل: ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا**﴾ [الإنسان: ٣] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها**﴾ [الشمس: ٧، ٨] والقرآن يفسر بعضه بعضًا، وهذا التفسير هو أدق التفاسير الذي يلجأ إليه العلماء لأن القرآن ميسر لكل ذي بصر وبصيرة.

﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾ [القمر: ١٧].

وبهذا الفهم يصبح تفسير الآية الأولى واضحًا لا لبس فيه إذ معناها أن إضلال الله لشخص أنه آثر الغي على الرشاد فأقره الله على مراده وتمم له ما يبغي لنفسه، قال تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [الصف: ٥].

إذن، فمعنى قوله تعالى: ﴿**يضل من يشاء**﴾ لا يتعارض وقوله: ﴿**وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧] وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء**﴾ وللنظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية في قول الله تعالى وهو يتكلم عن إرادته: ﴿**قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ [الرعد:٢٧، ٢٨].

ثم يأتي دور مناقشة المحتجين بالأحاديث النبوية وربما يقع أكثرهم على الحديث الآتي -ويفسرونه خطأ بأنه يدل على الجبر ونفي حرية الإرادة الإنسانية. والحديث: ((**ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**، قالوا يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: **اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة**

(١) الشيخ علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام ص ١٣١، ١٣٢ دار الرائد ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ [الليل: ٥ - ١].

وهذا الحديث -للبصر النافذ- لا لبس فيه [١]، أما سبق علم الله تعالى فإنه ليس حجة أيضًا للمحتجين بالقدر على معاصيهم. قال تعالى: **﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾** [البقرة: ١٤٣] وقال: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢] وقوله: **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾** (محمد: ٣١).

فروي عن ابن عباس في قوله (إلا لنعلم) أي (لنرى) وروي لنميز، وكذلك قال عامة المفسرين (إلا لنرى ونميز) وكذلك قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودًا واقعًا بعد أن كان قد علم أنه سيكون ولفظ بعضهم، قال: العلم على منـــزلتين- علم الشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب.

قال: فمعنى قوله (لنعلم) أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل. الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالمًا سبحانه بأنه سيكون، لكن لم يكن المعلوم قد وجد [٢].

ويتصل **الأصل الثالث بالوعد والوعيد** ومضمونه كما يعبر عنه الشهرستاني أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار [٣].

وانسياق المعتزلة في هذا الأصل يتصل بدفاعهم عن الحرية الإنسانية واحتكامهم إلى العقل إذ أصبح الثواب والعقاب عندهم ينصب على أفعال الإنسان

---

(١) الشيخ الغزالي: عقيدة المسلم ص ١٤٠ والحديث رواه البخاري بألفاظ متقاربة.

(٢) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٤٤٦ ط لاهور ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٥٩.

نفسها والتي يقتضيها العقل ومعنى هذا اعتقادهم أن إثابة المطيع ومعاقبة العاصي إن لم يتب -أمر محتوم (أي يجب) على الله تعالى أن يفعله، فخلطوا بين الوعد والوعيد، بينما يعتقد أهل الحديث والسنة أنه يجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه والوعد على نفسه بوعده، والله لا يخلف الميعاد، ويعتقد أهل السنة والجماعة أنه من موانع وقوع الوعيد التوبة والتوحيد والحسنات العظيمة والمصائب المكفرة وإقامة الحدود في الدنيا وأضعاف أضعافها.

ويأتي أصلهم في (المنـــزلة بين المنـــزلتين) الذي فارقوا به الجماعة ليرتبوا عليه اعتقاد أن مرتكب الكبيرة فاسق، وهو منـــزلة بين منـــزلتي الكفر والإيمان ولكنهم لم يكفروه كما فعل الخوارج، كما لم يستحلوا الدماء والأموال في الدنيا.

ولا ينفرد المعتزلة بالأصل الأخير -أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه مبدأ إسلامي اعتنقه كل الفرق، وهو يقضي بأمر المسلمين وتكليفهم بالجهاد في سبيل الله بأمر الآية: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون**﴾ [آل عمران: ١٠٤] إلى جانب اعتقادات أخرى اختلفوا فيها تزيد عن هذه الأصول مثل قولهم بأن العلم بالله تعالى يحصل بالنظر والاستدلال أي: ترتيب الأقيسة العقلية، فخالفوا جماهير الفقهاء والصوفية وأهل الحديث العامة وغيرهم، لأن سلف الأمة وأئمتها اتفقوا على أن معرفة الله تعالى والإقرار به لا يقف على الطرق التي يذكرها أهل طريقة النظر (لأن أصل المعرفة والإقرار بالصانع يحصل بديهة وضرورة ولا يتوقف على النظر والاستدلال، ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن جميع الأمم تقر بالصانع مع عظيم شركهم وكفرهم (ولهذا يوجد له عند كل أمة اسم يسمونه، والتسمية مسبوقة بالتصور. فلا يسمى أحد إلا ما عرفه، ثم المستمع لذلك الاسم يقبل بفطرته ثبوت المسمى به من غير طلب حجة على وجود ويكون قبولها لأسماء سائرها ما أدركه بحسه وعقله مثل الشمس والقمر والواحد والاثنين بل هذا أكمل وهناك آراء أخرى لعلماء السنة ردوا بها على المعتزلة:

الرد على المعتزلة:

أخذ عليهم علماء السنة أهم يردون الأحاديث غير الموافقة لأغراضهم ومذاهبهم ويدعون أنها مخالفة للعقول (وغير جارية على مقتضى الدليل فيجب ردها، كالمنكرين لعذاب القبر، والصراط، والميزان، ورؤية الله -عز وجل- في الآخرة) [١].

فضلا عن اختلافهم في الاعتقاد بشفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة وإنكار بعضهم لمعجزات الرسول ﷺ [٢].

وكل ذلك بزعم اعتمادهم على الأدلة التي تجيزها عقولهم.

وما زال الاتجاه الاعتزالي يجذب البعض بتأثير سحر (العقل) وأحكامه، وأصبح الاعتزال الآن (موقفًا)و (اتجاهًا) بعد أن كان معبرًا عن فرقة لها أصولها ومذهبها كما رأينا.

لذلك نرى إيضاح رأي علماء السلف في حججهم العقلية وفتنتهم بالعقل وكأن أدلة الشرع لم تستند إلى العقل.

نحن هنا مضطرون إلى الشرح بشيء من الإفاضة لإجلاء هذه النقطة الدقيقة التي ربما كانت مثار التباس عند البعض.

ونرى أن الآفة الحقيقية في الفكر الاعتزالي بوجه عام تشمل نقطتين:

أولا: الظن بأن (عقولهم) أولى بالتقديم من النصوص الشرعية.

ثانيًا: رد بعض الأحاديث النبوية وإنكارها أو الطعن في السنة عمومًا.

أولاً: أحكام العقل:

وفي هذه النقطة نرى إصابة ابن تيمية في رده المفحم حيث فند الصلة بين الأدلة وصحح كثيرًا من المفاهيم الخاطئة حول الأدلة عند الكلام عن أصول الدين، قال في قول جامع: (أن يقال كون عقليًا أو سمعيًا ليس هو صفة تقتضي مدحًا ولا ذمًا ولا صحة ولا فسادًا، بل ذلك يبين الطريق الذي به علم وهو السمع أو العقل، وإن

---

(١) الشاطبي: الاعتصام ج ١ ص ١٤٥.

(٢) ينظر كتاب (موقف المعتزلة من السنة النبوية ومواطن انحرافهم عنها) تأليف: أبو لبابة حسين ص ١١٣- ١٤٩ دار اللواء - الرياض ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

كان السمع لا بد معه من العقل، وكذلك كونه عقليًا ونقليًا. وأما كونه شرعيًا فلا يقابل بكونه عقليًا وإنما يقابل بكونه بدعيًا إذ البدعة تقابل الشرعة، وكونه شرعيًا صفة مدح، وكونه بدعيًا صفة ذم.

وما خالف الشريعة فهو باطل، ثم الشرعي قد يكون سمعيًا، وقد يكون عقليًا. فإن كون الدليل شرعيًا يراد به كون الشرع أثبته ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه، فإذا أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا. ولكن الشرع نبه عليه ودل عليه، فيكون شرعيًا عقليًا، وهذا كالأدلة التي نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله وإثبات صفاته وعلى المعاد. فتلك أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل. وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية.

وأما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد إخبار الصادق -ﷺ- فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيًا سمعيًا.

وكثير من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية منحصرة في خبر الصادق -ﷺ- فقط وأن الكتاب والسنة لا يدلان إلا من هذا الوجه، ولهذا يجعلون أصول الدين نوعين: العقليات والسمعيات ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة، وهذا غلط منهم، بل القرآن دل على الأدلة العقلية وبينها ونبه عليها، وإن كان من الأدلة العقلية ما يعلم بالعيان ولوازمه، كما قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾ [فصلت: ٥٣].

وأما إذا أريد بالشرعي ما أباحه الشرع وأذن فيه، فيدخل في ذلك، ما أخبر به الصادق وما دل عليه ونبه عليه القرآن. وما دلت عليه وشهدت به الموجودات.

والشارع يحرم الدليل لكونه كذبًا في نفسه، مثل:

(أ) أن تكون إحدى مقدماته باطلة، فإنه كذب، والله تعالى يحرم الكذب لا سيما عليه، كقوله تعالى: ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه**﴾ [الأعراف: ١٦٩].

(ب) ويحرمه لكون المتكلم يتكلم بلا علم، كما قال تعالى: ﴿**ولا تقف ما**

ليس لك به علم﴾[الإسراء: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف: ٣٣].

(ج) ويحرمه لكونه جدالاً في الحق بعد ما تبين كقوله تعالى: ﴿**يجادلونك في الحق بعد ما تبين**﴾ [الأنفال: ٦] وقوله تعالى: ﴿**وجـــادلوا بالبـــاطل ليدحضوا به الحق**﴾ [غافر: ٥] [(١)].

وبناء على ما تقدم يقرر شيخ الإسلام أن الدليل الشرعي لا يجوز أن يعارضه دليل شرعي ويكون مقدمًا عليه.

وإلا فهل يعقل أن تقدم البدعة التي لم يشرعها الله تعالى على الشرعية التي أمر الله بها؟ أو تقديم الكذب على الصدق؟ أو تقديم خبر غير النبي على خبر النبي؟ أو اعتبار ما نهى الله تعالى عنه خيرا مما أمر الله به؟

ولا شك أن كل هذا ممتنع [(٢)] وستزداد الأمور وضوحًا لو بحثنا علاقة العقل بعالم الغيب الذي يعجز العقل عن الإحاطة به:

العقل وعالم الغيب:

إن مناقشة أصحاب الاتجاه الاعتزالي تحتاج منا إلى مخاطبتهم بحجج العقل وبيان أن ما ينكرونه من حقائق وردت بالشرح لا تتنافى بتاتًا مع أحكام العقل الإنساني وموازينه:

١ - أمدنا الشرع بإيضاحات كاملة عن عالم الغيب بتفاصيله الدقيقة حتى أصبح واضحًا كالشمس.

إن الإنسان يحتاج إلى معرفته أشد من حاجته إلى معرفة عالم الشهادة.

فهذا موقف مؤقت وذلك أبدي خالد. ونحن نعلم من تجاربنا أننا نحرص على تعلم علوم الدنيا للسعي فيها وتذليل الصعوبات التي أمامنا باكتساب علوم الصناعات والطب والزراعة والاقتصاد والهندسة وغيرها. فإن العلم بحقائق الغيب -ومنها عالم الآخرة- أولى لأنها الأدوم والأخلد.

---

(١) بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ج ١ ص ١١٦.

(٢) نفسه ص ١١٥.

٢ - إن معرفة ماهية الحياة بعد الموت - ولا مصدر لنا إلا الشرع- سواء في البرزخ أو في الآخرة تمنع الإنسان وتردعه عن ارتكاب كثير من الخطايا والزلات، وقد تصده أيضًا عن الصغائر والهفوات، كمعرفة عذاب القبر وسؤال الملكين واجتيازالصراط وهول المطلع وشدة الموقف يوم القيامة والحساب والعقاب.

٣ - إننا نعجب كيف يذهل العقل ويحتار أمام عالم المشاهدة -لا سيما في العصر الذي نعيشه -ثم يجرؤ على استبعاد أو الشك بما أخبرنا به الرسول المعصوم ﷺ عن عالم الغيب؟

إننا إذا فتحنا عيوننا علىعالمنا فستأخذنا الدهشة والحيرة، فحقائق العلم تذهب العقول والألباب وتفتح الباب أمام عالم أوسع آفاقًا بكثير مما يقع عليه تذهل العقول والألباب وتفتح الباب أمام عالم أوسع آفاقًا بكثير مما يقع عليه الحس أو يحيط به العقل، مع أن اكتشافات العلماء تمثل النذر اليسير من مخلوقات الله تعالى التي لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى !!.

خذ مثلاً الحقائق التي يكتشفها علماء الفلك كيف عرفوا أن هناك مليارات الكواكب المحيطة بنا. أنه عالم لا نهائي بالنسبة للإنسان وقدراته على الإحاطة بعالم المخلوقات، فما بالنا بعالم الغيب؟

٤ - إن ما ظنه البعض أحكامًا عقلية هو في الحقيقة خضوعًا للمألوف المعتاد، ولو تحررنا منه وفتحنا أعيننا على ما يحدث في العالم حولنا من أعاجيب، لذهلنا وتحيرنا واستبعدنا حدوثها.

يعدد العلامة الأستاذ المودودي -رحمه الله تعالى- تلك الأعاجيب فيما نراه ونلمسه من أمور تحدث وهي غاية في الغرابة.

فإن البذرة تنشق في بطن الأرض وتظهر بصورة شجرة ضخمة، وتدخل قطرة من ماء الرحم وتخرج بصورة إنسان، ويتولد الماء باجتماع غازين ويتحول إلى بخار ويتحول البخار إليه بترتيب خاص مرة بعد أخرى، وتجري مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات في فضاء العالم الواسع ويرتبط بعضها ببعض بدون ما علاقة مرئية.

وينبهنا أخيرًا بقوله: (إنكم معتادون لرؤية كل هذه الأمور ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة، وإنما ترونها أمورًا عادية، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها،

وكنتم مستأنسين بنظام آخر غير نظامها، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس، وأنكرتم إمكانها بكل شدة) [١].

ثانيًا: رد بعض الأحاديث النبوية وإنكارها:

نعتقد كما بينًا آنفًا امتداد حركة التأويل الكلامية لدى المعتزلة إذا ما زالت تعيش في عقول البعض الذي يحاول إنكار الحديث النبوي أو الطعن فيه، وإن اختلف بواعثهم عن بواعث أسلافهم من أئمة الاعتزال.

ولا نجد من الحجج العقلية ما نواجه به هؤلاء إلا كلمات يسيرة، خطها مفكر غربي، نشأ في بيئة ثقافية وحضارية غربية ولكنه عثر في الإسلام على ضالته المنشودة فاعتنق الإسلام بعد دراسة طويلة متأنية، وفي تقويمه للسنة النبوية قال: (إن سنة الرسول -صلوات الله عليه- تالية للقرآن، وهي المصدر الثاني للشرع الإسلامي والسلوك الشخصي والاجتماعي، ومن ثم يجب على المسلمين جميعًا اعتبار أن السنة هي التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف في تأويل تلك التعاليم وتطبيقها في الحياة العملية، ولكن مع الأسف نسمع التعبير الذي الذي يتردد على مسامعنا اليوم من البعض (لنرجع إلى القرآن الكريم، ولكن يجب ألا نجعل من أنفسنا أتباعًا مستبعدين للسنة) وهو يدل على جهل للإسلام، مثلهم في ذلك مثل الذي يريد دخول قصر، ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب).

أما عن المشكلة المفتعلة في صحة المصادر، فإن الطاعنين فيها لا يملكون أي مبرر لموقفهم، ولا يمكن أن يأتوا بأدلة مقنعة تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ، إذ من الصعب عليهم تدعيم انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي، لأن الجامعين لكتب الحديث الأولى وخصوصًا الإمامين البخاري ومسلم، وقد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضًا أشد كثيرًا من ذلك الذي يلجأ إليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم.

---

(١) المودودي: الحضارة الإسلامية ص ٢٤٨- ٢٤٩.

ومن الثابت لكل دارس لعلم مصطلح الحديث أن هذا العلم استطاع من الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الأشخاص الذين ذكروا على أنهم رواة أو محدثون، فقد خضت تراجم هؤلاء الرجال والنساء لبحث دقيق من كل ناحية، ولم يعد منهم في الثقات إلا أولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تمامًا مع القواعد التي وضعها المحدثون، تلك القواعد التي تعتبر على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة، فإذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة، فإن عليه هو وحده أن يثبت ذلك، وإذا لم تقم حجة معقولة أي علمية تبرهن على أن المصدر مقوص، كان حتمًا حينذاك أن تقبل الحديث على أنه صحيح.

ودون الاستطراد في الكلام عن كافة الاحتمالات الطاعنة في الحديث، إلا أنها تتهافت جميعًا أمام الأسلوب العلمي للنقد، وقد بدأ علم الحديث لما مست الضرورة إلى تمييزالحديث الصحيح من الحديث الموضوع، وأن صحيحي الإمامين البخاري ومسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز.

وبقي السبب الوحيد الذي يحمل البعض على معارضة الحديث، ويرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضر المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح بسبب نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية، فقد أصبح الجيل المسلم الحاضر مستعدًا لأن يكبر كل شيء غربي وأن يتعبد لكل مدنية أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية).

ثم يحذرنا محمد أسد بقوله: «ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرزوا قصورهم وقصور بيانهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة إتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون في أوجه من التفكير السطحي، أي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو. ولكن تلك المنـــزلة الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي -ننتهي بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار»[1].

(١) الإسلام على مفترق الطرق – ترجمة د. عمر فروخ ط. دار العلم للملايين - بيروت

هذا هو موجز رأي هذا المفكر المسلم ربيب الحضارة الغربية، وقد استهدفت بإيراد رأيه المدعم بالأدلة، تدعيم وجهة النظر التي نراها صحيحة، وتتلخص في أن الاتجاه السلفي سيظل هو الموقف الصحيح بالنسبة للإسلام، مهما تقدمت العصور، فليست السلفية إذن قاصرة على تفسير تاريخي مضى واندثر، ولكنها ستظل علمًا على النظر إلى الإسلام من واقع الأصلين العظيمين: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ونستخلص أيضًا سبب معارضة ابن تيمية لعلم الكلام الأشعري، لأنه يبدأ من قواعد ليست مستنبطة من القرآن والحديث فيؤدي إلى نتائج مخالفة لعقائد الأوائل، مهما ادعى أصحابه أنهم يسيرون على نهج السلف.

(٧) الأشاعرة:

تبين لنا مما سبق أن السلف وقفوا طويلا أمام علم الكلام نابذين أصحابه مبتعدين عن الخوض فيه، ثم دخلوا الميدان حينما قويت شوكة المعتزلة، فاضطروا إلى مجاهتهم، ولكن بمنهج مخالف إذ تظهر السمات البارزة للمنهج السلفي الخالص حينذاك في العناية بالحديث النبوي واتخاذ القرآن والحديث نقطة البداية كأصول بغير تأويل يخرج بهما عن مدلولات ألفاظهما، والمحافظة على التفسير المأثور عن الصحابة وتابعيهم.

أما التيار الكلامي المعتزلي الذي مر بنا آنفًا فإن أبرز معالمه مخاصمة أهل الحديث والطعن في الأحاديث النبوية، فقد تحامل المعتزلة على المحدثين وأقروا الجدل واعتمدوا على أصول ظنوا أنها عقلية مستبعدين النقل، وأوّلوا المتشابه من القرآن الكريم تأويلا لم يقرهم أهل السلف عليه، وكانت مسألة الصفات الإلهية من أهم مسائل النـــزاع بينهما حتى أصبحت علمًا مميزًا بين الفريقين، يقول الشهرستاني: «أعلم أن جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقًا واحدًا، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والرجلين، ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون بتسميتها صفات خبرية» ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات ،

والسلف يثبتون، سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة.

وقد ظهرت الموجة العارضة للمعتزلة في شكل اتجاهين، أحدهما الاتجاه السلفي الذي مضى في طريقه مستمسكًا بنفس طريقة الأوائل، ثم ظهر اتجاه جديد حاول الارتباط بالسلف أيضًا، ذلكم هو علم الكلام في المدرسة الأشعرية الذي بدأ بابن كلاب، وتابعه فيه أبو الحسن الأشعري، ومضى بعده شيوخ المذهب كالباقلاني والجويني والغزالي والشهرستاني والرازي وغيرهم، وهما أهم اتجاهين في الفكر الإسلامي مازالا يعيشان إلى اليوم، بينما تضاءل تأثير مدرستي الطحاوي والماتريدي. كما لا نستطيع أن نغض الطرف عن اعتناق الشيعة المتأخرين لتفسيرات المعتزلة الكلامية.

الأشاعرة وعلم الكلام:

لاشك أن الرغبة في الدفاع عن عقيدة أهل السنة بخاصة والإسلام بعامة هي التي دفعت أئمة الأشاعرة إلى استخدام الكلام ظنًا منهم أنه المنهج الصحيح لهذا الغرض، ثم تبين لهم بعد التجربة غير ذلك، فتحولوا عنه، ولعل أهم المتحولين إلى طريقة السلف هو الإمام أبو الحسن الأشعري نفسه، وقصة تحوله من الاعتزال إلى عقيدة الإمام أحمد بن حنبل تبرهن على ذلك كما أسلفنا.

ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعري - وأبرزهم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري) أن كتاب (الإبانة) من أواخر كتبه وهو دليل على استقراره على طريقة الإمام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف.

لقد عانى الإمام الأشعري طويلاً لنظريات المعتزلة، وأخذ يكابد نفسيًا هذا الاضطراب الذي يحسه رجل الفكر بين عقيدة تربى في أحضانها وتشربها وظل يدرسها نحو أربعين عامًا، وبين ما رآه حقًا.

وبعد طول فكر وإمعان نظر، تنصل من الفكر الاعتزالي وتبرأ من المعتزلة، وأعلن ألا مفر من سلوك الطريق الصحيح: طريق السلف، فهل تحول من النقيض إلى النقيض دفعة واحدة؟ إن التفسير النفسي لهذه الظاهرة يبدو غير مقنع فالأقرب إلى الصحة أنه بعد لفظه للأفكار التي اعتادها بحث عن الحلول السليمة التي يراها بديلة

لها، فاهتدى إلى حل وسط -والمنهج الوسط لا يحل المسائل- ولاشك أنه أحس بالحيرة تتملكه لأن منهجه الوسط أوقعه في مشاكل من نوع جديد، وهي التي حاول الخروج منها أيام اعتزاله، ثم تعدى هذه الحلقة الوسطى في تفكيره ووجد الحل النهائي في عقيدة السلف التي دونها بكتابه ((الإبانة)) [(١)] هذه العقيدة المطابقة تمامًا لما أورده في كتابه ((مقالات الإسلاميين)).

وجاء بعده الإمام الباقلاني (٤٠٢هـ) فكان حريصًا على الانتساب إلى الإمام ابن حنبل أيضًا حتى كان يكتب في بعض أجوبته محمد بن الطيب الحنبلي [(٢)].

وأئمة الأشعرية بعده اتخذوا مشابهًا أيضًا يثير الانتباه ويدعو لبحث هذه الظاهرة التي -إن دلت على شيء- فإنها تدل على الإخلاص في البحث عن الحقيقة من جهة، كما يدل من جهة أخرى على أنه لا سبيل إلى معرفة أصول الدين إلا من مصادره في الكتاب والسنة.

فها هو إمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ) في كتابه (الرسالة النظامية) يشير إلى اختلاف مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن. وذهب أئمة السلف إلى الكف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب، ثم يصرح بأن الذي يرتضيه رأيًا، ويدين لله عقدًا، اتباع سلف الأمة، مبرهنًا على ذلك بأن الدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند الشريعة وقد درج صحب رسول الله

---

(١) أما مسألة أيهما أسبق: كتاب (اللمع) أم (الإبانة)، وهي التي لم يسبق إثارتها -فيما نعلم- إلا بواسطة الشيخ الكوثري بقوله إن السلفيين هم الذين انفردوا بالقول بان آخر كتب الأشعري هو (الإبانة)، فإن أول ما يستحق الانتباه هنا أن استناد ابن تيمية في هذه القضية يعود فيه إلى أصحاب الأشعري أنفسهم فيقول: (وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه) ابن تيمية- العقيدة الحموية ص ١٤٩، وينظر كتاب (اللمعة في تحقيق باحث الوجود والحدوث والقدر وأفعال العباد (للحلبي ١١٩٠م) يقول: (كتاب الإبانة هو آخر تصنيفه كما ذكره الحافظ ابن تيمية الحنبلي وهو المعول عليه).

(٢) ابن تيمية: موافقة.. ج ٢ ص ٩، ٥١.

ﷺ على ترك التعرض لمعانيها وترك ما فيها وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الله، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها. فلو كان تأويل هذه الظواهر مشروعًا أو محتومًا لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامه بفروع الشريعة. ولذلك ثبت عنهم الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع فحق على كل ذي دين أن يعتقد تنـــزيه الباري عن صفات المحدثين. ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب فليجر آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ [ص: ٧٥] ﴿**ويبقى وجه ربك**﴾ [الرحمن: ٢٧] وقوله: ﴿**تجري بأعيننا**﴾ [القمر: ١٤] وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النـــزول وغيره على ما ذكرنا.

ويعضد ذلك ما ذهب إليه في كتابه (غياث الأمم) فبالرغم من أن الكتاب مخصص لعرض الفقه السياسي الإسلامي وآرائه في منصب الخلافة أو الإمامة، فقد حرص في باب (تفصيل ما إلى الأئمة والولاة) على أن ينص على أحد مهام الخليفة على صرف المسلمين عن الخوض في المشكلات الكلامية وتوجيههم إلى طريقة السلف فقال في هذا الصدد: (والذي أذكره الآن لائقًا بمقصود هذا الكتاب، أن الذي يحرص الإمام فيه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن تبغت الأهواء وتزيغ الآراء، وكانوا ﷺ ينهون عن التعرض للغوامض في المشكلات.. إلى أن يقول وما كانوا ينكفون ﷺ عما تعرض له المتأخرون عن عي وحصر، وتلبد في القرائح هيهات ! قد كانوا أذكى الخلائق أذهانًا وأرجحهم بيانًا [(١)].

ورأى الغزالي (٥٠٥ هــ) أيضًا في علم الكلام مدون في كتبه معروف مشهور لا سيما (الأحياء)؛ فقد قال فيه: (وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكبر من الكشف والتعريف...) وإلى نفس المعنى يذهب في كتابه (المنقذ من الضلال) فذم علم الكلام أيضًا وقال بأن أدلته لا

---

(١) الجويني: غياث الأمم في التياث الظلم ص ١٤٠ - ١٤١ تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبد المنعم- ط. دار الدعوة بالإسكندرية سنة ١٤٠٠ هــ.

تفيد اليقين. وفي كتابه (التفرقة بين الإيمان والزندقة) صرح بتحريم الخوض فيه فقال: (لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخوض في هذا العلم حرام).

ومات الغزالي على خير أحواله، مات على الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم، طالبًا علم الحديث، فتحول من علم الكلام إلى طلب السنة من مصادرها الصحيحة.

أما الرازي (٦٠٦هـ) وهو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة -فقد نبه في أواخر عمره إلى ضرورة اتباع منهج السلف، وأعلن أنه أسلم المناهج بعد أن دار دورته في طرق علم الكلام والفلسفة، فقال في النهاية: (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه: ٥] ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ [فاطر: ١٠] ثم قال: (ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكان يتمثل كثيرًا في الأبيات التالية:

نهايـــة إقـــدام العقول عقـــال	**وأكثر سعي العالمين ضـــلال**
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	**وحاصل دنيانـــا أذى ووبال**
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	**سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا**(١)

وقال في وصيته: (أحمد الله بالمحامد التي ذكره بها أفضل ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق به أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم، بل أقول ذلك من تاريخ الحدوث والإمكان، فأحمده بالمحامد التي يستحقها لإلهيته ويستوجبها لكمال الإلهية، عرفتها أو لم أعرفها، لأنه لا مناسبة للتراث مع جلال رب الأرباب).. إلى قوله: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقشات

(١) ابن الوزير اليماني: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ج٣ ص ١٦٨ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ.

والمتناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية) وذكر في وصيته أيضًا أنه يدين لله تعـالى: محمد ﷺ، وسأل الله تعالى أن يقبل منه هذه الجملة ولا يطالبـه بالتفصيـل [(١)].

ونكتفي بهذا القدر لبيان النتائج التي توصل إليها أكبر أئمة المتكلمين في المدرسة الأشعرية، إذ تأكدوا بعد رحلة طويلة مع الكلام والخوض في قضاياه إلى نتائج حاسمة حيث وجدوا -كما ذكر الرازي- أن طريقة القرآن كافية شافية، وأن طريقة أهل الحديث موصلة إلى اليقين، داعية إلى الاطمئنان وثبات الإيمان.

ومهما يكن من أمر، فإننا في نظرنا إلى المدرستين الكبيرتين في علم أصول الدين، وهما المعتزلة والأشاعرة، فإننا نقترب من الأساس الصحيح لتقويمها ولوجدنا الميزان الذي نستخدمه باعتبارهما يتفقان في استخدام منهج التأويل.

ونبدأ بالمعتزلة فنقول: لو نـزعنا الاسم من مدلوله التاريخي، وتقيدنا بالمعنى الاصطلاحي لاتضح لنا أنه يطلق على من يحاول تجريد الإسلام من دليله النقلي وتفريغه في مضمون عقلي فلسفي، يتسم بالجفاف، ولا يخلو من تعسف وغلو التأويل. فدعوى التوحيد أدت إلى تجريد الذات الإلهية من الأسماء والصفات، وتجرأوا على الكلام عن الله سبحانه وتعالى بكلام ينقصه الهيبة ويخلو من أصول وآداب الحديث عن مقام الألوهية، ودعوى العدل ألغت العلم الإلهي المسبق وكفى بهاتين

---

(١) ابن الوزير اليماني: الروض الباسم – ج٣ ص١٦٨.
وقد أورد نصوصًا كثيرة أخرى تثبت رجوع أئمة الكلام إلى طريقة السلف، فنقل عن القرطبي في (شرح مسلم) أيضًا أن الجويني كان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به، وأوصى الكرابيسي قبل موته أتباعه بقوله: (عليكم بما عليه أهل الحديث، فإني رأيت الحق معهم) وأورد قول أبي الوفاء بن عقيل لأصحابه: (لقد بالغت في الأصول طول عمري ثم عدت القهقري إلى مذهب المكتب - يعني الذين يكتبون الحديث ويشتغلون به). وأيضًا قال الشهرستاني: (عليكم بدين العجائز -فإنه أسنى الجوائز) المصدر السابق ص ١٦٨ - ١٦٩.
(الإمام فخر الدين الرازي - حياته وآثاره ص ٧٥) ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م.

النتيجتين سببًا لمعارضة السلفيين للمعتزلة هذا إذا أغضينا الطرف عن باقي أخطائهم.

وكذلك الأشاعرة، لو نـــزعنا عنهم ثوبهم التاريخي، والظروف التي أدت إلى ظهور الكلام الأشعري، لأمكن وصفهم بأنهم أصحاب الاتجاه الوسط -مع الاختلافات الفردية الخاصة بين شيوخهم أنفسهم- وليس بمستغرب على كلا الاتجاهين أن تختلف آراء أفراده وتتعارض، وهذا دليـــل على خطأ المنهجين القـــائمين على التأويل المخالف لطريق السلف [١].

ويرجع سبب الجدل الذي خاضه معهم ابن تيمية إلى فهمه للصلة الوثيقة بين الأفكار وأثرها، لأن المبالغة في تقدير دور العقل الإنساني وأحكامه أدت بهم إلى التزامات منحرفة عن الحقائق القرآنية ومخالفة تأويلاتهم للأصول الإسلامية الصحيحة.

ويذهب الدكتور محمد علي الزغبي إلى أن مرض التأويل غير المشروط قد سرى إلى المسلمين من اليهود، واشتهر به الفيلسوف اليهودي (فيلون) حتى أله (عزير) وأن الانشغال بالتأويل والتحلل من التكاليف قديم لدى اليهود، إذ أمرهم الله أن لا يصيدوا سمكًا يوم سبت. فأخذوا يحفرون أخاديد إلى جانب الشاطئ يوم الجمعة حتى إذا سقط بها السمك أغلقوا طريق عودته وصادوه يوم الأحد، ثم تمادوا في هذا التأويل حتى استقرت لديهم قاعدة (إذ تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز) ثم كانت الصبيحة الأخيرة لفيلسوفهم الهولندي (اسبينوزا) العائد إلى مبدأ «يجب أن نفسر التوراة بالتوراة» [٢].

(٨) ابن تيمية والتصوف [٣]:

كان شيخ الإسلام ملتزمًا في موقفه من التصوف والصوفية بالقواعد الأساسية في اجتهاداته فمن حيث المنهج التاريخي، يضع الأصل في البحث الاقتداء بالصحابة

---

(١) ينظر كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين) ص ١٥٧ وما بعدها- ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

(٢) الماسونية في العراء ص ٢٣٩.

(٣) ينظر كتابنا (ابن تيمية والتصوف) ط- دار الدعوة بالإسكندرية.

فالتابعين فهمًا للحديث «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» ومن استمسك بعدهم بالمنهج الإسلامي الصحيح عقيدة وعبادة وسلوكًا وأخلاقًا.

وكلما بعد الزمن، كلما قل عدد الصحابة والتابعين، فبدأت البدع في الظهور تدريجيًا، لأن نور النبوة في الأصل كان بمثابة الشمس الساطعة التي طمست الكواكب، وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم حجب بعض نور النبوة.

وعلى أثر أحداث الفتن برزت الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة -كما أسلفنا -فوقف في وجهها بعض الصحابة لمجابهتها وبيان أخطائها وهم على سبيل المثال -عبد الله بن عباس ٨٦ هـ وعبد الله بن عمر ٧٣ هـ وأبو سعيد الخدري ٩٤ هـ.

وفيما يتعلق بالتصوف، فإن ابن تيمية قرنه بالرأي وعلم الكلام كألوان من البدع لم تعرف لدى القرون الأولى -مرجعًا ظهورها إلى عاملين: الأول: ظهور سلطان الموالي من غير العرب لا سيما الفرس، والعامل الثاني: ترجمة كتب الفرس والروم والهند.

ومع هذه النظرة التاريخية، فإن له منهجه الموضوعي أيضًا في دراسة التصوف فإنه يضع علم النبوة في قمة العلوم جميعًا لأنه العلم بالإيمان والقرآن، ثم حدث الانقسام بعد ذلك إلى دوائر الفقه والحديث وأعمال القلوب، وأخذ علماء المسلمين يجتهدون كل في مجاله، وما من أحد ممَّن أسماهم إلا ولـه -في رأيه -من الآراء والأفعال ما لا يتبع عليها مع أنه لا يذم عليها -أي أن ضرورة الاقتداء بالطريقة النبوية هو الأصل والأساس لأنه لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ.

ويقول في عبارة جامعة:

من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدي الذي كان محمد ﷺ وأصحابه عليه فقد أصاب طريق النبوة.

ومن الملاحظات الدقيقة المعبرة عن الحقيقة التي وجدناها عند المستشرق الفرنسي (لاووست) للصوفية بقوله:

وتمارس الصوفية على اختلاف أشكال تطرقها نشاطًا هو بمثابة معول هدم للمذهب السني، فقد تسللت إلى الإسلام عن طريقها مؤثرات مسيحية، وأمام انتشار نظام الرهبنة لم يعد الإسلام نظامًا سياسيًا، وتحول مفهوم الدين عن حقيقته الاجتماعية، وأصبح المثل الأعلى في نظر المؤمن هو الانقطاع عن الدنيا لعبادة الله تأملاً ومناجاة، وبالتدريج تحولت الحركة السنية المجاهدة في أوائل عصر المماليك إلى سنية هادئة هابطة متمسكة بالطقوس، ازدهرت في ظل حكم آخر أمراء المماليك البحريين ومع بداية عهد الشراكسة، وبعد أن كان «الجهاد» في الأصل أعظم الأعمال الشرعية لأنه يقتضي من كل فرد أكبر جهد ومن الجماعة أكبر قدر من التضامن والترابط، أصبحت أفضل الأعمال هي هروب الفرد من المجتمع وممارسته التوبة والندم عن طريق الصلاة والصوم والخلوة، والحقبة التي تعنينا في هذا البحث هي الفترة التي تحولت فيها السنية إلى شكلها الثاني، مما فرض على ابن تيمية واجب التوضيح والتحديد لمعنى «الورع» في مفهوم الدين، وهو ما يطلق عليه رجال الصوفية لفظ «العبادة» (١).

وقد أجاد لاووست في وضع يده على أساس البلاء بمشرط باحث دقيق.ولكن كنا نود منه أن يفسر لنا عنف ابن تيمية في خصومة الطرق الصوفية التي اتخذت من الشعوذة سبيلاً إلى قلوب الجماهير، والحق أنه لا تفسير لشدة خصومة شيخ الإسلام إلا بسبب المؤثرات الأجنبية التي أشار إليها المؤلف هنا وكان شيخ الإسلام حريصًا على تأكيد صيغة الجهاد الإسلامية في معظم مؤلفاته، كما عبر بسلوكه العملي عن إيمانه العميق بضرورة ارتباط الإيمان بالعمل ودأبه على لفت النظر إلى شمولية الإسلام باحتوائه على أدلة العقول وما يغذي أرباب القلوب وأهل الإرادات.

وقد فهم المؤلف مكانة «الجهاد» في الإسلام من اطلاعه على مؤلفات ابن تيمية.

ويرى شيخ الإسلام أن الجهاد مطلوب في كل الأزمنة، استنادًا إلى قوله تعالى:

---

(١) لاووست: النظريات السياسية والاجتماعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١ ص ١٥٣ دار الأنصار ١٣٩٧هـ - ١٩٧٦م.

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا والله على كل شيء قدير﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وفي تفسيره لهذه الآيات القرآنية، يرى أن الخطاب موجه لكل الأزمنة وليس مخصوصًا بزمن الرسول ﷺ، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى أنه من نكث عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد. ففي آية أخرى: **﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** [محمد: ٣٨] فقد أخبر الله تعالى أنه من يتول عن الجهاد بنفسه أو عن الإنفاق في سبيل الله يستبدل به [(١)].

ويصف ابن تيمية حال المتولي عن الجهاد بالجبان البخيل، يستبدل الله به من ينصر الإسلام وينفق فيه. وإن حياة الشيخ وجهاده المتواصل لتثبت أنه من علماء المسلمين الذين التقى عندهم العلم بالعمل.

بهذه النظرة استطاع أن يميز بين الأصول الإسلامية والطارئ على المسلمين من أثر الديانات والثقافات الأخرى، فنراه يسمي بعض المتصوفة (موسوية المحمدية) أو(عيسوية المحمدية) لبيان صور التشابه مع اليهودية أوالنصرانية، كما يرى أيضًا في العباد الذين يتكلفون المشقة والتعب تشابها مع زهاد الصابئة والهنود وغيرهم بصفة عامة.

وأصبح الانتقال بعد ذلك ضروريًا لبيان مدى الاختلاف مع نظريات الأوائل إذا بحثنا التصوف في صوره المختلفة- أي: الحلول عن الحلاج - ووحدة الوجود عند ابن عربي، ثم بيان أوجه النقد الذي وجهه الشيخ السلفي للإمام أبي حامد الغزالي وذلك وفقًا للترتيب الآتي:

---

(١) ينظر الفتاوى ج ١٨ ص ٣٠١ - ٣٠٢ ط. الرياض.

(أ) الحلاج:

لم يكن الحلاج أول من نادى بفكرة الحلول، إذ سبقه إليها فرقة السبئية التي قالت بأن عليًا صار إلهًا بحلول روح الإله فيه.

ويتضح مذهب الحلاج إذا رجعنا إلى كتاب (الطواسين) من تأليفه، حيث يذكر فيه بالنص أفكار الحلول التي يلبسها أثوابًا من الرموز، فيقول مثلا: «يا أيها الظان، لا تحب أني (أنا) الآن، أو تكون، إن كنت تفهم فافهم ما صحت هذه المعاني لأحد سوى أحمد».

ويفصح عن نواياه في نص آخر يذكر فيه أن (الحقيقة خليقة، دع الحقيقة لتكون أنت هو، أو أنت من حيث الحقيقة).

وخطى خطوة أخرى أبعد من ذلك، وكانت من أسباب حتفه، إذ هدم أحد أركان الإسلام -أي الحج- فزعم أن من بنى بيتًا وصام أيامًا، ثم طاف حوله عريانًا أغناه عن الحج.

ثم إنه كان من دعاة الباطنية القرامطة، كما تشير إلى ذلك المراجع التاريخية، فضلا عن محاولته تفنيد القرآن وتصريحه إمكانه الإتيان بمثله، كما نقل عن الملكي أحد المعاصرين له.

ولذا فقد قتل باجتهاد فقهي -كما يرى ابن تيمية- بسبب ثبوت تعطيله للحج أحد أركان الإسلام الأساسية.

(ب) ابن عربي:

قام مذهب وحدة الوجود عند ابن عربي على أساس أن العالم كله بمثابة المرآة القابلة للصور، فالخلق عنده عبارة عن فيض دائم، ولكن لا يفسر الأثنينية في الخلق فإنه جعل العالم يفتقر إلى الحق في وجوده؛ لأنه يسري في الموجودات بالصورة، وبالمثل فإن الحق مفتقر إلى الأعيان الثابتة، وهي أشبه بالمثل الأفلاطونية؛ فيقول:

الرب حــق والعبــد حــق   يا ليت شعري من المكلف؟

إن قلت عبــد فــذاك ميت   أو قلــت رب، أنى يكلف؟

ويلزم من فكرة ابن عربي، أن عبادة قوم موسى للعجل هي عبادة الله أيضًا!! كما يساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله!!

ومضى في هذا التسلسل، فأعلن أن فرعون مات طاهرًا متطهرًا ليس فيه شيء من الخبث، وهو قول لم يسبقه إليه أحد من أهل القبلة كما يذكر شيخ الإسلام.

ومن شطحات ابن عربي المنحرفة أيضًا -تعريفه للولاية بأنها الفلك المحيط العام، ولذا لم تنقطع، ولها الإنباء العام، بينما انقطعت نبوة التشريع والرسالة.

أي أنه يفضل الولي على النبي، ولكنه لم يشأ التصريح بهذا الاعتقاد، فأخذ يغلفه في رداء التأويل لمعرفته بوقع هذا الإدعاء على نفوس المسلمين، ولذا فإن أتباعه يصارحون العامة أولا بأن ولاية النبي أفضل من نبوته، ثم يتدرجون بعدها للقول بأن الولاية باقية حتى قيام الساعة وتلك الولاية بعينها هي التي كانت للرسول ﷺ هي باقية في أمته، فتارة يقولون في كل زمان لشخص، وتارة يقولون هي لخاتم الأولياء.

ويتصدى ابن تيمية لهذا التأويل المنحرف، فيوضح أن كلمة (خاتم الأولياء) لا حقيقة لها وكل ما هناك أن الحكيم الترمذي أخطأ في ترديدها، فاستغلها هؤلاء وحرفوها، كما يؤكد أن الولاية القائمة بالرسول ﷺ خاصة به لم تنتقل إلى أحد بعده.

وترتب على تصور الوجود في مذهب ابن عربي نتائج هادمة للدين والأخلاق، إذ نشأت عنه جبرية صارمة، فامتنعت التفرقة بين الخير والشر، والتمييز بين الثواب والعقاب، وسقطت قيمة الإلزام الخلقي.

أتعجب بعد ذلك من استهداف المذهب لأعنف نقد وجهه إليه شيخ الإسلام؟ إنه يرى أن هذه الجبرية التي اعتنقها الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، وتلونت بها أغلب مذاهب الصوفية، أدت إلى اندحار الشريعة وظهور التتار.

ولاشك أن هذا الرأي ينم عن ثاقب نظر الشيخ، أثبت فيه ضرورة النظر إلى الأفكار والنظريات بما تسفر عنه من نتائج وآثار أيضًا، لأن تمسك الصوفية بالنظرية الجبرية -وهي مخالفة في جوهرها للحقيقة القرآنية -أدت إلى انحسار الموجة الحضارية للمسلمين، وقعدوا عن الجهاد، فتكالبت الأمم عليهم.

(ج) الغزالي:

ويختلف موقف ابن تيمية من الغزالي من حيث شدة النقد واختلاف معايره

ذلك لأن أفكار الغزالي في مجال نقده الفلسفة وعلم الكلام حظيت ببعض الموافقة عندما يرى شيخ الإسلام توافقها مع العقيدة الصحيحة، ونحن نعلم أن الغزالي تنبه إلى انحرافات الفلسفة اليونانية وأثرها على بعض الفلاسفة في الإسلام، لا سيما عندما تأولوا مسائل قدم العالم وإنكار علم الله تعالى بالجزئيات، وإنكار حشر الأجساد، وقد خالفوا فيها الحقائق التي أوردها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما أن الغزالي رأى خطورة الأفكار الباطنية من غلاة الشيعة، إذ عانى العالم الإسلامي من آثار حركاتهم الخبيثة المعادية للعقيدة الإسلامية فهي ليست مجرد تفسير أو تأويل عن صدق وإخلاص في محاولة البحث عن الحقيقة ولكنها حركة تضمر الكراهية والحقد، وتدفعها مؤامرات خفية، وربما حركتها الأصابع اليهودية التي حركت عبد الله بن سبأ، وظلت تعمل في الخفاء إلى يومنا هذا، أما نقده للمتكلمين، فبالرغم من نشأة الغزالي في بيئة كلامية وتلمذته على إمام الحرمين الجويني، فإنه كان محقًا في شجب محاولات المتكلمين التي هدمت أكثر ما أقامت، وزعزعت العقائد أكثر مما رسختها.

وكان الغزالي مخلصًا في اختياره لطريق التصوف، لأنه نشأ كما قلنا في بيئة لم تعرف الحديث، وغاب عنه في تقسيمه الفرق إلى ذكر أهل السنة والجماعة دليل إخلاصه أنه وجَّه سهام نقده إلى المنحرفين من الصوفية كالحلاج وأصحاب دعوى سقوط التكاليف الشرعية.

أما عن أفكاره الفلسفية التي تأثر فيها بأفلاطون وغيره من فلاسفة الإشراق فقد ظهرت رغمًا عنه في بعض التصورات التي رأى فيها ابن تيمية أفكارًا لفلاسفة ألبسها الغزالي ثوبًا إسلاميًا بسبب عكوف الغزالي طويلاً على رسائل إخوان الصفا فوصفه القاضي ابن العربي بأنه ((دخل جوف الفلاسفة فلم يخرج منه)) وهي كلمة حق.

وفصل ابن تيمية في مؤلفاته تفصيلا طويلاً التفسيرات الخاطئة التي ذهب إليها الغزالي عندما اقحم على الإسلام أفكار بعض فلاسفة اليونان، ويرتفع الشيخ السلفي بتفسيراته، ويعلو بالفكر الإسلامي الخالص بمستوى القرآن والسنة منكرًا الإنتاج الفلسفي لكافة الفلاسفة كالكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم معلنًا فشلهم في عملية التوفيق أو التلفيق بين القرآن وبين العناصر السلفية التي استمدوا من الإغريق،

مؤكدًا أن القرآن الحكيم نسيج وحده، فلا ينبغي السير في ركاب الزاعمين القدرة على تفسيره تفسيرًا عقليا -كالمعتزلة الذين يقدمون ما يظنونه أدلة عقلية على الأدلة الشرعية -أو محاولة إقحام الفلسفة على القرآن، لأنه كلام الله عز وجل، بينما الفلسفة ما هي إلا موقف تأملي يختلط فيه الحق بالخيال لمحاولة فهم الوجود والبحث في وسائل المعرفة الإنسانية أو غير ذلك من ألوان التفسير الظنية التي يحاولها الفلاسفة منذ أقدم العصور فخالفوا بها غالبًا حقائق الوحي لا سيما في أمهات المسائل العقيدية وهي التوحيد والرسالة والبعث [1].

ومع هذا، فإن ابن تيمية كان رقيقا في نقده للغزالي، وكثيرا ما نراه يدافع عنه لإخلاصه، كما أعجبته بعض فصول كتاب (إحياء علوم الدين) التي عنا فيها الغزالي بقواعد السلوك الأخلاقي في الإسلام كفصول (المهلكات والمنجيات) مثلا ويجد له المبررات لأنه لم ينشأ بين محدثين، ولم يتلق الحديث عن أصحابه -كما سنرى في تقييمه لآرائه ومؤلفاته.

وأخيرًا - يستخلص من تشوق الغزالي للحديث وطلبه إياه في نهاية حياته دليلا ثانيًا يدعم إخلاصه في طلب الحقيقة إذ أنه لم يقنع -أي الغزالي- فيما يبدو لنا من آثار ومؤلفاته، أن المناهج الكلامية والفلسفية والصوفية كلها ليست صالحة لإصابة الهدف ومعرفة الحق -إذا افتقدت السنة الصحيحة- وهي الدعامة الثانية للإسلام المفسرة للكتاب والدالة على الطريق القويم في العقائد والعبادات والأخلاق ومعرفة الحقائق الغيبية التي أعيت كافة مذاهب الفكر الإنساني عن التوصل إليها بطريق العقل وحده. وهو أعجز من أن يصل إليها بلا سند من الشرع.

تقييم ابن تيمية لآراء الغزالي ومؤلفاته:

يرى شيخ الإسلام أن الإمام الغزالي استخدم العبارات الإسلامية النبوية في التعبير عن مقاصد الفلاسفة.

وبمنهج تحليلي لمضمون كتبه يؤصل نظرياته وينقدها، فيرجع علم المعاملة

---

(١) ينظر نقد الفكر الفلسفي قديمًا وحديثًا بكتابنا (مناهج البحث في العلوم الإنسانية) ط دار الدعوة بالإسكندرية.

والأمر والنهي إلى الصوفية والفقهاء، وعلم المكاشفة تتعدد مصادره، فتارة يسلك مسلك الفلاسفة، وتارة المتكلمين الجهمية وتارة أهل الحديث وتارة يطعن على هؤلاء ويذكر أقوالاً مغايرة.

ثم يفصل ذلك فيقول: (وأبو حامد مادته الكلامية من كلام شيخه- يقصد الجويني إمام الحرمين- في الإرشاد والشامل ونحوها مضمومًا إلى ما تلقاه من القاضي أبي بكر الباقلاني لكنه في أصول الفقه سلك في الغالب مذهب ابن الباقلاني مذهب الواقفة وتصويب المجتهدين، وأما في الكلام فطريقته طريقة شيخه القاضي أبي بكر، وشيخه في أصول الفقه يميل إلى مذهب الشافعي وطريقة الفقهاء).

ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا، ولهذا يقال أبو حامد أمرضه (الشفاء)، ومن كلام أصحاب رسائل الصفا ورسائل أبي حيان التوحيدي ونحو ذلك..

وأما في التصوف وهو أجل علومه وبه نبل، فأكثر مادته، من كلام الشيخ أبي طالب المكي الذي يذكره في المنجيات في الصبر والشكر والرجاء والخوف والمحبة والإخلاص، فإن عامته مأخوذة من كلام أبي طالب. لكن أبا طالب أسد وأعلى، وما يذكره في ربع المهلكات فأخذ غالبه من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية كالذي يذكره في ذم الحسد والعجب والفخر والرياء والكبر ونحو ذلك.

وله موقفه أيضًا عند مناقشته بمضمون الكتب المشكوك في نسبتها للغزالي مثل (مشكاة الأنوار) لأنه على طريقة الفلاسفة، وحرص ابن تيمية على نقدها بسبب مخالفة مضمونها للكتاب والسنة، ويرى أن الغزالي مات على خير أحواله طالبا الحديث في الصحيحين.

وعندما سئل عن «إحياء علوم الدين» فأجاب بأنه تبع كتاب «قوت القلوب» فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك. ولكن أبا طالب صاحب كتاب «قوت القلوب» أعلم بالحديث والأثر وكلام علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقًا، وأبعد عن البدعة، على أن في (قوت القلوب) أحاديث موضوعة وضعيفة وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في ((الإحياء)) من الكلام في المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ومنه ما هو متنازع فيه.

و((الإحياء)) فيه فوائد كثيرة لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنـــزلة من أخذ عدوًا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين. وقد أنكر أئمة الدين على ((أبي حامد)) هذا في كتبه وقالوا: أمرضه الشفاء، يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يريد منه: فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه.

وفي موضع آخر يزيد الأمر إيضاحًا فيذكر أن في الإحياء أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة، فإن مادة مصنفه في الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن مادة ضعيفة، وأجود ما له من المواد المادة الصوفية، ولو سلك فيها مسلك الصوفية أهل العلم بالآثار النبوية واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين لحصل مطلوبه ونال مقصوده، لكنه في آخر عمره سلك هذا السبيل، وأحسن ما في كتابه، أو من أحسن ما فيه ما يأخذه من كتاب أبي طالب في مقامات العارفين ونحو ذلك، فإن أبا طالب أخبر بذوق الصوفية حالاً وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعًا وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر [1].

ومن الميسور أن نلاحظ أيضًا أن القواعد والأصول التي وضعها شيخ الإسلام لم تجعله ينحني أمام أحد -علميًا أو أخلاقيًا أو مذهبيًا- لأن معرفة الحق هي الأولى، وبيان الخطأ بميزان الحق والعدل ينبغي أن يكون هو المقياس كائنًا من كان صاحبه. فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ. وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية: (فالسالك

(١) انظر: بغية المرتاد ص ١٠ و ١٩ و ١٠٤و ١٤، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ ص ٥٥١- ٥٥٢- ط الرياض، شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٢٨ ط الكردي ١٣٢٩ هـــ.

طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة وإلا كان ضالا عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه. والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجرًا، ضالاً عن الطريق. فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم بهذه القاعدة وقف ابن تيمية لينقد ألمع الأسماء المنتمية لأهل السنة من الصوفية كالإمام الغزالي (١).

وبعد، فإننا نخشى أن يطول بنا الحديث ويخرج عن العرض، إذ أننا هنا نجمل مكتفين بالإشارات العامة مرجئين ذلك إلى كتبنا التالية (٢).

ولذا فإننا لن نتابع الاتجاه السلفي منذ ابن تيمية إلى العصر الحديث، فمن المعروف، أنه كان معارضًا للتصوف وما زال إلى الآن، وإذا كان موقف شيخ الإسلام يتسم بالوسطية -ونعني بذلك موافقته على جانب من التصوف دون آخر، أي: المتفق مع الكتاب والسنة دون المخالف لهما فإننا في العصر الحديث نجابه تغييرًا حاسمًا لدى علماء السلف، بإنكارهم التام للتصوف في شتى أشكاله وصوره فما هذا الرفض والإنكار؟

فبالرغم من حرص السلفيين المعاصرين على متابعة ابن تيمية في منهجه واجتهاداته، فقد أخذوا موقفًا مستقلاً تمليه عليهم العوامل الطارئة على المجتمعات الإسلامية، حيث ازدادت مظاهر البدع، واستغل التصوف كوسيلة لمجابهة الحركات السلفية المعاصرة، وهنا عدة أسئلة، تشكل الإجابة عليها عوامل جديدة ينبغي أخذها في الاعتبار، ولم تكن موجودة في عصر شيخ الإسلام.

أول هذه الأسئلة: ما سر اهتمام دوائر الاستشراق في المجال العلمي الأكاديمي بالتصوف في الإسلام بعامة والاتجاهات المنحرفة بخاصة؟ وثانيهما: ما سبب التعايش السلمي -لو صح التعبير- بين مشايخ الطرق الصوفية والأنظمة الاستعمارية إلا فيما ندر؟ ولا بد من التوقف برهة لنستخلص مغزى تحذير ماسينيون عند تقويمه

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢١٩ - ٢١٠ ط رشيد رضا ١٣٤١هـ.

(٢) ينظر كتابنا: ابن تيمية والتصوف -دار الدعوة بالإسكندرية- والتصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث.

للحركات الإسلامية في الجزائر وشمال إفريقيا من التيار الفلسفي.

وثالث الأسئلة: لم انصب جام غضب الغرب على شيوخ السلف؟ وبالعكس نلاحظ معاملتهم الرقيقة للشخصيات القلقة في الإسلام، ونكاد نقول المادحة المغرقة في المدح لأمثال الحلاج، وابن عربي، وابن سينا، وغيرهم في مجال الفلسفة وعلم الكلام والتصوف؟

وتشكل الإجابة على هذه الأسئلة جميعًا العامل الجديد الذي أضافه نقاد المدرسة السلفية في العصر الحديث للتصوف، وينصب على سلبيته وجبرية أتباعه وترويجهم للبدع، وحسن ظن شيوخه بالقوى المعادية، ولا نقول علاقات بعضهم المريبة بالاستعمار الغربي وسلطاته، بينما يظن أغلب أتباعهم وهم عادة أبرياء ويحسنون الظن، أنهم استأثروا بالجانب العاطفي من الإسلام الذي يغذي الروح والوجدان في الإنسان، للوقوف في وجه الحضارة المادية الطاغية الواردة من الغرب، ويكفي القول لهؤلاء: هل يحتاج الأمر إلى اتخاذ طريق التصوف؟ إن معنى ذلك أن الإسلام جاء -والعياذ بالله- ناقصًا لهذا الجانب فجاءوا فأتموا، وكل مسلم مخلص يعرف خطأ هذا الزعم، فالإسلام يعالج الإنسان كوحدة نفسية جسمية، مقرًا لجانبيه المادي والروحي معًا، وأي تشخيص وعلاج لجانب دون آخر، يخل بالنظرية والتطبيق جميعًا.

وبتجرد تام، نفترض جدلا- مخالفين بذلك كافة الأدلة والبراهين التي قدمها المعارضون - نفترض جدلا خلو التصوف من أية عناصر أجنبية.

ونمضي فنقول: إنه يعبر عن الجانب الوجداني العاطفي، أو السلوكي الأخلاقي، فإنه بهذا المفهوم يقتطع جانبًا واحدًا من الإسلام، والإسلام يتصف بالشمول والتكامل، ولذا إذا دخل في حلبة النـــزاع مع الفكر الفلسفي الغربي، أو النظريات الاجتماعية السياسية والاقتصادية التي تطالعنا ليل نهار، وتغزونا في عقر دارنا، فسرعان ما سينسحب عاجزًا عن المقاومة مهما ادعى أصحابه أنهم إيجابيون وأهل جهاد، لأن سياق المذهب الصوفي يؤدي حتمًا إلى العجز عن مواجهة أفكار وآراء تدعي أنها تقدم حلولاً لمشاكل الإنسان الحالية والمستقبلة.

فهل يستطيع التصوف -حتى ولو خلا من روافد البدع- أن يجابه التيار العاتي

لفلسفات منتشرة بأجنحتها على العالم كله، كالماركسية والوجودية والبرجماتية مثلا؟

أما النـــزاع الناشب بين هذه الأنظمة والمسيحية فيرجع لأسباب يعرفها المؤرخون، ولا ننسى العبارة المشهورة التي أطلقها كارل ماركس بقوله: «إن الدين أفيون الشعوب»، وفي مخيلته صكوك الغفران، ووعود رجال الكنيسة لأتباعهم بالآخرة مقابل إهمال هذه الدنيا، وهذا التصور مطابق تمامًا للنظرة الصوفية أيا كان دين صاحبها، فلليهودية تصوف، وللمسيحية تصوف وللبوذية تصوف !!

ولكن الإسلام من واقع النظرة الصحيحة المستمدة من مصادره ومساره التاريخي الذي أقام حضارة وأنار الإنسانية طوال قرون طويلة، هوالخصم القوي في الميدان، فإنه لا يدعو إلى الفرار من الحياة ليلتقي مع الإنسان في النعيم الأخروي، ولكنه يتسم بالواقعية، فلا يفر ولا يجعل الإنسان رافضًا لواجباته ومسئولياته في هذه الحياة الأولى، بل يتدخل في وضع أنظمة حياته في فروع الحياة كلها، كبيرها وصغيرها -ويجابه- بل ويتحدى- أية أنظمة بشرية تدعي أنها فرغت من وضع الخطة الكاملة لإسعاد البشرية، لأن أي دارس محايد يحترم عقله، ويستخدم موازين العلم في البحث والدراسة يرى أن العالم يعاني من أزمات تلو الأزمات، لا لسبب، إلا لأنه حاد عن الطريق الصحيح لإسعاده، وهو الطريق الذي رسمه له خالقه عز وجل.

تفسير ابن تيمية للتاريخ وتحذيره للمسلمين:

كثيرًا ما يتوقف الباحث عند النظريات العميقة لابن تيمية في تاريخ الأمم السالفة، وفي نظرة نابعة من مقارنة بين الأمم أصحاب الرسالات وغيرها التي لم يبعث فيها أنبياء، وبلغتنا المعاصرة، وفي ضوء دراستنا لفلسفة التاريخ، قد لا يصبح من قبيل التسرع في الحكم، القول بأنه صاحب نظرة تفيد أن التاريخ سجل لأعمال الأنبياء والرسل، وأن الحضارات من صنعهم، وبقدر الاقتراب أو الابتعاد من تنفيذ الرسالات السماوية التي نيطت بهم، تنهض الحضارات الإنسانية أوتندثر، بل تتحقق سعادة البشر أو تشقى (والله سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء في السور

المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاوة من خالفه) [١] وتوجه الله -عز وجل- للمكذبين بالرسل بمثل قوله: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج: ٤٦].

والأمم- حسب تقسيمه -نوعان، نوع لهم كتاب منـــزل من عند الله تعالى كاليهود والنصارى، ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ وقد بعث إبراهيم عليه السلام إلى الروم الصابئة الذين عاشوا بمقدونيا وغيرها، فإن من آثار الصابئة بحران الهياكل التي للعلة الأولى والعقل والنفس والكواكب، فإن هذا ليس من دين اليهود والنصارى ولا فارس والروم المتنصرة [٢]، وكثيرًا ما يرى أن هناك علاقة بين فلاسفة اليونان وبين عبدة الكواكب لأنهم يعظمون الأفلاك، كماسمحت له قراءاته في التاريخ بتصحيح الخطأ الذي كان شائعًا عن إسكندر ذي القرنين الوارد بالقرآن الحكيم، إذ ظن البعض أنه اسكندر المقدوني تلميذ أرسطوطاليس.

إن مسار التاريخ يمضي على أقدام الأنبياء والرسل، فهم رسل الله إلى البشرية خصهم بآيات ودلائل ومعجزات، ويسر معرفتهم علىخلقه، بل إن طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الأديان خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء، مثال ذلك من رأى نحو سيبويه، وطب أبقراط، وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور، ومن هنا قرب الله تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم [٣].

كما يحدثنا القرآن أن كل أمة جاءها رسول، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل**

---

(١) النبوات ص ٢٧.

(٢) الجواب الصحيح: ليدن ج ٤ ص ٩٩ والاستغاثة ج ٢ ص ٢٠٤- ٣٠٥.

(٣) النبوات ص ٢٦- ٢٧.

أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل: ٣٦]، **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا﴾** [فاطر: ٢٤] **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾** [فاطر: ٢٤] والأنبياء وسائط [١] بين الله وعباده في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده [٢]، وقد بعثوا صلوات الله عليهم بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فأصبح أتباع الرسل أكمل الناس، وعلى العكس من ذلك، فإن المكذبين للرسل يتبعون المفاسد ويعطلون المصالح.

ويقرر ابن تيمية أن السعادة إذن في إتباع الأنبياء والرسل ومناهجهم أدعى إلى الإقناع ومخاطبة الكافة، ودليله على ذلك أن البشرية لم تنقطع صلتها بالأنبياء على طول تاريخها، مع تواتر أخبارها، فصار ظهور الأنبياء مما تؤرخ به الحوادث في العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة، فإن التاريخ يكون الحادث المشهور الذي يشترك الناس فيه ليعرفوا به كم مضى قبله وبعده [٣].

أما إذا قارن بين الأنبياء والفلاسفة فإنه يرى أن منهج الأنبياء قائم على أمر البشر بما فيه صلاحهم ونهيهم عما فيه فسادهم، سالكين في ذلك أقرب الطرق فلا يشغلوهم بالكلام في أسباب الكائنات كما تفعل الفلاسفة، فإن منهج هؤلاء كثير التعب قليل الفائدة، أو موجب الضرر، ويضرب مثلا على ذلك فيذكر أن مثل النبي ﷺ مثل طبيب زار مريضًا فرأى مرضه فدله على شرب دواء معين وأمره بنظام خاص في الطعام والشراب فأطاعه المريض فشفي، ولكن الفيلسوف يسلك طرقًا طويلة، إذ يتكلم في سبب المرض وصفته، وذمه، ما أوجبه ولو سأله المريض عما يشفيه، عجز عن الإجابة.

وبمثل هذه القاعدة، ينتقل إلى النظر إلى تاريخ المسلمين خاصة، فيبرهن ابن تيمية على أن اتباع محمد ﷺ أدعى للعلم والتوحيد والسعادة. ويعني بذلك المقارنة

---

(١) النبوات ص ٣٥.

(٢) طريق الوصول ص ١٤٠.

(٣) نقض المنطق: ص ١٥.

بين الصحابة والتابعين لهم، وبين المتكلمين وفلاسفة المسلمين، ويقف أمام الأحداث التاريخية فيعللها بسبب مخالفة الأصول الإسلامية في القرآن والحديث، فيرى أن انقراض دولة بني أمية كانت بسبب الجعد بن درهم والجهم بن صفوان، إلى جانب أسباب أخرى أوجبت إدبارها [(١)].

وربما يعني بذلك أن العقيدة عندما خمدت في النفوس وفقدت فاعليتها عما كانت لدى المسلمين الأوائل، ظهر الضعف في الأمة، إذ تحولت العقيدة الراسخة من قوة محركة ناجمة عن إقناع عقلي ويقين قلبي، إلى مجرد أفكار جلية تتطاول إلى الحديث عن الذات الإلهية، ففقدت القلوب الهيبة. ولما تضاءلت العقيدة في النفوس وأصابها الوهن، وتحولت إلى مناقشات وجدل كلامي وفلسفي، وظهر النفاق والبدع والفجور، هان المسلمون على أعدائهم فغزا الصليبيون أراضي الإسلام واستولوا على بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة[(٢)] وكذلك بالنسبة لحروب التتار، حتى رأى البعض أن هولاكو ملك التتار بمثابة بختنصر لبني إسرائيل، مستندين إلى تفسير سورة بني إسرائيل التي توعدهم الله تعالى فيها إذا أفسدوا في الأرض [(٣)].

ويمضي شيخ الإسلام في تفسير الأحداث التاريخية، وفقًا لهذه القاعدة. فيذكر أن محنة القرآن كانت بداية لتشجيع القرامطة الباطنية في إظهار آرائهم بعد ترجمة كتب الفلاسفة، ولما رأت الفلاسفة أن القول المنسوب إلى الرسول ﷺ وأهل بيته هو هذا القول الذي يقوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم، ورأوا أن هذا القول الذي يقولونه فاسد من جهة العقل، طمعوا في تغيير الملة، فمنهم من أظهر إنكار الصانع، وأظهر الكفر الصريح، وقاتلوا المسلمين، وأخذ قرامطة البحرين الحجر الأسود [(٤)]، ولم يقتصر الأمر على انتصار الخصوم في مجال الحروب فحسب، بل اشتد الخطب إلى مجال الفكر والعقيدة لأن فتح باب القياس الفاسد في العقليات بواسطة المتكلمين،

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٢٢.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠.

(٣) نفس المصدر ص ١٢٠- ١٢١.

(٤) شرح حديث النـــزول ص ١٧٣ - منشورات المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـــ - ١٩٦٩م.

شجع الزنادقة على المضي في تنفيذ مخططاتهم، فانتهى بالقرامطة إلى إبطال الشرائع المعلومة كلها، كما قال لهم رئيسهم بالشام، لقد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة[1].

وقبل الانتهاء من هذه اللمحة لموقف ابن تيمية من التاريخ، فإننا نعجب من تفاؤله بينما كان في وسط ظروف حالكة الظلام، ومع هذا فإنه يقدم تفسيرًا للحديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» فالتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذلك هو غربة الإسلام، ثم يحاول إدخال الطمأنينة في القلوب (وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ، قال تعالى: ﴿**فإن كنت في شك مما أنـــزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك**﴾ [يونس: ٩٤] [2] (ولكنه في الوقت نفسه يحذر من مخالفة الأوامر الإلهية، لأن الذنوب تورث الهزائم والكوارث للمسلمين كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد، ويعلل المقصود بقصص بني إسرائيل في القرآن اتخاذهم عبرة لنا، مستشهدًا ببعض السلف القائلين: (إن بني إسرائيل ذهبوا، وإنما يعني أنتم)، ومن الأمثال السائرة (إياك أعني واسمعي يا جارة) وهكذا يعود بنا إلى نفس الأصل الذي يفسر به التاريخ.

حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية

يبدو العنوان لأول وهلة لافتًا للنظر. فربما سأل سائل: وهل نحن في حاجة كمسلمين لمعرفة العقيدة على صفحات الكتب ونحن نشهد شهادة التوحيد ونلتزم بأداء العبادات؟

وإجابتي على هذا السؤال أننا حقًا نعرف عقيدتنا كأصول وقواعد عامة متفرقة بحسب ما تلقيناه من دروس في (الدين) أو ما استمعنا إليه من خطب ومحاضرات أو قرأناه في كتب ومقالات.

كل هذا حسن، ولكن قارنوا بين هذه المعلومات المتفرقة التي نحصلها

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ (وينظر ص ١٦٣و ١٦٥).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٨ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ط الرياض.

باجتهاداتنا الخاصة، وبين (كم) معلوماتنا الثقافية في العلوم والآداب والفنون والصناعات.

لقد برعنا في تحصيل العلوم والمعارف بكفاءة واقتدار. وظهر منا النابغون في المهن والصناعات والفنون.

ولكن الظاهرة العامة هي ضعف التحصيل في علوم الدين -لا سيما العقيدة والفقه- بينما تشكل العقيدة قلب الأمة وتحدد ملامحها وتبرز معالم حضارتها.

وربما كان للبعض العذر لأنه ليس مجال تخصصه أي معرفة أركان العقيدة الإسلامية وأصولها، وهي نقطة ضعف خطيرة يترتب عليها اهتزاز تصورنا للحياة والوجود والمصير وما ينجم عنه من آثار في أعمالنا وقيمنا وعلاقتنا مع بعضنا البعض كمجتمعات إسلامية أوعلاقتنا بغيرنا من دول العالم.

إننا في حاجة إلى بناء الإنسان على أساس (عقائدي) إسلامي لا على أساس وطني أو قومي مبني على تقليد ومحاكاة لحضارة أخرى [1].

وإذا أردتم الدليل فادرسوا تاريخنا وضعوا أعينكم على العلاقة المضطردة بين معرفة أجدادنا واستمساكهم بعقيدتهم وبين ازدهار حضارتهم، ثم تتبعوا سبل الاستعمار الغربي العسكري والثقافي كيف حقق أهدافه مستفيدًا من دروس حروبه الصليبية في العصور الوسطى، وجاءنا في العصر الحديث مزودًا بحصيلة تجاربه، حيث نجح في (هدم) و(تخريب) نسيج الإنسان المسلم وأحل محله إنسانًا غريبًا عن الإسلام والإسلام غريب عليه.

ومالم نعالج التخريب الذي أحدثه الاستعمار داخل نفوسنا بأن نصحح عقيدتنا ونجعلها أساسًا للحركة والبناء الحضاري، ما لم نفعل ذلك فإننا كمن يحرث في البحر.

دور العقيدة في تاريخنا الفكري:

ويزداد الأمر وضوحًا ويصبح أكثر إقناعًا إذا تزودنا برؤية أحد عمالقة الفكر في العصر الحديث بآفاقه الواسعة الجامعة بين ثقافة العصر الفلسفية والحضارة

---

(١) ويحذر أيضًا التنويه بفكرة (توجيه الطاقات) لمالك بن نبي المشار إليها بالمقدمة.

الإنسانية بآدابها وفنونها وتواريخ الأمم.

لقد انتقل إلينا من الغرب رافضًا له ولحضارته مقبلا على الإسلام باقتناع وشوق ذلكم هو الفيلسوف المسلم (رجاء جارودي) إنه في بحثه عن عوامل الانتشار العاصف للإسلام استبعد جارودي إرجاع انتصار المسلمين إلى عوامل خارجة كضعف أو انحلال الإمبراطوريات المهزومة (الرومانية) والفرس الساسانية والفيزيغوت الأسبانية [١]، ولكنه أرجع هذا الانتشار العاصف إلى أسباب عميقة تتصل بجوهر الإسلام وروحه (وفي رأس هذه الأسباب الإلحاح على إعلاء كلمة الله تعالى) إلى جانب أسباب أخرى منها تحرير المضطهدين في ظل مظالم الإمبراطوريات الآنفة سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا.

وفي أسبانيا بالذات، كان مثيرًا للعجب أن تنتصر فئة من سكان الحجاز وتنجح حفنة من البدو من أقاصي الجزيرة العربية في فرض لغتهم وعقيدتهم الإسلامية على خمسة عشر مليونًا في شبه قارة مساحتها ستمائة ألف كيلو متر.

وسرعان ما يزول العجب إذا أخذنا في الحسبان قوة العقيدة الإسلامية ووصول بعض القادة العرب وآخرهم عبد الرحمن.

ثم يأتي بعد ذلك التسامح مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأتباع زرادشت والهندوس أيضًا.

ودام الأمر كذلك يستبعد جارودي (القوة) ويصحح مفهوم المستشرق (ماكدونالد) عن (الجهاد) لأنه لا يعني (الحرب) فالحرب لفظة أخرى مستقلة، فالجهاد «جهد» مبذول في سبيل الله [٢].

---

(١) جارودي: ما يعد به الإسلام ص ٦٠ ترجمة قصي أتاسي - ميشيل واكيم دار الوثبة - دمشق سنة ١٩٨٢م.

(٢) نفسه ص ٦٥- ٦٦.

عقيدة الفرقة الناجية

والآن نلخص العقيدة كما فصلها شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)]، وكان ملتزمًا بمصطلحات عصره، وما جرت عليه الأقلام والألسنة بالمقارنة مع عقائد الفرق المنشقة من عقيدة أهل السنة والجماعة.

وبعد أن عرفنا أسماء هذه الفرق وعقائدها، سهل علينا الوقوف على العقيدة الصحيحة كما عرضها بالمنهج المقارن، وبعقلية تركيبية فذة بحيث عرض في بيان العقيدة بين التوحيد ومعرفة الله تعالى بصفاته وأفعاله وأسمائه الحسنى والإيمان بالآخرة وتفاصيل أحداثها وتعريف المسلم بما ينتظره منذ لحظات موته في قبره من نعيم أو عذاب.

إلى النظر إلى الصحابة وتقديرهم والدفاع عنهم.

ويختم العقيدة ببيان مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

قال في المقدمة:

«الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قرارا به وتوحيدًا وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا مزيدًا، أما بعد:

فهذا اعتقاد الفرق الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره. ومن الإيمان بالله والإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفؤ له فإنه سبحانه أعلم بنفسه، وأصدق قيلا، وأحسن حديثًا من خلقه. ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون. ولهذا قال

---

(١) وهي المسماة بالعقيدة الواسطية.

سبحانه ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين**﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

وبعد الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على صفات الله تعالى وأفعاله يقرر أن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما إن هذه الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في أفعال الله بين الجبرية والقدرية وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم.

وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية المعتزلة وبين المرجئة الجهمية وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج.. إلى أن يقول:

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منـــزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة. وأن هذا القرآن الذي أنـــزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره.

وفي فصل آخر يذكر أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبره به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه.

فأما الفتنة: فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل: من ربك وما القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: ربي الله والإسلام ديني ومحمد ﷺ نبيي.

وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته: فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة -إما نعيم وإما عذاب.

إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم الساعة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا، وتدنو منهم الشمس وتنصب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ويبين تفاصيل حساب الله تعالى للخلائق، والصراط المنصوب على متن جهنم وهو الجسر الذي بين الجنة والنار- يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، ثم يذكر شفاعات الرسول ﷺ، لأهل الموقف وأهل الجنة وفيمن استحق النار...

إلى غير ذلك وتفاصيلها مذكورة في الكتب المنـــزلة من السماء والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء عليهم السلام، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذاك ما يشفي وما يكفي، فمن ابتغاه وجده.

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره.

وفي فصل آخر يوضح أن من أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل. قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر.

أما موقفهم من أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم يقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم.. مع إقرارهم بأن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم.

إلى أن يقرر إمساكهم عما شجر بين الصحابة ويقولون أن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما هو زيد فيها ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون -إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منه إن صدر، وفي فصل آخر يقول (ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ - باطنًا وظاهرًا واتباع سبل الأولين من المهاجرين والأنصار).

كما يبين أيضًا أنهم سموا أهل الكتاب والسنة لاتباعهم هذين المصدرين، وسموا

أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة، والإجماع، [١] وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جمع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين.

ثم يذكر في النهاية قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدينون بالنصيحة للأمة.. ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**»، ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها ا. هـ.

---

(١) ويقول ابن كثير: وقد ضمنت لهم العصمة -عند اتفاقهم- من الخطأ كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٤ ط الشعب.



المبحث الثالث

قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي

معنى مصطلح السلف:

* القاعدة الأولى: تقديم الشرع على العقل.
* القاعدة الثانية: رفض التأويل الكلامي.
* القاعدة الثالثة: الاستدلال بالآيات القرآنية.

السلفية في العصر الحديث:

- الشمول
- التقدم لا الرجوع إلى الوراء.
- الأصالة لا التقليد.



معنى مصطلح السلف

لا بأس من إعادة التعريف بالسلف مرة أخرى توطئة لتوضيح قواعد المنهج عندهم، فالمراد تاريخيًا بالسلف الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى، فأصبح مذهب السلف علمًا على ما كان عليه هؤلاء، ومن تبعهم من الأئمة، كالأئمة الأربعة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل، دون من وصف بالبدعة كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والمعتزلة وغيرهم[١].

وظهر مصطلح «السلف» حيث دار النـــزاع حول أصول الدين بين الفرق الكلامية، ومحاولة الجميع الانتساب إلى السلف الصالح، فكان ينبغي ظهور قواعد واضحة للاتجاه السلفي تميزه عن مدعي الانتساب للسلفية، ويسترشد بها أيضًا للفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية:

القاعدة الأولى: تقديم الشرع على العقل:

أول هذه القواعد اتباع السلف الصالح في الفهم والتفسير، ففي الصفات الإلهية إثباتها بلا كيف، وفي المسائل الكلامية الأخرى، اتخاذ الأوائل قدوة في النظر والعمل، فالقرآن والحديث أولا، ثم الاقتداء بالصحابة لأن الوحي كان ينـــزل بين أظهرهم فكانوا أعلم بتأويله من أهل العصور التالية، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين، لم يفترقوا فيه، ولم يظهر فيه البدع والأهواء[٢].

ومنها تظهر السمة الغالبة على أصحاب المنهج السلفي، فهم أهل الحديث وحفاظه ورواته وعلماؤه المتبعون للآثار لأنها سبيل المؤمنين مستشهدين بقوله ﴿**ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَله ما تولى ونُصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥] فيتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدأون بالشرع ثم يخضعون العقل له، ومن ثم فإنهم يقدمون الرواية على الدراية، والنظر العقلي ولكنهم يدافعون عن أنفسهم بالقول إن العقل يتفق مع الشرع، وأن الأوائل كانوا أكثر فهما ودراية للشرع عن غيرهم (فالمعقول عندنا ما وافق هديهم والمجهول ما خالفهم ولا سبيل إلى معرفة هديهم

---

(١) أحمد بن حجر آل بو طامي آل بن علي (قاضي المحكمة الشرعية بقطر): العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية ص ١.

(٢) عقائد السلف ص ٣٠٩.

وطريقتهم إلا هذه الآثار) [(١)].

وتظهر أصول العقيدة لديهم في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، بل أمروها كما جاءت في كتاب الله أو على لسان رسوله ﷺ، وردوا علمها إلى قائلها[(٢)].

ولا بد أن نفهم من هذا السياق طريقتهم في إخضاع العقل للنص، لا العكس مخالفين بذلك منهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعًا له، مستدلين بما سبق أن استدل به شيخ الإسلام من قوله تعالى: ﴿**ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم**﴾ [الأحقاف: ٤] وقوله عز وجل: ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنـــزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾ [النساء: ٦١].

ففي تفسيره للآية الأولى يرى ابن تيمية أن الأثارة هي الرواية أو الإسناد.

وقد استدل بمثل هاتين الآيتين لأن هما من أنواع العبر ومن الدلالة على من يحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وعلى نفاقه، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة من بعض الطواغيت المشركين وأهل الكتاب [(٣)].

أليس هذا التأويل الذي يشكو منه ابن تيمية هو نفسه الذي يتخذه أرباب النظر العقلي المعاصرون، الذين يحاولون إخضاع الشريعة لمتطلبات العصر المتجددة.

وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام (محمد عبده) لجزء «عم» بهذه النظرة تأثيرًا واضحًا، وتفسير تلميذه الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربي لجزء «تبارك» حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافي مفهوم العقل وهو مبدأ خطر. فإطلاق كلمة «العقل» يراد الأمر إلى شيء غير واقعي ! فهناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان. وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى «مقرراته» وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه

(١) نقض المنطق ص ٣٠٩.

(٢) ابن تيمية: نقض المنطق ص ٢.

(٣) فتاوى ابن تيمية ج ١ ص ٣٨٣.

العقول الكثيرة، فإننا ننتهي إلى فوضى !»[١].

إن الاجتهاد الصحيح لا يضع أمام عينيه رأيًا أو نظامًا يلوي رقاب النصوص الإسلامية حتى يسوقها إليه. ولكنه يستوحي النصوص الإسلامية حكمها في هذه الآراء والنظم.

والفرق شاسع بينهما إذ أن إحداهما يسيطر على النصوص والثاني يخضع للنصوص أحدهما يبرر بالنصوص الإسلامية عوج الحياة، والآخر يقوم بنصوص الشريعة عوج الحياة.

وأصحاب الاتجاه التغريبي بالذات، يحكمون بهذه الوسيلة المعوجة آراء دخيلة في الدين، فيفسرونه في ضوء ما يذهب إليه مفكرو الغرب وفلاسفته[٢].

وهناك أيضًا دليل منطقي للبرهنة على ضرورة تقديم الشرع على العقل يستخلصه ابن تيمية بعد ضرب الأمثال، فيذكر أنه إذا حدث نزاع بين أصحاب المهن المختلفة كالحراثة والبناء والخياطة والسباحة وغير ذلك من الصناعات، احتكم المتنازعون إلى الأعلم منهم.

ومن المعلوم أن تفوق الرسول ﷺ على ذوي العقول[٣]، أعظم من تفوق أهل العلم المتخصصين بالمهن العلمية والعملية والعلوم العقلية الاجتهادية كالطب مثلا لسائر الناس، لأن من الناس من يمكنه تعلم تلك المهن العملية والعلمية كعلم المتخصصين فيها، ولكن لا يمكن من لم يجعله الله رسولا إلى الناس أن يصير بمنزلة من جعله الله رسولا إلى الناس.

فإذا تقرر أن النبوة لا تنال بالاجتهاد -كما هو مذهب أهل الملل- أو تنال عند ملاحدة الفلاسفة بالاكتساب وهي أصعب الأمور بالمقارنة بتعلم الصناعات والعلوم العقلية، ففي كلا الحالتين إذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء، ووجد في عقله ما يعارضه في خبره كان عقله يوجب عليه التسليم إلى من

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته -دار الشروق ص ٢٢، وننصح بمراجعة هذا الكتاب القيم بتوسع.

(٢) د.محمد حسين: اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر ص ٣٠ – ٣١.

(٣) ويلاحظ أن هذا ما دفع الأستاذ العقاد إلى كتابه (عبقرية محمد ﷺ) ولكن ينبغي التمييز بين (العبقرية) و(النبوة والرسالة).

هو أعلم منه وأن لا يقدم على قوله لعلمه إن عقله قاصر بالمقارنة به، وأنه أعلم بالله تعالى ولأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة والأطباء.

ثم يمضي ابن تيمية في ضرب المثال بالذهاب إلى طبيب -حتى لو كان يهوديًا- لأن عقل المريض يوجب الانقياد له لبراعته في مهنته، فيطيعه فيما يأمره به من تناول الأطعمة والأدوية أو الامتناع عن بعض الطعام والشراب، ويطيعه في تناول الدواء أو عملية جراحية مع ما في ذلك من الآلام والمكابدة، لعلمه بأن الطبيب أعلم منه، وأنه إذا صدقه ونفذ أوامره كان أقرب إلى الشفاء ومع علمه أيضًا بأن الأطباء يخطئون كثيرًا، وإن كثيرًا من الناس لا يشفى بما يصفه الأطباء، بل قد يموت البعض بسبب الأخطاء في التشخيص والعلاج ومع هذا تقبل أقوالهم وإن كان ظن المرضى واجتهادهم يخالف وصفهم للمرض وطرق علاجه.

ويتساءل ابن تيمية في النهاية: (فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم؟ والرسل صادقون لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب في معارضة له قط؟)[١].

القاعدة الثانية: رفض التأويل الكلامي:

فالتأويل عند المتكلمين بعامة يقتضي اتخاذ العقل أصلاً في التفسير مقدمًا على الشرع فإذا ظهر تعارض بينهما فينبغي تأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل. ولكن السلف على العكس -كما يذكر شيخ الإسلام- احتكموا إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مكتفين بها، فطوعوا المفاهيم العقلية لها، لأن العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضا أو صفة، ليس هو عينًا قائمة بنفسها كما يعتبره الفلاسفة[٢]، والعقل كما يرى الدكتور الغمراوي يعجز عن الإحاطة بالحقائق التي أوردها الدين «لأن الدين الصادر عن خالق الخلق وقد تناول جميع الفطرة: ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها بالإجمال فيما اقتضت الحكمة الإلهية

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج ١ ص ٨٢.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ج ٩ ص ٢٧٩.

إجماله، وبالتفصيل فيما اقتضت تفصيله والعقل الذي يمكن أن يحيط بالفطرة لم يخلقه الله بعد، وإذا عنينا به عقل المجموع، لا عقل الفرد، فإن العلم الإنساني الذي يحيط بكل شيء لم يوجد أبدًا، وما زالت الاكتشافات العلمية تمضي في طريقها لتبرهن على أنه مهما ازداد الإنسان علمًا، فإنه لن يصل إلى نهاية العلم أبدًا»[١].

وقد وقع اختيارنا على النص الأول الوارد عن ابن تيمية الذي حام حول الفكرة وظهر لنا من النص الثاني الحامل لرأي الدكتور الغمراوي، اتفاقهما التام رغم بعد الزمن بينهما.

فالأول من أهل القرن السابع/ الثامن الهجري، والثاني معاصر، ونستطيع أن نستشهد بمواقف متشابهة لبعض مفكري السلف، كابن حنبل والدارمي والبخاري وغيرهم فندرك الاتجاه الواحد الذي يربط بينهما جميعًا بالرغم من تغاير ظروف البيئة الثقافية والحضارية وتباين العصور والأزمنة، واختلاف الأدوار العقلية التي مرت بكل منهما وإذا شئنا التفصيل، فإن هناك عبارة ينبغي التوقف عندها لأنها تعبر لنا عن أحد قواعد المنهج. يقول ابن تيمية: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم.. »[٢].

وها نحن إزاء مواقف متشابهة تتصل بحلقات علماء السلف قديمًا وحديثًا فمنذ اضطروا لمجابهة المتكلمين، رأينا إمامًا في الحديث والفقه، وهو الإمام أحمد بن حنبل، يكتب للرد على الجهمية والمعتزلة المعاصرين له، وسمي كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة»، قال في مقدمته «الحمد لله الذي جعل في كل زمان، فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى» ويشرح موقف السلف من حيث اتخاذ القرآن ميزانًا لفهم الأصول الإسلامية فيستطرد قائلاً في وصفهم: (ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) ويعني بالمبطلين والجاهلين الذين أطلقوا عقال

(١) الغمراوي: الإسلام في عصر العلم ص ١٠٩.

(٢) ابن تيمية: رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٢٣.

الفتنة لأنهم تكلموا بالمتشابه من الكلام فخدعوا جهال الناس بما يشبهون عليهم[(١)].

كذلك اضطر البخاري إمام الحديث أيضًا لاستخدام نفس السلاح في مواجهة علماء الكلام، فأخرج لنا كتابه «خلق أفعال العباد»، لكي يصحح المفاهيم الخاطئة للجهمية والقدرية الذين أولوا القرآن وفسروه طبقًا لأهوائهم فأنبرى لبيان أسباب وقوعهم في الخطأ، لأن (أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه الذين لم يعرفوا المجاز في التحقيق، ولا الفعل من المفعول ولا الوصف من الصفة)[(٢)].

ونكتفي بإيراد هذه الشواهد الدالة على صدوع المفكرين في دائرة السلف لأمر الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾ [الحجرات: ١] ولهذا لم يعارض أحد منهم النصوص بمعقوله، فإن أراد معرفة شيء من الدين نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، وعلى العكس من ذلك المنهج يقف على الطرف الآخر أصحاب المنهج الكلامي الذين اعتمدوا على ما رأوه، ثم نظروا في الكتاب والسنة فإن وجدوا النصوص توافقه أخذوا بها، وإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا أو حرفوها تأويلاً[(٣)].

القاعدة الثالثة: الاستدلال بالآيات والبراهين القرآنية:

(١) الآيات:

للقرآن الحكيم طريقة في الاستدلال منها حث الإنسان على النظر في ملكوت السموات والأرض، وحضه على كشف أسرار مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأشاد بالعلم والعلماء، ولا يسع الدارس لتاريخ الفكر لدى المسلمين في العصور الأولى إلا الإقرار بأنهم اكتفوا بالقرآن الكريم، إلى جانب السنة، في اتخاذه دليلا هاديًا في كافة أمورهم، فاستغرقوا فيه تلاوة وحفظًا، وعكفوا على تفسيره ونفذوا أحكامه واستنبطوا من آياته قواعد النظر العقلي، واستمدوا منه حقائق عالم الغيب.

وما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التي خاض فيها الخائضون في العصور التالية -كما يرى شيخ الإسلام- إلا وكانت قد أوضحت في القرآن، فقد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الإلهية وصفاتها، ومسائل التوحيد

(١) ابن حنبل: الرد على الجهمية ص ٥٢.
(٢) البخاري: خلق أفعال العباد.
(٣) ابن تيمية: رسالة الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧.

والنبوات واليوم الآخر، الإنسان وبدء خلقه ومصيره وموقفه من الكون، الأمم السابقة ومواقفهم من أنبيائهم، الماضي السحيق وتاريخ الأمم، وعن حقائق عالم الغيب كالملائكة والجن، إلى غير ذلك من الموضوعات التي كانت -وستظل- مثار التساؤل والبحث في ميدان الفكر الإنساني.

والآيات القرآنية: كثيرة تجل عن الحصر، ولكننا نجتزئ الأمثلة هنا للإشارة إلى بعضها، مثل قوله تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنــزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿**وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون**﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

﴿**قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض**﴾ [إبراهيم: ١٠].

وجاء الرسول ﷺ مؤيدًا بالحجج العقلية كما قال تعالى: ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾ [الفرقان: ٣٣] فأخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلاجاء الله بالحق وجاءه من البيان والدليل، وضرب المثل بما هوأحسن تفسيرا وكشفًا وإيضاحًا للحق من قياسهم[1].

وتتعدد طرق القرآن العظيم في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله، فهو تارة يخاطب عقله ويقنعه بالمنطق، ويقدم له الدليل كقوله تعالى: ﴿**نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين**﴾ [الواقعة: ٥٧-٦٠].

وتتسم هذه الآيات كما يرى المتدبر إياها أنها تخاطب الإنسان بأسلوب باهر لا يقتصر على جفاف المنطق وقوانينه، ولكنه متدفق بالحيوية وضرب الأمثلة المستمدة من حياة الإنسان، وما يحيط به مهما اختلف جنسه أو بيئته أو عصره، بل إن جميع الأدلة المطروقة في علم الكلام وفي فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة في القرآن، ولكن بأسلوب

---

(١) ابن تيمية: نقض المنطق ص ٨٩.

يصلح لمخاطبة الخاصة والعامة كل بقدر طاقته كما يذكر الشاطبي[١].

وأيضًا فإن الآيات القرآنية تتضمن الأدلة والبراهين على ما يبين الحق، فهي آيــات من وجوه متعددة قال تعالى: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿**واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا**﴾ [الكهف: ٥٦]، ففرق بين الآيات الدالة على أنها دلائل الرب وتعلم بالعقل وبين النذر أي الأخبار عن استحقاق العصاة من العذاب أي أن الآيات تعلم دلالتها بالعقل، والأنبياء جاءوا بالآيات، ولهذا قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[الإسراء: ١٥] [٢].

وفي معنى الآية كما يذكر شيخ الإسلام ثلاثة أقوال: إحداها: أنها العلامة قال تعالى: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق**﴾ [الجاثية: ٦] فهي آية من آيات الله أي علامة من علامات ودلالة من أدلة الله سبحانه وتعالى وبيان من بيانه، وقيل: لأنها جماعة حروف من القرآن، والقول الثالث أنها سميت آية لأنها عجب، قال تعالى: ﴿**كانوا من آياتنا عجباً**﴾ [الكهف: ٩] فإن كانت الآيات علامات فمنها المألوف المعتاد ومنها الخارج عن المألوف المعتاد[٣].

وتدل آيات الله على أنها علامات ودلالات على الله -عز وجل- وعلى ما أراد، قال تعالى: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق**﴾، وتدل أيضًا على أن الرسول ﷺ صادق لأنها مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، فقد عجزوا أمام التحدي الإتيان بمثلها[٤]، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنــزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ [البقرة: ١٥٩]، فالبينات في الآية جمع بينة وهي الأدلة والبراهين والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس، فبين سبحانه ما يهدي الناس فعرفهم أن الله هو المقصود المعبود[٥].

وإذا كان الدليل لابد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها وتسمى بديهيات أو

(١) محمد المبارك: العقيدة في القرآن ص ٢٢.

(٢) ابن تيمية: النبوات ص ١٧٣.

(٣) ابن تيمية: نقض المنطق ص ١٩.

(٤) ابن تيمية: نقض المنطق ص ١٧٣.

(٥) نفس المصدر ص ١٦٢.

ضروريات أو أوليات إذ أنها معلومة بأنفسها، مثال ذلك، أنه إذا خاطب الله جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء وأثبت جنس ما جاءوا به، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى عليه السلام، خاطبهم بإثبات نبي بعده.

ومن الأدلة القرآنية الاستدلال على الخالق -عز وجل- بخلق الإنسان، لأن كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن مولودًا ومخلوقًا من علقة، ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم، فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان، فقد يتعجب ولكنه دليل عقلي مشاهد ملموس يعلمه البشر كافة بعقولهم، سواء أخبر به الرسول ﷺ أو لم يخبر، فهو إذن دليل عقلي، لأن بالعقل تعلم صحته، وبالإضافة إلى كونه عقليًا فإنه دليل شرعي أيضًا لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به [1]، ومن هذا القبيل أيضاً الاستدلال على البعث وإعادة الخلق بقدرة الله -عز وجل- على الخلق ابتداء [2].

بهذه القاعدة وقف السلف في وجه المتكلمين والفلاسفة -واستعاضوا بالأدلة القرآنية عن التأويلات الكلامية لدى شيوخ المعتزلة والأشاعرة، وكان ابن تيمية من أدق المستخدمين لهذه القاعدة، ثم امتدت طريقته السلفية حتى وقتنا هذا- والقرآن كما نعلم لا تنقضي عجائبه، فإذا نظرنا إلى آياته بمنظار العلماء المعاصرين أيضًا إذ الإعجاز البياني أو البلاغي لا يكفيان في عصرنا لمخاطبة أهله، فإننا نجد الإعجاز العلمي في القرآن طريقًا مناسبًا لأننا نعيش مبهورين من رؤية الاكتشافات العلمية المتوالية، ولو عدنا إلى آيات الله القرآنية نتدبرها لدلتنا على توافقها مع آياته الكونية، وتحتاج منا إلى إعمال فكر ونظر، فقد اقتضت الرحمة الإلهية أن يدل القرآن بنفسه، في سهولة ويسر على أنه من عند الله، فيجتمع داعي الفطرة مع الدليل النظري، لكل من طلب الحق بالقدر المشترك بين الناس من العقل والإخلاص.

وعلى سبيل المثال، لا الحصر، تفسير قوله تعالى: ﴿**وأغطش ليلها**﴾ [النازعات:٢٩]، أن المفسرين في الأزمنة الماضية فسروا الليل بهذا الذي يعرفون في الأرض مع أن الضمير في (ليلها) راجع إلى السماء المذكورة في قوله: ﴿**أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها**﴾ [النازعات: ٢٧] ثم جاء العلم فاستنبط أن السماء إذا جاوزنا

---

(١) النبوات ص ٥٢.

(٢) نقض المنطق ص ١٧٤.

جو الأرض هي سوداء حالكة بالنهار والشمس طالعة، لأن الضوء ذاته لا يرى وإنما يرى أثره منعكسًا عن المرئيات، ثم شاهد رواد الفضاء السماء حالكة السواد فعلا، وصوروا الأرض مرئية من القمر فإذا بالقمر والأرض منيرات بأشعة الشمس المنعكسة عنهما ولكن في سواد حالك عم الصورة (١) !!

كما كشف العلم الحديث عن تفسير قوله تعالى: ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما**﴾ [الأنبياء: ٣٠] أن الكون كله كان شيئًا واحدًا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم، فأصبح لدينا على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن، أولها تعدد العوالم فلكيًا، والثانية دخانية السماء في البدء، وتظهر المعجزة الثالثة في انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالاً في الأول (٢).

وبالإضافة إلى الآيات، فهناك طرق وبراهين أخرى يستخدمها القرآن الحكيم.

(٢) طرق البراهين القرآنية

١- **الميزان القرآني**: ويرى ابن تيمية أن القياس الصحيح هو الميزان المنـــزل من الله تعالى الذي يستدل به العقل، فإن من أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف، فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا فجعل حكمها واحدًا، قال الله تعالى: ﴿**الله الذي أنـــزل الكتاب بالحق والميزان**﴾ [الشورى: ١٧] وقال سبحانه ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد: ٢٥] وفسر السلف الميزان بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر أنه أنـــزل ذلك مع رسله كما أنـــزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط، ويبين أيضًا في موضع آخر أن القياس الصحيح هو من العدل الذي أنـــزله الله تعالى، وأنه لا يجوز أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح -لا قياس شرعي ولا عقلي، ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية، وليس في الشريعة شيء على خلاف القياس الصحيح على

---

(١) د. الغمراوي: الإسلام في عصر العلم ص ١٧٥- ١٧٦.

(٢) د. محمد جمال الدين الفندي: الكون بين الدين والعلم ص ٢٢٩ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧١م.

خلاف القياس الفاسد [١].

وبعد عرض مسهب مقارن للأقيسة المنطقية والميزان القرآني، يقر ابن تيمية أن الله تعالى يبين الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين [٢] وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله تعالى: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾ [الجاثية: ٢١] وقوله سبحانه: ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون**﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] أي هذا حكم جائر، لا عادل فإن فيه تسوية بين مختلفين. وقال عز وجل: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾ [ص: ٢٨] وقوله سبحانه: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا**﴾ [البقرة: ٢١٤].

وإذا سأل سائل، إذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل؟ وهذا السؤال في غير موضعه لأن صاحبه يفترض أن العقل مباين للشرع، وأن ما يعلم قسيمًا -أو مقابلا- للعلوم النبوية وبعبارة أخرى يجعل الأحكام منفصلة عن العلوم النبوية، فهذه نقلية سمعية وتلك برهانية.

والإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة إذا قرأنا القرآن، حيث يتبين منه أن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف، فإن الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه، ودلت على ما يفهمونه بفطرتهم التي خلقهم الله بها، فليست العلوم النبوية إذن مقصورة على مجرد الخبر كما يظنه أهل الكلام، بل الرسل -صلوات الله عليهم- بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علمًا وعملاً، وضربت الأمثال، وذلك بظهور دور الرسل الذين جاءوا بتكميل الفطرة وإصلاحها، فكملت الفطرة بما نبهتها وأرشدتها عليه مما كانت الفطرة معرضة عنه لأسباب الغفلة، وكذلك تصلح الفطرة وتعيدها إلى طبيعتها إذا قيست الآراء والأهواء الفاسدة، ويكون دور الرسل أيضًا إزالة الفساد وتذكير البشر لما كانت فطرهم

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٧١.

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٣.

معرضة عنه [١].

وكانت طريقة السلف الصالح تتلخص في الاستدلال بالأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العالم بما لا يقدر عليه المتكلمون بإتيانه، بل إن غاية ما يذكرونه قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي وصفها بقوله: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾ [الروم: ٥٨].

ولا يمل ابن تيمية من تكرار وإعادة القول بأن الأمثال المضروبة في القرآن الكريم هي الأقيسة العقلية، ويضيف إلى ذلك أنه يدخل فيها ما يسميه المناطقة براهين، وهو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية، بل إن لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمى الله تعالى آيتي موسى عليه السلام برهانين فقال سبحانه: ﴿**فذانك برهانان من ربك**﴾ [القصص: ٣٢] [٢].

٢- **قياس الأولى (على وزن الأعلى)**: ولعل أهم نقد لشيخ الإسلام ابن تيمية للقياس الأرسطاليسي أن هذا القياس إذا استخدم في الاستدلال على (واجب الوجود) تبارك وتعالى لا يدل على مايختص به، وإنما يدل على أمر مشترك، بينه وبين غيره،لأن قياس الشمول تستوي أفراده، والله تعالى ليس كمثله شيء.

ولا يجتمع سبحانه هو وغيره تحت كل تستوي أفراده، وقد جعلوا الوجود المطلق موضوع الفلسفة الأولى.

---

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٢٨٢.

(٢) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول ج ١ ص ١٤.

وجاء في (تفسير الجلالين) "أدخل يدك اليمنى بمعنى الكف في جيبك وهو طوق القميص وأخرجها تخرج) خلاف ما كانت عليه من الأدمة(بيضاء من غير سوء) أي: برص، فأدخلها وأخرجها تضيء كشعاع الشمس تغشي البصر (.. فذانك) بالتشديد والتخفيف أي العصا واليد.. والآية كاملة: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾.

ويقول الأصفهاني: (فالبرهان أوكد الأدلة،وهوالذي يقتضي الصدق أبدًا، لا محالة.. قال تعالى: ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[البقرة: ١١١] ﴿**قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي**﴾[الأنبياء: ٢٤] ﴿**قد جاءكم برهان من ربكم**﴾[النساء: ١٧٤] المفردات في غريب القرآن ص ٤٥.

فإن وصفهم (للوجود) - الذي هو موضوع العلم الإلهي عندهم- إما أن يكون (كل موجود) أو بعضه، هو (الواجب) أو (العكس) ولكن كون وجود الواجب أكمل من وجود الممكن من اتفاق الاثنتين في مسمى الوجود، فالوجود معنى كل مشترك ولكن هذا (الوجود الكلي) إنما يكون كليا في الذهن، لا في الخارج.

فإذا كان هذا هو (العلم الأعلى) عندهم، لم يكن (الأعلى) عندهم علمًا بشيء موجود في الخارج، بل علمًا بأمر مشترك بين جميع الموجودات، وهو مسمى (الوجود)، وذلك كمسمى (الشيء)، و(الذات) و(الحقيقة) و(النفس) و(العين) و(الماهية) ونحوها من المعاني العامة.

ويرى ابن تيمية أن العلم بهذا ليس هو علمًا بموجود في الخارج، لا بالخالق ولا بالمخلوق، وإنما هو علم بأمر مشترك كلي تشترك فيه الموجودات، لا يوجد إلا في الذهن[1].

وهذا بخلاف (العلم الأعلى) عند المسلمين، فإنه العلم بالله تعالى الذي هو في نفسه أعلى من غيره من كل وجه، والعلم به أعلى العلوم من كل وجه، والعلم به أصل لكل علم وموضوع هذا العلم هو «الوجود المطلق الكلي» المنقسم إلى واجب وممكن وقديم ومحدث وجوهر وعرض[2].

ولاختصاص الله بصفات الكمال بالإطلاق، فقد استعمل الأنبياء عليهم السلام في الاستدلال عليه تعالى قياس الأولى (على وزن الأحرى)، لإثبات أن كل ما يثبت لغيره من كمال فثبوته له بطريق الأولى وما تنـــزه عنه غيره من النقائص فتنـــزهه عنه بطريق الأولى.

والآيات الكثيرة في القرآن في هذا الصدد تستند إلى قياس الأولى قال تعالى: ﴿**ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم**﴾ [الروم: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿**ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون**

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ١٣٠- ١٣١.

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٢٦.

بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيزالحكيم﴾ [النحل: ٥٦- ٦٠] [(١)].

ويستخدم القرآن الكريم أيضًا قياس الأولى في بيان إمكان المعاد:

(أ) فتارة يخبر عمن أماهم ثم أحياهم، كما أخبر عن قوم موسى بقوله: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾** [البقرة: ٥٥- ٥٦].

وكما أخبر عن المسيح عليه السلام أنه كان يحيي الموتى بإذن الله.

وبنفس الطريقة أخبر عن أصحاب الكهف أنهم **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾** [الكهف: ٢٥] وقال تعالى: **﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾** [الكهف:٢١].

وقد ورد تفسير هذه الآية عن غير واحد من العلماء أن قضية البعث أثيرت في ذلك الزمان أيضًا فتنازع الناس حول حقيقته، هل هو بالأرواح فقط أم بالأرواح والأجساد؟ ولذلك أعثر الله تعالى هؤلاء على أهل الكهف، وعلموا أنهم بقوا نيامًا لا يأكلون ولا يشربون ثلاثمائة سنة شمسية وهي ثلاثمائة وتسع هلالية، فأعلمهم الله بذلك إمكان إعادة الأبدان [(٢)].

(ب) وتارة يستدل القرآن الحكيم على البعث بالنشأة الأولى، وأن الإعادة أهون من الابتداء، كقوله تعالى: **﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾** [يس: ٧٨، ٧٩].

(ج) وتارة يستدل على إمكان ذلك بخلق السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من إعادة الإنسان، كقوله تعالى: **﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾** [يس: ٨١] وقوله سبحانه: **﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾** [الأحقاف: ٣٣].

(د) وتارة يستدل على إمكانه بخلق النبات، كقوله تعالى: **﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابًا ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به**

---

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ١٥٠ - ٢٥٠.

(٢) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٣١٨- ٣٢٠.

بأمور كلية، لا يفيد العلم بشيء معين من الموجودات، بل الأيسر والأبين العلم بالمعينات لا الكليات [١].

هذا القياس الذي لا يتضمن إلا شكل الدليل وصورته أن الكليات تقع في النفوس بعد معرفة الجزئيات المعينة، أي أن النظريات العلمية العامة لا يتوصل إليها إلا بعد معرفة الجزئيات في العلوم المختلفة والتوصل منها إلى استنباط القانون العام الذي ينظمها جميعًا (ومن تدبر جميع ما يتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة في الطب والحساب والطبيعيات والتجارات وغير ذلك وجد الأمر كذلك) [٢].

ويستنتج من ذلك أن قياس التمثيل أقوى وأكثر يقينا من قياس الشمول لأنه بالأول يصل إلى المفردات المعينة للقضية الكلية، ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف، أي قياس الطرد وقياس العقل، وهو ما استخدمه القرآن الكريم بهدف الاعتبار.

(أ) الاعتبار:

ويمضي ابن تيمية في الاستشهاد بالآيات القرآنية الدالة على ذلك فإن ما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس، قال تعالى: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال سبحانه: ﴿**كذبت عاد المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٢٣]، فإنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا أصابه مثل ما أصابهم فيبقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة وهذا قياس الطرد. كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لايصيبه ذلك، وهذا قياس العكس، وهو المقصود من الاعتبار بالمكذبين، والاعتبار يكون بهذا وبهذا، قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا**﴾ إلى قوله: ﴿**إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ [آل عمران: ١٣] [٣].

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية أن كثرة الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٢٤٨- ٢٥٢.
(٢) السيوطي: صون المنطق ج٢ ص ١٥٥.
(٣) صون المنطق ج ٢ ص ١٥٦.

بالأول يصل إلى المفردات المعينة للقضية الكلية، ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف، أي قياس الطرد وقياس العقل، وهو ما استخدمه القرآن الكريم بهدف الاعتبار.

(أ) الاعتبار:

ويمضي ابن تيمية في الاستشهاد بالآيات القرآنية الدالة على ذلك فإن ما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس، قال تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال سبحانه: **﴿كذبت عاد المرسلين﴾** [الشعراء: ١٢٣]، فإنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا أصابه مثل ما أصابهم فيبقى تكذيب الرسل حدا من العقوبة وهذا قياس الطرد. كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لايصيبه ذلك، وهذا قياس العكس، وهو المقصود من الاعتبار بالمكذبين، والاعتبار يكون بهذا وبهذا، قال تعالى: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾** [يوسف: ١١١] وقال: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾** إلى قوله: **﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾** [آل عمران: ١٣] [(١)].

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية أن كثرة الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون في القرآن الكريم يرجع إلى الاعتبار في كل مرة يذكر فيها إنه ينكر فكرة (التكرار) في القرآن. لأن المقصود من إعادة القصة في سور وآيات متعددة هو توضيح عبرة جديدة لم يشر إليها في موضع آخر من الكتاب، ومن هنا فليس في القرآن تكرار أصلاً.

أما أهمية قصة موسى وفرعون فترجع إلى أنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن موسى عليه السلام بلغ الغاية القصوى من الإيمان وكلمه الله سبحانه تكليما بلا حجاب، بينما كفر فرعون بالربوبية وبالرسالة، وكان موقفه أشد إنكارًا من باقي المخالفين للرسل لأن أكثرهم لا يجحدون وجود الله (وربما يقصد هنا أنهم مشركون) كذلك لم يكن للرسل من التكلم لرب العالمين.

فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارًا لأصل الإيمان

---

(١) صون المنطق ج ٢ ص ١٥٦.

ولأصل الكفر، ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة، ولما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»[١].

(ب) اللزوم:

ويرى ابن تيمية أن الحقيقة المعتبرة في كل دليل هي (اللزوم)، فمن عرف أن هذا لازم لهذا استدل بالملزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللزوم ولا تصور معنى هذا اللفظ لأن الإنسان بفطرته السوية يعرف أن كل شيء مصنوع لا بد له من صانع، وكثيراً ما يستخدم الناس أمثال هذه القضية بقولهم: (إن كذا لا بد له من كذا أوأنه إن كان كذا كان كذا) وبغير استخدام لفظ (اللزوم) فإن الصياغة نفسها تتضمن العلم باللزوم باعتباره حقيقة معتبرة. كذلك الأمر في المخلوقات، فإن كل ما في الوجود فهو آية لله تعالى، مفتقر إليه محتاج إليه، لابد له منه، فيلزم من وجوده وجود الصانع[٢]، والآية القرآنية الآتية واضحة الدلالة على معنى اللزوم قال تعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾[الطور: ٣٥] وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء الأسرى عام بدر سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بسورة (الطور) قال فلما سمعت قوله تعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ أحسست بفؤادي يتصدع.

ولا شك أن في الآية تقسيمًا حاصرًا بين أمرين لا ثالث لهما، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع بالبداهة، أم خلقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعا. فعلموا أن لهم خالقًا خلقهم، وهو سبحانه وتعالى. ويمضي ابن تيمية في شرح الاستدلال العقلي في هذه الآية بقوله: (ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية، بديهية، مستقرة).

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ١٢ ص ٩.

(٢) فتاوى ج ٩ ص ١٨٩ كالمخلوقات الدالة على الخالق سبحانه وتعالى.

مفهوم السلفية في العصر الحديث
أو المفهوم الصحيح للعقيدة الإسلامية

اتضح لنا مما تقدم أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحًا جامعًا يطلق على طريقة السلف في تلقي الإسلام وفهمه وتطبيقه، ولذا فلم يعد محصورًا في دور تاريخي معين، ولكنه ممتد إلى العصر الحاضر، وبواسطته نصل إلى الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية.

وبعد أن تكلمنا على قواعد المنهج السلفي أصبح من السهل الاستدلال على أصحاب هذا المنهج على طول المراحل التاريخية، بما في ذلك العصر الحديث أيضًا، واستخلاص السمات البارزة لاجتهاداتهم فنذكر منها.

الشمول:

لقد أثرت المناهج الجزئية التي اصطنعها المسلمون في العصور المتأخرة على النظرة الصحيحة الشاملة التي عرفها الأوائل، وكانت نتيجة دراسة جوانب الإسلام المتعددة - التي كانت تؤلف في عهد الرسالة وحدة متماسكة لا تنفصل - منعزلاً بعضها عن بعض– فدراسة الجانب الاعتقادي تولاها المتكلمون وعلماء العقيدة، ودراسة الجانب العملي - سواء أكان في مجال العبادة أم العلاقات الاجتماعية (المعاملات) – تولاها الفقهاء، وتولى أهل التصوف والأخلاق الجانب النفسي الأخلاقي، وكل فئة من هذه الفئات أعطت من الإسلام صورة الجانب الذي تولت دراسته فضاع بذلك الارتباط الحيوي والتأثير المتبادل بين هذه الجوانب، مما أدى إلى تمزق وتشتت النفسية، والعقلية المسلمة. الأمر الذي ترتب عليه الجهل بالإسلام الحقيقي وإساءة الظن به، إلى نفور كثيرين من أبناء العصر الحديث وابتعادهم عنه وإطلاق أحكام خاطئة عليه واتخاذ مذاهب ومناهج نكدة عن أمم الغرب يظنون أنها تحل مشكلات مجتمعاتهم !!

لذلك نشأت الحاجة إلى عرض الإسلام في صورة مبرأة من الشوائب والتشويه شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نسبها ومواقعها..

هذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة، فالقرآن الكريم كثيرًا ما يعرض رسالة الإسلام عرضًا مجملاً شاملا في الكثير من آياته كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**

اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ [الحج: ٧٧].

وكذلك كان فهم الصف الأول من الصحابة المجاهدين في سبيل رسالة الإسلام. لقد كان فهمهم عميقًا شاملاً. فإذا حللنا مقالة ربعي بن عامر حين دخل على قائد الفرس رستم في القادسية للمفاوضة قبل بدء القتال لتأكد لنا كيف كان فهمهم لرسالة الإسلام في شمولها وتكاملها... فبعد أن أراد القائد الفارسي أن يثني القائد المسلم وأصحابه عن القتال بإغرائهم بالمال، كان جواب هذا الصحابي: ما لهذا جئنا، الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فقد شملت الفقرة الأولى تحرير الإنسان من جميع ألوان العبودية لغير الله. ويدخل في ذلك التحرر السياسي والاجتماعي وتخليص عبودية الإنسان لله وحده. ويدخل في مضمون الفقرة الثانية الجانب النفسي والأخلاقي الذي يجعل أهداف الإنسان أبعد مدى وأعلى من الأهداف المادية القريبة ذات الإطار الضيق، وتشمل الفقرة الثالثة تقويض الأنظمة الاجتماعية الجائرة وإقامة نظام اجتماعي عادل، ويشمل ذلك أحكام الإسلام في التشريع المالي والسياسي والاجتماعي (١).

وقد أدرك هذا المعنى علماء الصدر الأول من الإسلام وكبار الأئمة المجتهدين المشهورين.وكان في كل عصر من علماء الإسلام من يسير على هذا النهج، ومنهم ابن تيمية الذي يقرر أن الشريعة التي بعث الله بها محمدًا ﷺ جامعة لمصالح الدنيا والآخرة فيقول:

(والشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياسات والأحكام والولايات والعطيات..) وبعد ذلك يصرح مبينًا إنه ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كلما يصلح له فهو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير

---

(١) محمد المبارك: نظام الإسلام – العقيدة والعبادة، دار الفكر ١٩٧٣ ص ١٩- ٢١ (بتصرف).

ذلك[١].

وفي العصر الحديث يعمل السلفيون على استئناف الحياة الإسلامية على أساس هذا الفهم وطبقًا لهذه النظرة الرحبة الفسيحة لكل جوانب الإسلام كمنهج رباني لا يعتريه نقص.

ولكي ندرك سلامة هذا المنهج في صورته المعاصرة، يكفينا الوقوف على دور مفكري الإسلام وأئمته المتخذين طريقة السلف سبيلا للارتقاء بالأمة الإسلامية، بالمقارنة بفلاسفة الغرب، فقد انقسم هؤلاء بوجه عام في تعليل اضطرابات ومفاسد مجتمعاتهم إما إلى عامل سياسي – وهم المعتنقون للديمقراطية أو العامل الاقتصادي وهم أتباع كارل ماركس، أو بسبب الفقر الروحي الذي يقول به توينبي، وكان فرويد يعتقد أن المشكلة ترجع إلى كبت الغرائز وهكذا فإنهم جميعًا نظروا للمشكلة من جانب واحد بينما النظرية الجزئية تكون دائمًا عقبة في سبيل الإصلاح.

أما المسلمون السلفيون فقد اتفقوا على قاعدة اضطراد العلاقة بين تقدم المسلمين واستمساكهم بالإسلام. وعلى العكس تدهورهم وضعفهم عند الانسلاخ منه، فالعلاقة بينهما علاقة المد والجزر مع الإسلام والإيمان[٢].

وظهر إجماعهم أيضًا في صورة نبذ مظهر البدع والانحرافات وسمات الكهنوت وصور الخرافات كلها، فهذا هو السبيل الكفيل بالنهوض استجابة للحقيقة القرآنية المتكاملة التي تشمل -فضلا عن العقيدة الصحيحة- مبادئ السلوك والأخلاق، وتنظم حياة الفرد والأسرة، وإقامة أركان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأن السلف الصالح كانوا يفهمون الإسلام ويعملون به وفقًا لهذه القاعدة وقامت حضارة المسلمين في ذروتها على فهم هذا الأصل الجامع ورفض تجزئة الإسلام إلى دوائر الفقه والكلام والفلسفة والتصوف، وليس بدعًا اتفاقهم في استهداف الارتقاء بالمسلمين عن طريق الإسلام -فهمًا وتطبيقا- في عصر ظن البعض -مخطئًا- أن دور الدين قد انقضى زمنه ومن أقوى دواعي شجب هذا الزعم، تعليل سيد المؤرخين

---

(١) مجموع فتاوى الإسلام أحمد بن تيمية ط الرياض ١٣٨٣ هـ المجلد ١٩ ص ٣٠٦- ٣٠٩.

(٢) أبو الحسن الندوي: المد والجزر في تاريخ المسلمين ص ٩٢.

الأوروبيين المعاصرين -أرنولد توينبي- الذي حلل أسباب تدهور حضارة الغرب بإرجاعها إلى الانسلاخ عن المسيحية وظل يرفع صوته محذرًا منذرًا بني قومه إلى أن مات ملحًا على إحياء الإيمان المسيحي إذا أريد لهذه الحضارة الاستمرار [١].

---

(١) أثبتت الأحداث الأخيرة -خاصة بعد سقوط الماركسية- عودة الدين ليؤدي دوره من جديد.

(ينظر كتابنا: الصحوة الإسلامية - عودة إلى الذات) ط دار الدعوة -الإسكندرية.

«التقدم» لا الرجوع إلى الوراء[١]:

يزعم خصوم الإسلام بعامة، والسلفية بخاصة إنها دعوة رجعية وهو زعم خاطئ من جذوره فلا تتعارض السلفية مع التقدم، وهنا يجب التوقف عند مصطلح التقدم الشائع الآن لتفسيره وبيان مدلوله:

أ - ينبغي التمييز بين التقدم في أبحاث العلوم التجريبية وتسخير نتائجها في سبيل إتاحة حياة إنسانية أفضل - وبين الهبوط الروحي الذي تردت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة لأننا نرى أن الإنسان وحدة نفسية جسمية لن تتحقق له سعادته، بالفصل بين جانب المادة وجانب الروح في شخصه كما فعل فلاسفة الغرب، بينما الإسلام يعالج الإنسان ككيان متكامل.

ب - ينبغي ألا نغفل أحداث التاريخ -لا القديم فحسب- بل المعاصر أيضًا، الماثل أمام عيوننا، وما زلنا نعاني من آثاره المدمرة من جراء استعمار الغرب لنا وهتكه لمبادئ الإنسانية واستنـــزافه لثرواتنا، وما مصانعه وجيوشه ومدنه ومدارسه وجامعاته إلا نتاج أموالنا المنهوبة من عرق شعوبنا التي رأت على يد الغرب صنوف الهوان، وما زلنا نعاني من آثار تصرفات الغرب المتحضر على أرض فلسطين.

وهنا نلاحظ كما يلاحظ كل ذي عينين - الفرق الهائل بين المبادئ الأخلاقية والنـــزعات الإنسانية التي يتعامل بها الغربيون مع بعضهم البعض وبين قسوتهم في التعامل مع الشعوب المقهورة، وما أمثلة فيتنام وكمبوديا وفلسطين وجنوب أفريقية ببعيدة عنا، فأين التقدم الذي يدعيه أهل الغرب عند تعاملهم معنا؟

التقدم في الإسلام تقدم أخلاقي والمضي قدمًا في تحقيق الرسالة التي نيطت بهذه الأمة، مع الأخذ بأسباب العمران المادي في نواحي الحياة كلها.

ج - إن القديم في تاريخ أوروبا تعبير يطلق على العصور المظلمة في القرون

---

(١) ورد في (بروتوكولات حكماء صهيون) تفسير كلمة (التقدم) كما يلي:
ولا يوجد عقل واحد من الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة (التقدم) يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية.
ص ١٨٣ ترجمة محمد خليفة التونسي.

الوسطى السابقة لعصر النهضة لذلك فإن رفض أوروبا لتاريخها القديم موقف يتلاءم مع رغبتها في التقدم لأن الماضي يعد سببًا لتخلفها [١].

والعكس بالنسبة لنا تمامًا: فإن تاريخنا يعبر عن تقدم حضاري في كافة المجالات، وإذا طالبنا (بالترقي) إلى مستويات السلف، فإننا نعني بذلك اتخاذ العقيدة الإسلامية بمفهومها الشامل من توحيد لله -عز وجل- وخضوع له، وتحكيم شريعته لأنه خالق الإنسان وهو سبحانه أعلم به من نفسه، وتنفيذ شريعته في الحياة الإنسانية كلها، وما الحقل العلمي إلا أحد ألوان الأنشطة الإنسانية.وقد حقق المسلمون ألوانًا زاهية من الحضارة عندما اتخذوا من الإسلام عقيدة ومنهاجًا لأنه يحضهم على طلب العلم من المهد إلى اللحد، ويرفع من شأن العلماء فيجعلهم في مرتبة ورثة الأنبياء، ويبين لهم أنه سخر لهم ما في السموات والأرض جميعًا، إلى غير ذلك من الأدلة التي يشهد بها المعاندون قبل المؤيدين.

ولكننا في الوقت نفسه لا نـــزعم- ولا نظن أن عاقلاً يخطر له على بال - أن نضع الأمة الإسلامية في متحف للتاريخ !! بمعنى أن نطالب بإرجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة في الحياة العمرانية بأساليبها في الإنتاج والنقل والتعليم والتطبيب وتشييد المدن. وتجهيزالجيوش، وبناء المدارس والجامعات والمستشفيات الخ...

ويتضح لكل دارس للإسلام أن المفهوم الإسلامي للحضارة أرقى بكثير من التصور الغربي فلا نحن نرضى بتخلف المسلمين الحالي عن تحقيق النموذج الإسلامي، ولا نرضى في الوقت نفسه بتقليد الغرب في فلسفته ومضامينه الفكرية الشاملة.

وللإنصاف، نقول إن هذا التقدم في ناحيته المادية الماثلة أمامنا، ما هو إلا جزء من التصور الحضاري للإسلام فبينما يعلن القرآن الحكيم: ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض**﴾ [الجاثية: ١٣] يعلن أيضًا ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦]، فانتماؤنا للمجتمع الإنساني كله، يدفعنا إلى الحرص على تحقيق السعادة له. فلا نادي بالإسلام بغية السيطرة والاستعمار وامتصاص دماء الشعوب كما يفعلون، ولكننا نادي به لإنقاذ أنفسنا من مظاهر التخلف وأسباب

---

(١) ينظر كتابنا (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) دار الدعوة بالإسكندرية.

التأخر، لأن الناظر إلينا يستخلص فهمه للإسلام من تصرفاتنا وسلوكنا وأحوالنا، وقد صدق الدكتور سارطون الأمريكي بقوله: (لقد حجب المسلمون الإسلام)، ولكي نوجه أنظار العالم إلى أن أحوالنا الحاضرة لا يرتضيها الإسلام، ونعلن أيضًا أن سعادة البشر وطمأنينته في هذه العقيدة الفطرية.

إن أصحاب المنهج السلفي لا يمنعون إطلاقًا فتح النوافذ على العلوم التجريبية والاستفادة من النتائج العلمية والاكتشافات الباهرة في حقل الاختراعات التي تجمل الحياة وتذلل الصعوبات، بل إننا مأمورون بأن نسعى في الأرض لأن الله عزوجل سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعًا كما قدمنا، وأن النتاج العلمي لعلماء الإسلام يشهد بتنفيذهم لأوامر القرآن الكريم.

ولكن الأمر الذي نرى التوقف فيه ودراسته هو إعادة النظر وفحص الإنتاج الثقافي في العلوم الإنسانية لأنه يرتبط بتصورات للحياة تختلف عن تصوراتنا. هناك مادية وإنكار للرسالات السماوية أو انحراف عن الوحي الإلهي، نجم عنه شرور وآثام مما دفع بمفكريهم وفلاسفتهم إلى رفع أصواتهم لحماية مجتمعاتهم من شرورها، ولا شك أن إحصائيات الشرطة ونـــزلاء المستشفيات العقلية والنفسية وسجلاتها والجرائم المستمرة الآخذ رسمها البياني في الارتفاع كلها تشير إلى أزمة طاحنة.

فإذا حاولنا تقليد الأفكار والنظريات، فنحن هنا أمام أصول تخالف عقائدنا ومثلنا اختلافًا تامًا، وقد قامت حضارة اليابان الصناعية على نقل العلوم التجريبية، ولكن مع احتفاظها بعقيدتها ومقومات شخصيتها، فماذا يمنع من قيام نفس الظاهرة ونحن أصحاب العقيدة والمبادئ التي أنارت العالم عدة قرون؟

أما نبذ السلفية بحجة التسابق مع الزمن، واللحاق بكل ما هو جديد فمنهج خاطئ قائم على مفاهيم غربية متصلة بفلسفتها فإن ما نراه اليوم جديدًا سيصبح غدًا -وحتمًا- قديمًا، وقد كشفت النظرية النسبية عن خطأ تصور الزمن كامتداد لدى اليونان، فليست الموازنة إذن بين قديم وجديد موازنة صحيحة، ولكن ينبغي أن تتم المقارنة بين الحق والباطل أيا كان العصر والزمن لأن القيم لا تتغير ولا تتبدل، ونحن نفهم القصص القرآنية كعبرة لما حدث بالأمم الغابرة، وتجلية حقيقة الدفع بين أصحاب الحق وأهل الباطل، فليس الجديد مقدمًا بالضرورة عن سلفه.

الأصالة لا التقليد[١]:

وهنا نطرح سؤالاً لابد منه وهو: كيف يراد بنا تقليد الغرب الآن، في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا؟

بينما يجأر فلاسفته بالشكوى، باحثين عن خروج من مأزق حضارتهم؟ ولكننا سنجد من يحاول إيجاد العذر لهذه الحضارة والدفاع عنها بالرغم من أزماتها المتعددة، بدعوى أن مشاكلها مشاكل تقدم، وأزماتها ناجمة عن تطلعات وطموح في تنفيذ نتائج أفضل، وحتى مع افتراض صحة هذا الزعم، فإننا نرفض التقليد باحثين عن الأصالة، ولا تأتي الأصالة بترقيع الشخصية، بل بالارتباط بالعقيدة التي كانت حجر الزاوية في كيان هذه الأمة، وإلا فهل المطلوب منا نبذ نموذج حضاري تحقق لمئات السنين والالتفات إلى أمم الغرب نقلدها؟

وفي الإجابة على هذا السؤال نميز أولا كما قلنا بين تقليد مقومات الشخصية والعقائد والتصورات، وبين النتائج العلمية، فلا وطن للعلم، ولا جنسية للاكتشافات والأبحاث الإنسانية في الميادين المختلفة، لأنها نتاج جهود البشرية على اختلاف جنسياتها وأوطانها، فليس هناك طب أوروبي أو هندسة أمريكية أو فلك روسي أو جيولوجيا يابانية، وقد ساهمنا فيها كلها يومًا بجهود لا تنكر [٢].

المشكلة هي اختلافنا الأساسي معهم التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى

---

(١) ويلفت نظرنا ظاهرة انتصار الأصالة في تحول الباحثين عن الحقيقة بإخلاص وتجرد كالدكتور مصطفى محمود والأستاذ محمد جلال كشك) وأنهما ليعبران عن ظاهرة ذات مغزى، إذ ينتميان إلى الجيل الذي بهرته الكلمات البراقة في خلايا الشيوعية السرية عن التقدم المنتظر وتحقيق العدالة الاجتماعية على أوسع نطاق ولكن عندما تحولت الكلمات البراقة إلى العنف طارت خفافيش الأفكار التي لا تعيش إلا في الأوهام وانقشعت سحب الظلام عن حقائق مذهلة أصابتنا بكوارث نعرفها جميعًا.

ربما نجد العذر للبعض عند المرور بفترات المخاض لمن يحس بالأمل أن يبحث عن حلول جاهزة مستوردة بأي ثمن، ولكن بعد طول المعاناة، وبعد التأكد مع تكرار التجارب أن الغرب ما زال ينظر إلينا نظرة العداء، وها هي الحروب مع إسرائيل تدعم رأينا في شدة عداء الغرب لنا، وتحذرنا من البحث عن أنفسنا في مرآة أعدائنا.

(٢) ينظر كتابنا (مناهج البحث في العلوم الإسلامية) مكتبة الزهراء بالقاهرة.

وإفراده بالألوهية والربوبية، وماهية الإنسان، والغرض من خلقه وبيان ما له في اليوم الآخر، وما هي وسائله لسلوك أحسن السبل الممكنة في الحياة والارتقاء بها، ولعلنا نصدم أصحاب دعوى التجديد المتغربين النابذين للسلفية عندما نضع أمامهم الحديث النبوي «**إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، ويرى ابن تيمية أن التجديد بعد الدروس، فالتجديد ارتقاء وتقدم بالأمة لتسلك طريقها مرة أخرى، كلما بعدت عن الصحيح الأصيل المتوارث.

وتأتي آفة التقليد عندما ننسى أصالتنا، ولذا ينبغي التنبيه إلى الحكمة النبوية في الحديث الذي رواه البخاري «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون (الأمم) قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**». فقيل يا رسول الله: كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك؟ !» وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع حتى ولو دخلوا جحر ضب خرب، لتبعتموهم، قلنا يا رسولَ الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن غيرهم؟!**» وجحر الضب كناية عن العادات المخربة لسعادات الشعوب والأفراد، وقد اختلف الجواب حيث قيل «الفرس والروم» كان هناك قرينة تدل على أن الأمر يتعلق بنظم الحكم والسياسة والاجتماع. وحيث قيل «اليهود والنصارى» كان هناك قرينة تدل على تعلق الأمر بما هو من قبيل الديانات والعبادات [١].

وقد استقرأ ابن تيمية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الآمرة بترك التشبه بالأمم السابقة والمحافظة على أصالة الأمة الإسلامية، ثم استخلص في النهاية أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح للمسلمين لأن جميع الآيات دالة على ذلك، كذلك هناك من الآيات ما يدل على أن مخالفتهم واجبة.

وبصرف النظر عن دلالة الوجوب عن غيرها فإن مخالفتهم مشروعة في الجملة[٢] وسيأتي تعليله وبيانه للحكمة من المخالفة إبقاء على ذاتية الأمة الإسلامية ومحافظة

---

(١) عبد المتعال الجبري: المرأة في التصور الإسلامي -مكتبة وهبة ص ١٧٦- ١٧٧.

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ١٧، بتحقيق محمد حامد الفقي- مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

على كيانها المتميز عن الأمم السابقة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

أدلة الكتاب والسنة:

يرى شيخ الإسلام أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفاصيلها إنما تقع بطريق الإجمال والعموم أو الاستلزام، وتأتي السنة لتفسر الكتاب وتبينه، وتدل عليه وتعبر عنه.

والتزامًا بهذا الأصل يذكر آيات من الكتاب الحكيم ويتبعها بالأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ [المائدة: ٥١]. وقال سبحانه: ﴿**لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾ إلى قوله: ﴿**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكذلك ما ورد في السنة، فقد كان النبي ﷺ يكره مشابهة أهل الكتابين في الأصار والأغلال -حيث كان من صفته ﷺ كما قال تعالى: ﴿**ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ [الأعراف: ٥١].

لهذا فإنه زجر أصحابه عن التبتل وقال: «**لا رهبانية في الإسلام**» وأمر بالسحور ونهى عن المواصلة، وقال فيما يعيب به أهل الكتابين ويحذرنا عن موافقتهم «**فتلك بقاياهم في الصوامع**» (١).

وإننا نعتقد أن كتاب شيخ الإسلام (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) يحمل بين طياته أبلغ الدلالات وأقواها في تحذير الأمة الإسلامية من تقليد غيرها، ذلك لأن الأمة الإسلامية تميزت بخصائص تميزها عن غيرها من الأمم وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة بالمعنى الحضاري الصحيح حيث تتميزالحضارات كما قلنا بالعقائد والقيم والسلوك في المقام الأول ثم تأتي في المرتبة التالية المنتجات المادية.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٨.

وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه بالأمم الأخرى، في الحديث المشار إليه آنفًا، وعندما عاصر شيخ الإسلام ابن تيمية ألوانًا من تقليد فارس والروم، أخذ يحذر منه وينبه إليه (قد دخل منه في هذه الأمة من الآثار الرومية قولا وعملا، والآثار الفارسية قولا وعملا: ما لا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الإسلام، وبما حدث فيه)(١).

ولا ندري لو عاش معنا الشيخ عصرنا الحاضر ماذا عساه أن يقول !! وعلى أية حال فإنه يوضح المعالم الخاصة بهذه الأمة استنادًا إلى فهمه لآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، ويحلل الآثار الناجمة عن التشبه بالأمم الأخرى.

وكطريقة ابن تيمية في عرض أفكاره يبدأ بشرح المقصود بالصراط المستقيم بأنه يتضمن أمورًا باطنة وأخرى ظاهرة. والباطنة مقرها القلب: كالاعتقادات والإرادات وغيرها.والظاهرة: كالأقوال والأفعال.

وهذه الأعمال الظاهرة قد تكون أيضًا عادات: في الطعام واللباس والزواج والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وما شابهها.

والقاعدة الكلية التي ينبني عليها الحكم هي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم: قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم: مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة تقع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين من السلف الصالح من المهاجرين والأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما لا يكون لنا فيه مصلحة، لأن متابعتهم تورث محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم ويدعونا أيضًا إلى موافقتهم في أمور أخرى(٢).

وهكذا ينبهنا ابن تيمية إلى أصل جوهري من أصول الاستمرار الحضارة الإسلامية وفقًا لارتباطها بجذورها التي ازدهرت في العصور الأولى بفضل ما حققه الأوائل من أعمال، بحيث إننا نضمن عند متابعتنا لها، من استمرار هذه الحضارة، فإن أية حضارة ما هي إلا ثمرة العقائد والأعمال، وقد عبروا بهما عن القمة وبلغوا فيهما الذروة.

---

(١) ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم المصدر نفسه ص ١٠.

(٢) ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٣.

ويشرح ابن تيمية منافع الأعمال الصالحة في ذاتها ويعلل الحكمة من المتابعة أو المخالفة وأثرها على النفوس البشرية.

ويستدل على ذلك بما هو مجرب ومحسوس فإن اللابس لثياب أهل العلم - مثلاً- يجد في نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً، يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم،ويصير طبعه مقتضيًا لذلك (لا أن يمنعه من ذلك مانع)[١].

وعلى العكس من ذلك فإن المخالفة في الهدي الظاهر، توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان، موالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام (ويستطرد ابن تيمية: لست أعني مجرد التوسم به ظاهرًا، أو باطنًا بمجرد الاعتقادات التقليدية، من حيث الجملة كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أوظاهرًا أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين: أشد) [٢].

ويبلغ شيخ الإسلام في تعليله لسبب المنع حيث يرجعه إلى التأثير المتبادل بين الروح والجسم، أو الانفعالات النفسية وأعمال الجوارح الظاهرة، إذ أن الأمور الباطنة من اعتقادات وإرادات كالأقوال والأفعال من عبادات وعادات وغيرها، هذه الأمور الباطنة والظاهرة لابد بينهما من ارتباط ومناسبة (فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال: يوجب للقلب شعورًا وأحوالاً» [٣].

وتفسير ذلك أن طاعة الله تعالى وعبادته والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه تورث انشراحًا في الصدر وسعادة في النفس ونورًا في القلب، وبالضد من

---

(١) المصدر نفسه ص ١١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢.

وابن تيمية هنا في تحليله للصلة بين الملابس والنفس البشرية أسبق من كارليل صاحب كتاب (فلسفة الملابس) يقول كارليل (من ذا الذي رأى منكم أحد من اللوردات يحييه الناس بتحيته وهو في أسمال رثة وأطمار بالية... إلخ) ص١٩٦ ترجمة طه السباعي -مطبعة البشلاوي بمصر سنة ١٩٢٧م.

(٣) المصدر نفسه ص ١١.

ذلك فإن المعاصي تورث كآبة وظلمة القلب وتسبب الغم والحزن والضيق.

وأصل ذلك في وصف الفريق الأول قوله تعالى: ﴿**أولئك سيرحمهم الله**﴾ [التوبة: ٧١]، والفريق الثاني قوله تعالى: ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾ [المائدة: ٣٧]، إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية غمًّا وحزنًا، وقسوة وظلمة قلب وجهلاً، (إن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم. ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهي قلوبهم، من تناول مسكر أو رؤية مله -أي ملاهي- أو سماع معازف ونحو ذلك [١]).

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١.

المبحث الرابع

ما السبيل إلى حياة أفضل؟

((توجيهات شيخ الإسلام ابن تيمية في تزكية النفس وتحسين الأخلاق وإصلاح المجتمع)).



تمهيد:

بعد الانتهاء من شرح العقيدة الإسلامية وبيان معالمها ومشتملاتها، يحسن بنا سلوك الطريق العملي نحو الحياة الإسلامية الجديرة بأن نحياها كمسلمين، نتحرى فيها الصدق مع النفس التزامًا بأوامر الله تعالى ونواهيه، باذلين الوسع ما استطعنا إلى ذلك سبيلا سعيا وراء الحياة الأفضل فالأفضل، لأنفسنا ولمجتمعاتنا، ولأمتنا.

وكنا قد أشرنا في مقدمة الطبعة الأولى إلى علة اهتمامنا بشيخ الإسلام حيث يتميز بسلامة المنهج ووضوح الأفكار والاستناد إلى الحجج والأدلة، فضلا عن إحاطته العميقة بتفسير القرآن الكريم ودرايته الواسعة الدقيقة بالأحاديث النبوية والاستناد في اجتهاداته وآرائه ومواقفه إلى النصوص الشرعية.

وما الاستفادة بتراث علمائنا إلا بإذاعتها ونشرها على نطاق واسع ووضعها موضع التنفيذ -لا فرق بين السابق والمعاصر- لأننا نود الاستفادة من آرائهم في حل مشكلاتنا المعاصرة لأن البعث الحضاري الإسلامي يأتي أولاً بتغيير النفس وتزكيتها ومعرفة ذاتية الأمة ودورها. وما حيلتنا إذا كان القاسم المشترك الأعظم في حضارتنا الإسلامية إنها نشأت وترعرعت بين يدي الدين بعقيدته وشريعته وقيمه؟ وهي في إحيائها واستمرارها لن تقوم إلا وفق هذا القانون.

أما العناية بالخطط والمناهج والأهداف بغير تربية الإنسان وتعديل السلوك فإنها جهود ضائعة تذروها الرياح..!! فهل نطمع في إقناع القادة والساسة وأصحاب الرأي والقلم بضرورة الاهتمام بفرعي هذا الطريق معًا، وبنفس القدر من العناية والاهتمام؟

ولا يصدر رأينا هذا من استهانة بقدر الخطط والبرامج -بل نرى أننا أشد ما نكون حاجة إلى التخطيط العلمي ومتابعة التنفيذ العملي بدقة وحزم، ونأمل أن نرى أمتنا وفقًا لهذا التخطيط المحكم تتسابق مع غيرها في عصر الفضاء والكمبيوتر.

ولكن الإعداد النفسي والعلمي ومخاطبة عقول الناس بالإقناع وحثهم على المنافسة في تحقيق الأهداف، كل هذه الوسائل لابد أن تكون ملازمة ومصاحبة للخطط النظرية إذ ما جدواها بغير رجال مقتنعين بجدواها ومؤمنين بأهدافها بحيث

تجمعهم عقيدة راسخة وإيمان قوي؟

وكانت كتابات الشيخ في أغلبها فتاوى واجتهادات للرد على أسئلة واستفسارات المسلمين حينذاك، ومن ثم فإن إجاباته تعكس مشكلات عصره مقترنة بالتجارب التي خاضها، وربما تشبه في ملامحها العامة ما نعاني منه الآن إذا قام بتنقية الدين مما شابه من البدع الاعتقادية والعبادية، وحارب مظاهر الفساد والظلم المتفشية في المجتمع، وجاهد في سبيل الله لصد الهجمات «الاستعمارية» التخريبية للتتار، وبرهن على عجز الفكر الفلسفي -في منابذته لحقائق الوحي الإلهي- لتحقيق الحياة السعيدة للإنسان- فإن شرع الله تعالى هو الكفيل وحده بتحقيق هذه الحياة لأن الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو الأعلم به.

ونعتقد أننا إزاء الاتجاهات الفلسفية وآثار القوانين الوضعية على الفرد والمجتمع، ومشكلات الحضارة المادية، والتنافس على حياة الرفاهية ونسيان الغرض الأصلي الذي خلقنا من أجله، نعتقد أن استنباطاته للنصوص تكفل لنا الرؤية وسط هذا الضباب القاتم.

وعملاً باستنباطاته للقرآن والحديث، فإنه يوجهنا -نحن المعاصرين لبداية القرن الخامس عشر الهجري أيضًا -لكي نستمد منهما تصوراتنا الصحيحة، فتسلم عقيدتنا، ونأمل في حسن المصير من جهة، كما ترفعنا إلى قمم قلاع المقاومة فنقف في وجه الطوفان المدمر للغزو الذي بدأ منذ نحو قرن مضى، وما زال مستمرا.

أنه فعلا طوفان مدمر بلا أدنى مبالغة. وإذا طالبنا القارئ بالدليل، فإليه رأي الفيلسوف المسلم رجاء جارودي الذي يشفق على الشخصية الإنسانية أمام طغيان الأجهزة الحديثة التي حولت الإنسان إلى مجرد ألعوبة في يدها تشكله كيف تشاء، إذ يقول: «إن القوة المخيفة ليس فقط للوسائل الجماهيرية في نشر الثقافة من صحافة وإعلان وإذاعة وتليفزيون وسينما، بل دقة الأجهزة التي تدير تلك الوسائل بهدف إخضاع سلوك الأفراد لأغراض اقتصادية وأخلاقية وسياسية، خلقت وضعًا واقعيًا أصبح فيه أكثر جوانب سلوك الأفراد ظهورًا هو خضوعهم لمخططات بنيانية، وذلك ابتداء من المونتاج الإعلاني لردود الفعل المشروطة، حتى كليشيهات المناظر العاطفية مارين بردود الفعل السياسية عند الجماهير. تلك الردود المتبلورة في صيغ أعدت

إعدادًا مسبقًا [١].

الوحي الإلهي هو المنقذ وليس الفكر الإنساني:

كان نقد ابن تيمية يشكل أحد الأسلحة لحماية ذاتية الأمة في مواجهة الثقافة اليونانية وصدها ومنع تسربها للمسلمين، وكان هذا دأب علماء السنة، وينبغي أن يستمر كدور أساسي لعلمائنا في معركة الصراع بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي، استمساكًا بمنبع الإسلام: الكتاب والسنة.

والمنهج لا يحتاج إلى إعادة شرح، فإن استدلال الشيخ بالكتاب والسنة من الوضوح بحيث يكاد يختفي هو نفسه وراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يستنبطها. كل ما فعله هو أنه يذكرنا بها إذا قدمها لنا في شكل نسق متكامل، يتناول الإنسان: نفسه وإراداته ومصيره وما يسعده وما يشقيه، ولا يكتفي بالتفسير بل يحرك الإنسان بتذكيره بالوعد والوعيد ويحذره من المهالك على طريق الحياة، مبينًا صلة الاعتقادات بالأعمال ودور العبادات في إصلاح النفس وكيف تحقق السعادة والطمأنينة النفسية، وإصلاح المجتمع بتطبيق شريعة الله. وتظهر الصبغة العملية الواضحة في الإسلام: أنه دين (حركي ارتقائي) يصعد بالإنسان قدمًا ليصل إلى مرتبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

نقده للفكر الفلسفي: [٢].

تنبه شيخ الإسلام إلى عجز الفكر الفلسفي عن تحقيق السعادة للإنسان في حياته الراهنة فضلا عن الحياة الآخرة، وأظهر ما يتضمنه الكتاب والسنة من نصوص عن الإنسان وماهيته وسعيه الحثيث إلى تحقيق المنافع والملذات واجتنابه ما يجلب الأضرار والآلام.

وكان ابن تيمية معارضًا لآراء الفلاسفة العملية الأخلاقية أيضًا، وخلاصة المآخذ التي وجهها إلى الفلاسفة اليونان -ومن تبعهم من المسلمين -إن ما ذكروه

---

(١) جارودي: نظرات حول الإنسان ص٢٩٩ ترجمة د. يحيى هويدي -المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣م.

(٢) أو الأيدولوجي بلغة عصرنا.

من العمل لا يخضع لقواعد ملزمة، وإنما متعلق بالندب، أي اختيارًا لا إلزامًا، كما أنهم لم يثبتوا خاصية للنفس، وهي محبة الله تعالى وتوحيده، بل لم يعرفوا كما تلك النفس. أضف إلى ذلك أن علمهم بالله تعالى قليل مشتمل على كثير من الباطل، بينما يتحقق كمال النفس في العلم والإرادة معًا -العلم بالله تعالى وإرادة مرضاته وابتغاء وجهه عز وجل.

إنه بهذا التحليل لا يوجه نقده للفكر الفلسفي اليوناني فحسب بل للفكر الفلسفي عامة، لأن ظواهر القصور في هذا الفكر ما زالت قائمة ويسجلها الباحثون والكتّاب، ويلحظها الفلاسفة الغربيون أنفسهم.

يصف كولن ولسن النقطة التي وصل إليها تفكير القرن العشرين بقوله: «من المتوقع أن تصف الأجيال الآتية النصف الأول من هذا القرن بأنه «عصر اللا معنى»، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفننا وفلسفتنا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التي يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكننا استبدالها، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد في اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ أن الأمر ليس إلا مسألة تفكير في معرفة المدة التي تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق» [(١)].

ولنعد لنقد شيخ الإسلام التفصيلي لفلاسفة اليونان ومن تبعهم:

إن القصور يرجع إلى ثلاثة أسباب:

الأول:

إن الحكمة النظرية -أو الفلسفة عندهم- وهي أصل العمل لا تتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو العلم الذي تهتدي به النفوس.

الثاني:

إن الحكمة العملية التي لا تتضمن الأعمال التي تسعد بها النفوس الإنسانية وتنجو من عذاب الله تعالى.

(١) كولن ولسن: ما بعد اللامنتمي ص ١٥ (فلسفة المستقبل) ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق -دار الآداب- بيروت سنة ١٩٨١.

الثالث:

إن غاية الحد الأوسط -عند أرسطو ومن سار على دربه- هو تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم، أي أن مقصودهم ترك الإسراف فيهما، أضف إلى ذلك أن الفلاسفة لم يضعوا حدًا فاصلاً قاطعًا بين ما تحصل به النجاة والسعادة وما يسبب الشقاء والعذاب، بينما فعل ذلك الرسل والأنبياء حيث بينوه وأوضحوه، وقد قال تعالى: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينـــزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف: ٣٣].

ويظهر من هذه الآية التحريم المطلق بلا إباحة لأحد من الخلق بأي حال من الأحوال، بخلاف الميتة والدم ولحم الخنـــزير وغير ذلك فإنه يحرم في حال ويباح في حال.

ولكي يتبين التفسير الصحيح لهذه الآية ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦] يقارن ابن تيمية بينها وبين آيات أخرى تتضمن لام التعليل- كقوله تعالى: ﴿**ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم**﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿**كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم**﴾ [الحج: ٣٧] وقوله: ﴿**ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم**﴾ [المائدة: ٩٧] وقوله ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**﴾ [النساء: ٦٤] فهو سبحانه لم يرسله إلا ليطاع، ثم قد يطاع وقد يعصى. وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، فلم يذكر سبحانه وتعالى أنه خلقهم ليجعلهم عابدين، ولكن ذكر أنه فعل:

الأول:

أي الخلق، ليفعلوا هم.

الثاني:

أي العبادة، فيكونون هم الفاعلين لها فيحصل بفعلهم سعادهم وما يحبه ويرضاه لهم، إذ أن كل ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده، وفيه حكمة له،

وفيه رحمة لعباده [١].

الدين مصدر الإلزام الخلقي والأحكام الشرعية:

والتعليل للتحريم المطلق يرجع في رأي ابن تيمية إلى أن الفواحش متعلقة بالشهوة، والبغي بغير الحق يتصل بالغضب، والشرك بالله فساد في أصل العدل، فالشرك ظلم عظيم، وفساد العلم يرتبط بالقول على الله بغير علم، وهكذا حرم سبحانه وتعالى (هذه الأربعة وهي فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم). ويظهر لنا مما تقدم أنه يهتم باستخراج القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوك الإنسان، وأنه يخضع هذا السلوك لنظام محدد استخلصه من القرآن الحكيم.

إذا اخترنا تعريف «سدجويك» للأخلاق بأنها مجموعة قوانين شرعها للناس إله[٢]، فإننا نجد هذا المفهوم أكثر دقة وتفصيلا عند الشيخ السلفي، إذ أوضح أن رسالة الرسل والأنبياء جميعًا جاءت بأمر عبادة الله سبحانه وحده في مثل قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦] وقوله: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: «لما ذكر قصص الأنبياء»: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون * وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون**﴾ [الأنبياء: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦] نفهم من هذه الآيات وغيرها أن الغاية التي تتم بها سعادة البشر ونجاتهم هي عبادة الله وحده حيث أرسل الرسل والكتب لهذه الغاية، فلا تصلح النفوس وتزكوا إلا بها. ويفسر ابن تيمية قوله تعالى: ﴿**ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة**﴾ [فصلت: ٦] بأنهم لا يؤتون ما تزكوا به نفوسهم من التوحيد والإيمان، ومن ثم فإنهم يستحقون العذاب لقولـــه تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما**

---

(١) الفتاوى: ج ٨ ص ٥٥- ٥٦.

(٢) سد جويك: المجمل في تاريخ علم الأخلاق ص ٧٨.

دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨]، وفي هذا الأمر تتفق رسالة محمد ﷺ، مع رسالتي موسى وعيسى عليهما السلام، حيث وردت أول الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال له: «**أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر**»، وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذه هي أعظم وصية في الناموس، وهكذا اتفقت كثير من الكتب الإلهية على عبادة الله وحده، فلا نجاة للنفس الإنسانية ولا سعادة ولا كمال (إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذي لا أحب إليها منه) [١].

وقد أخبر الله تعالى في غير موضع من القرآن عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وتفسير هذه الآيات أنه بتلاوتها يحصل العلم لأن الآيات هي الدلالات والعلامات أي أنها تدلهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر به (وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته، فالتزكية تكون بطاعة أمره) [٢].

مفهوم الدين إذن له شقان أحدهما هو تزكية النفس بعبادة الله وحده، والثاني الطاعة فيما أمر به الله سبحانه، فجماع الدين أمر ونهي [٣]، وقد وردت الآيات التي تصف محمدًا ﷺ، بأنه ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومنها يظهر كمال رسالته «فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهي عن كل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث [٤]. وجاءت الحدود والعقوبات داعية إلى فعل الواجبات وترك الحرمات، ولم تفسد أمور كثيرة من الناس إلا بسبب تعطيل

(١) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ص ١٠٦.

(٢) ابن تيمية: النبوات ص ١٧٢.

(٣) الحسبة ص ١٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٣.

الحدود الشرعية [١].

وساق ابن تيمية الحديثين الدالين على رسالة محمد ﷺ، أحدهما: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، والثاني «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فكان الناس يطوفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا تلك اللبنة**».

أما الرسل قبله، فقد كان الله تعالى يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم**﴾ [النساء: ١٦٠]، وكما قال: ﴿**كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنــزل التوراة**﴾ [آل عمران: ٩٣] فربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث، وقد أكمل الله تعالى الدين للأمة الإسلامية بقوله ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا**﴾ [المائدة: ٣] وجعل ميزة هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوصفها بما وصف بها نبيها إذا لم يتم الأمر بجميع المعروف والنهي عن كل منكر إلا بواسطة الرسول ﷺ «**الذي تمم الله به مكارم الأخلاق المتدرجة في المعروف**» [٢].

ويهتم ابن تيمية بتفاصيل العقوبات الشرعية إذ لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بها، فيوضح الحدود التي يقيمها ولاة الأمور لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن [٣].

إن تطبيق شرع الله تعالى إذن هو ضرورة أخلاقية وضرورة اجتماعية.

ويتضح من كل ما تقدم أن مجموعة الأحكام الشرعية المتدرجة تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها صفة الإلزام، ولهذا فقد شرعت العقوبات داعية

---

(١) السياسة الشرعية ص ٨٥، ٨٦.

(٢) ابن تيمية: الحسبة ص ٦٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٠.

إلى فعل الواجبات، وترك المحرمات [١].

ولئن كان الثواب والعقاب من جنس العمل في قدر الله، فإن من عدله سبحانه الذي تقوم به السماء والأرض أن يكون ذلك في شرعه أيضًا (ولهذا شرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص في الدماء والأموال) [٢]، بل إنه ينبغي حسم مادة الشر والمعصية وسد ذريعته، مثال ذلك قول النبي ﷺ: «**لا يخلون الرجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما**»، ونهى عن الخلوة بأجنبية والسفر بها لأنه ذريعة إلى الشر، وقد تقيد الخلفاء الراشدون بهذه القواعد وطبقوها [٣].

ونرى أن ابن تيمية يتخذ موقفًا سليمًا في رده الإلزام في القوانين الأخلاقية إلى إرادة الله وأحكامه المطلقة، ودور العقوبات الشرعية في إصلاح المجتمعات.

(١) السياسة الشرعية ص ١٦٢.

(٢) الحسبة ص ٦٢.

(٣) السياسة الشرعية ص ١٦٣ وما بعدها.

الإنسان بين رغباته الحسية وإرادته:

يعرف ابن تيمية الإنسان بأنه «حي حساس متحرك بالإرادة[١] فله إرادة دائمًا، أما الغاية من هذه الإرادة فهي، إما المال وإما الجاه، وإما محبة الرجل للمرأة، وإما محبتها للرجل، وإما غير ذلك من الأمور المطلوبة في الدنيا، أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه، فيصبح منتهى حبه فتتحقق له العزة، لأن من لم يكن عبدًا لله، فلابد من أن يصبح عبدًا لغيره من أنواع المحبوبات التي تستعبده [٢].

ولهذا كان المثل الأعلى الذي ينبغي أن يسير بمقتضاه سلوك الإنسان المؤمن أن يكون مراده هو الإله (الذي يستحق أن يكون محبوبًا لذاته، وهذا هو العلة الغائبة الذي هو علة فاعلية للعلة الفاعلة) [٣] إننا نراه هنا يرد أخلاقية الفعل إلى النتائج والآثار، وإلى البواعث أيضًا، فالنفوس في حاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومحبوبها ومنتهى مرادها، ومن حيث هو ربها وخالقها [٤]، فالباعث على السلوك هو محبة الله جل شأنه، أما الهدف فهو أن يراد بالأعمال وجه الله وقد جاء الحديث يؤيد هذا المعنى في قول الرسول ﷺ: «**إن أول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل طلب العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارئ، ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجريء ورجل تصدق وأعطى ليقول هو جواد سخي**» إن هؤلاء الثلاثة الذين يبتغون الرياء والسمعة يقفون على طرف النقيض من أولئك الذين جعلوا أعمالهم ابتغاء مرضاة الله وحده، فكانوا على القمة من حيث الأفعال الأخلاقية كما يريدها الإسلام، حيث أوردهم الله سبحانه بعد النبيين في المرتبة وهم الصديقون والشهداء والصالحون (فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقًا، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل كان شهيدًا، ومن

---

(١) ابن تيمية: العبودية في الإسلام ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢.

(٣) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٠٩.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٧- ١٠٨.

تصدق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحًا) [١].

فالإنسان إذن له إرادة وعمل بهذه الإرادة، وإذا كان يستهدف بإرادته طلب اللذة في المأكولات والمشروبات وما تشتهيه الأنفس بما أحل الله، فهذه كلها من قبيل نعم الله على عباده، فقد تعرف الله سبحانه إلى عبده بالنعم ليشكره منذ ولادته طفلا، فالحياة نعمة، وإدراك اللذات نعمة (وأما الإيمان فهو أعظم النعم، وبه تتم النعم) [٢].

وإذا كان لفظ العبودية يتضمن كمال الذل والحب، فإن حب العبد لربه يحرك إرادة القلب، وبقدر هذه المحبة يقدم الإنسان على فعل ما يرضي الله (فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات [٣]. ويضرب ابن تيمية على ذلك مثلاً بالجهاد الذي هو بذل ما في وسع المؤمن وقدرته في تنفيذ ما يحبه الله ودفع ما يكرهه، والمحب لله ولرسوله يحتمل أكثر من غيره ممن يطلبون أغراضًا أخرى، كطلب الرياسة أو المال أو أمور أخرى قد تجلب لهم ضررًا ويسلكون طرقًا متعددة للحصول على مطلوباتهم، ومن ثم يخضعون لهذه الرغبات والأهواء بينما المؤمن أشد حبًا لله كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله**﴾ [البقرة: ١٦٥] وهنا يقول ابن تيمية: (إذا تبين هذا فكلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه) [٤].

ولكنه يضع شرطًا لهذه المحبة حتى يصبح سلوك الفرد بما يرضي الله، لأنه إذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفي النفس محبة انبسطت النفس بحقها فتقع في الرذائل [٥]، ولهذا فإنه يقرن النجاة من العقاب، مستشهدًا بقول من قال من السلف: (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف

(١) الحسبة ص ١١٠.
(٢) ابن تيمية: جامع الرسائل ص ١١٠.
(٣) العبودية في الإسلام ص ٣٠.
(٤) ن. م ص ٣١.
(٥) ن. م. ص ٣٩.

وحده فهو حروري- أي: كالخوارج- ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن)[١].

ومع هذا تبقى المحبة أصلاً لكل عمل ديني حيث يرجع إليها الخوف والرجاء والدليل على ذلك الآيات القرآنية التي تتناول الرجاء والخوف: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ [الإسراء: ٥٧] فإن (الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب) [٢].

النفس: سعادتها وشقاؤها:

للنفس قوتان: القوة العلمية، والقوة العملية [٣]، كما أن لها نوعين من الحياة إحداهما: طبيعية كحياة البهائم، وهي ليست الحياة الكاملة النافعة التي خلق لأجلها الإنسان، والثانية: الحياة الكاملة النافعة، أي: ما ينتفع به الحي لأنه لابد له من لذة يريدها أو ألم يتجنبه.

والنفس بطبيعتها متحولة، فهي حية، والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة، والإرادة والعمل من لوازم ذاتها (فإذا هداها الله علمها ما ينفعها وما يضرها، فأرادت ما ينفعها وتركت ما يضرها) [٤].

وقد تفضل الله سبحانه على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة: الفطرة والهداية العامة.

ففيما يتعلق بالفطرة، يأتي ابن تيمية بتفسيره للآية: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**

---

(١) جامع الرسائل ص ١١٢.

(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية: ص ٧١.

(٣) ابن تيمية: الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٠٩.

(٤) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٦٥.

ذلك الدين القيم﴾ [الروم: ٣٠].

وكذلك الحديثان: قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» وقوله ﷺ: «**يقول الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين. وحرمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنـــزل به سلطانًا**» [١].

ويستخلص ابن تيمية من ذلك أن النفس إذا تركت بفطرتها كانت مقرة لله بالألوهية محبة له تعبد إياه لا تشرك به شيئًا، ولكن سبب فسادها أن شياطين الإنس والجن يفسدونها بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل [٢].

وأما الهداية فهي هداية الله سبحانه بما جعل في بني البشر بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم، وبما أنزل من الكتب وأرسل من الرسل، إذ يتضح من قصص الأنبياء اشتراك نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل، ولم يكن بالبشر حاجة إلى الاعتبار بمن لا يشبههم ولكن الأمر كما **قال تعالى: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾** [البقرة: ١١٨] وقوله عز وجل: **﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾** [التوبة: ٣٠] وتظهر الحجة لأنه لولا (أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل -فرعون ومن قبله- لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط) [٣].

ولذلك تتمثل الهداية العامة للناس فيما جعل الله فيهم بالفطرة من المعرفة وأساليب العلم، قال تعالى: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾** [العلق: ١ - ٥] وقال تعالى: **﴿الرحمن علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾** [الرحمن: ١- ٣] وقال تعالى: **﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى﴾** [الأعلى: ١-٣] وقال عز وجل: **﴿وهديناه النجدين﴾** [البلد: ١٠].

---

(١) الحديث الأول ورد في الصحيحين، والثاني ورد في صحيح مسلم.

(٢) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٦٦.

(٣) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٨٤.

وأفضل النعم التي تتم بها السعادة هي نعمة الإيمان:

وقد خلقت النفس الإنسانية متحركة بالطبع حركة لابد فيها من البشر لحكمة بالغة ورحمة سابغة وإذا لم تخلق بهذا الوجه لكانت لخلق آخر غير الإنسان، وهذا هو الاستفسار الذي ورد على لسان الملائكة في قوله تعالى: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ [البقرة: ٣٠] [١].

والذنب من لوازم نفس الإنسان، ولذا فهو يحتاج إلى الهدى في كل لحظة، بل إنه إلى الهدى أحوج منه إلى المأكل والمشرب، وطلب الهدى في دعاء الفاتحة يعني أن العبد فقير إلى ربه -عز وجل- وهو في حاجة دائما إلى تعليم ربه (فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية.. لا يذكر ما يخص به كل عبد. ولهذا أمر الإنسان في مثل هذا بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله: يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه [٢] فالإنسان في حاجة دائمة إلى هداية ربه في العلم والعمل.

ولئن كان الذنب شرًا بالإضافة إلى العبد، فإن الحكمة منه تتضح في الحالتين:

الأولى:

أن الذنب يوجب ذل العبد لربه سبحانه وتعالى فيحصل للمؤمن بسبب ذنبه من الحسنات ما لم يكن يحصل له بدونها، كذلك فإنه إما أن يتوب فيصبح من التوابين الذين يحبهم الله، وإما أن يكفر الله عنه بالمصائب، يصبر عليها فترتفع درجاته [٣].

والثانية:

أن الإنسان يظل حذرًا من نفسه ولا يركن إليها لأنها مصدر الشر، فيستعيذ بالله من شرورها ومن سيئات أعماله سائلاً الله -عز وجل- إعانته على الطاعة

(١) المصدر نفسه ص ٧٩- ٨٠.

(٢) ابن تيمية: أمراض القلوب وشفاؤها.

(٣) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٨٣.

(فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر) [١].

علة السيئات: اجتماع الجهل مع الهوى:

ولكن، كيف يحذرنا الشيخ من الوقوع في الذنوب والسيئات، ويحثنا على فعل الحسنات، إنه يرى أن من خصائص العقل أن يسعى الإنسان لجلب ما يفيده ودفع ما يضره، فإذا اجتمع العقل والعلم، ردع العبد نفسه عن السيئات، لأن العالم هو الذي يخشى الله، كما قال السلف وذلك تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨] وذلك (يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم [٢]، والعلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخشية الدافعة إلى فعل الحسنات وترك السيئات، وعلى العكس فإن كل عاص (هو جاهل، ليس بتام العلم) [٣].

وفعل السيئات يرجع إلى اجتماع الجهل مع الهوى، فإن الغاية إما أن يعرفها الإنسان معرفة مؤكدة فيتجنب إتيانها، وإما أن يجزم بضرر مرجوح، فلا يفعل السيئة، لأن مرتكب الذنوب لن يقدم على فعلها إذا علم أنه سيعاقب، فإن عدم الجزم أو العجز عن الترجيح فربما بسبب الغفلة (والغفلة من أضداد العلم) [٤].

أما أعظم السيئات فهي جحود الخالق جل شأنه والشرك به، كما فعل إبليس وفرعون، فالأول يريد أن يعبد ويطاع من دون الله وأن يصرف الإنسان عن عبادة الله وطاعته، والثاني ادعى الألوهية بقوله: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤]. وقوله لموسى عليه السلام: ﴿**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩] ويرى ابن تيمية أن في سائر النفوس شعبة من ظلم وجهل هذين الجاحدين فإن لم (يعـــن الله العبد ويهديه وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان) [٥] لأنه في تخيله للنفس البشرية يلاحظ أنها مشحونة

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٣.

(٢) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٦٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٠.

(٥) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٨٦.

بحب العلو والرياسة [١].

يضاف إلى ذلك أن النفس لا تحمل داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه فحسب بل إن فيها أيضًا داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، ولذا يقسم الناس ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

من يرضى إذا أعطى مما يشتهيه من الشهوات والحلال والحرام ويزول غضبه، فهو ينظر إلى المعروف والمنكر من زاوية رغباته فإن أعطى رضي وإن لم يعط سخط، فهو أحيانًا ينكر المعروف ويحبذ المنكر طبقًا لما حصل عليه. وهذا هو الإنسان الظلوم الجهول.

القسم الثاني:

قوم لهم ديانة صحيحة يخلصون لله وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يخلصون لله وحده ويصبرون على ما يلاقون من أذى، فهم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

القسم الثالث:

قوم يجتمع فيهم ما لبعض القسمين الأول والثاني، وهو أغلب المؤمنين [٢]، أما تقسيمهم من حيث نفوسهم فالأولون هم أصحاب النفوس الأمارة بالسوء والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي**﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] وأهل هذا (القسم الثالث) هم أصحاب النفوس اللوامة التي تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها عليه وتخلط عملا صالحًا وآخر سيئًا[٣].

ولكن، ما الباعث الذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب السيئات دون الحسنات؟

يجيب ابن تيمية عن ذلك بأن سبب ما يقع الناس في السيئات هو الجهل، أي:

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦.

(٢) ابن تيمية: الحسبة ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٨٨.

عدم العلم بكونها تضرهم ضررًا راجحًا أو الظن بأنها تنفعهم نفعًا راجحًا.

(ولهذا يسمى حال فعل السيئات: الجاهلية، فإنه يصاحبها حال من حال الجاهلية) [١].

ولم يترك ابن تيمية المسألة معلقة، بل قدم الحلول التي تأخذ بيد الإنسان إلى فعل الحسنات [٢]، وهي خشية الله، والقضاء على الهوى بالإخلاص ثم التوبة عملا بقوله تعالى: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم**﴾ [الأنعام: ٥٤] فلا يزال المؤمن يخرج من الظلمات إلى النور ويتجدد له العلم والإيمان فيتوب مما تركه وفعله، ويزداد هدى (والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنب المشار إليه في الآية: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ [المطففين: ١٤]، وكما قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه**» [٣].

إن دافع السلوك ينبغي إذن أن يكون العبودية لله سبحانه واتباع أوامره واجتناب نواهيه وباختصار هو تزكية النفس التي يتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك عن طريق إتيان العمل الصالح وفعل الحسنات، فالعمل الصالح (هو فعل الحسنات، والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به من إيجاب واستحباب) [٤].

ضرورة الصدق وإخلاص النية في أعمال الدين والدنيا:

في بحث ابن تيمية عن أهمية الأمور الباطنة من العلوم والأعمال عرض لعدة مسائل ترتبط بضرورة الصدق والإخلاص وعقد النية، وكلها تتصل بالحديث:

---

(١) ابن تيمية: الحسنة والسيئة ص ٦٢.

(٢) العبودية في الإسلام ص ٣٧.

(٣) جامع الرسائل ص ٢٣٧.

(٤) ابن تيمية: العبودية في الإسلام ص ١٨.

((**القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده**)) ومن هذا الحديث يتطرق إلى علاقة البواعث بالسلوك، فإذا بحثنا في النتائج التي وصل إليها شيخ الإسلام، فإننا نراه يقرر أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها))[١]. ومفهوم الدين عنده يتسع فيشمل العقائد والعبادات وقواعد السلوك حيث وقع اختياره على الآية الجامعة التي تتناول كل هذا في قوله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبنظرة شاملة جامعة بين العمل الفردي والتكافل الاجتماعي بالتعاون على البر والتقوى، يقول شيخ الإسلام: (والسعي سعيان: سعي فيما نصب للرزق: كالصناعة والزراعة والتجارة، وسعي بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) [٢].

ويذكر ابن تيمية أن الآية الآنفة الذكر في وصف الصادقين في دعوى البر (الذي هو جماع الدين) [٣] وعلى العكس وردت آيات تصف المنافقين في مثل قوله تعالى: ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون**﴾ [البقرة: ١٠] فوصفهم بالكذب في هذه الآية وغيرها، فالصادق هو الذي يصدق في قصده ونيته وطلبه وإرادته وعمله وخبره وكلامه، والمنافق على الضد يكذب، ويصبح مرائيًا في عمله، لا يصدر عنه نية صادقة، قال الله تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس**﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٤٣.
(٢) الفتاوى ج ٨ ص ٥٤١ ط. الرياض سنة ١٣٩٨ هـ.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٢.

والإخلاص في العقيدة والعمل هو حقيقة الإسلام «إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره» [١] ويندرج تحته الأعمال الباطنة كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك، وهي كلها (خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) [٢] ثم يقرر ابن تيمية بعد هذا أن النية للعمل كالروح للجسد [٣].

ويقع اختيار ابن تيمية على حديث قدسي يستشهد به في مجال العمل وبواعثه في صلة العبد بربه عز وجل، وصلته بالناس أيضًا فقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله: يا ابن آدم إنما هي أربع، واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئًا، وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك**»، ويشرح ابن تيمية هذا الحديث فيوضح أن العبد يحب ويريد ابتداء ما يراه ملائمًا له، والله تعالى يحب ويرضى الغاية المقصودة في رضاه، والوسيلة المتبعة في ذلك [٤]، ونحن نفهم من الحديث أيضًا القاعدة التي تحدد علاقة الناس بعضهم ببعض في الأعمال.

وإذا كان لابد من النية في القلب، فإن القلب يحتاج إلى أن يربي وينمو عن طريقة تزكيته، ووسيلته القرآن الذي يزيل الأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن [٥].

والأعمال تابعة للاعتقادات، فإن صلحت صلحت، وإن فسدت فسدت

(١) المصدر نفسه ص ٤٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤.

(٣) السياسة الشرعية ص ٧١ وانظر أيضًا ص ١١٦.

(٤) التحفة العراقية ص ٤٦.

(٥) أمراض القلوب وشفاؤها ص ٦.

أيضًا، ولذا فإن الله يحاسب العبد على النية حتى لو لم يقدم على العمل، فإن من كان عازمًا على الفعل عزمًا جازمًا، وفعل ما يقدر عليه منه، كان بمنـــزلة الفاعل (كما جاء في السنن فيمن تطهر في بيته ثم ذهب إلى المسجد ليدرك الجماعة فوجدها قد فاتت، أنه يكتب له أجر صلاة الجماعة [(١)]، وكذلك من هم بسيئة و لم يفعلها كتب له حسنة كاملة، وهذا هو تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾ [يوسف: ٢٤] والبرهان المذكور في الآية هو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به، وكتب له حسنة كاملة، و لم يكتب عليه خطيئة إذا فعل خيرًا و لم يفعل سيئة [(٢)].

مما تقدم يتضح أن ابن تيمية يقرر أنه لابد للعمل من ركنين: النية والحركة مستندًا إلى حديث الرسول ﷺ: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**». ويقول: (فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية. لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد وجه الله بذلك العمل، والعمل المحمود هو الصالح وهو المأمور به) [(٣)].

أنواع الأعمال وكيف نختارها:

ينطلق ابن تيمية من قاعدة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، بل يذهب إلى أكثر من هذا فيجعل من التفكير العقلي والتأمل في آيات الله تعالى أسبابًا لترسيخ الإيمان في القلب وتعميقه. وصلة العقل بالإيمان هنا تذكرنا بكلمة جارودي الجامعة (إن الإيمان عقل بغير حدود) !!

إن عوامل تقوية الإيمان كثيرة (مثل استماع القرآن، ورؤية أهل الإيمان، والنظر في أحوالهم، ومعرفة أحوال النبي ﷺ ومعجزاته، والنظر في آيات الله تعالى، والتفكر في أحوال الإنسان نفسه، والضروريات التي يحدثها الله للعبد تضطره إلى الذل إلى الله والاستسلام له، واللجوء إليه) [(٤)].

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ١ ص ١٠١.
(٢) أمراض القلوب وشفاؤها ص ٩.
(٣) الحسبة ص ٧٦.
(٤) الفتاوى ج ٧ ص ٦٥٠.

ومع هذه الطرق الدائرة في فلك النظر والتفكر والتأمل والدراسة العلمية.

يأتي البحث عن الطرق العلمية التي يقوى بها الإيمان، فهل نبدأ بالزهد أم بالعلم أم بالعبادة؟ أم نجمع بين ذلك كله بحسب الطاقة؟

أجاب شيخ الإسلام بقوله:

لا بد من الإيمان الواجب، والعبادة الواجبة، والزهد الواجب، ثم الناس يتفاضلون في الإيمان، كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفضائل، والناس يتفاضلون في هذا الباب: فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما. فالمشروع لكل إنسان. بفعل ما يقدر عليه من الخير، كما قال تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن: ١٦].

وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا، إذا كان متعذرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة، فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه من تكلف عمل ما لا يأتي به في وجهه).

ويقسم الزهد إلى قسمين: إحداهما: الزهد ضد الرغبة كالبغض المخالف للمحبة والكراهية المخالفة للإرادة، والثاني: الشيء المزهود فيه.

وبالمعنى الأول فإن حقيقة المشروع منه أن يكون كراهية العبد وبغضه وحبه تابعًا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه، فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه ويسخط ما يسخط الله بحيث لا يكون تابعًا هواه بل لأمر مولاه.

وبالمعنى الثاني فمن الملاحظ أن كثيرًا من الزهاد في الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما أحبه الله ورسوله ﷺ وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله ﷺ، ولهذا كان في المشركين زهاد وفي أهل الكتاب زهاد وفي أهل البدع زهاد.

والآن، بعد أن عرفنا أن سلوكنا ينبغي أن يكون تابعًا لما يحبه الله تعالى ويرضاه ووفقا لما يأمرنا به وينهانا فما الطريق للوصول إلى ذلك؟ يجيب الشيخ على ذلك مستدلاً بالحديث الصحيح: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**..»

وما دام الأمر كذلك فينبغي علينا الاجتهاد في فعل المأمور وترك المحظور والاستعانة به -عز وجل- على ذلك، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

وفي السنن أن النبي ﷺ قضى على رجل فقال المقضي عليه: «حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**».

ويشرح ابن تيمية الحديث ببيان أن النبي ﷺ قد أمر العبد بأن يحرص على ما ينفعه، ويستعين بالله على ذلك.

ولكن المنفعة في الحديث مشروطة بالاجتهاد في الخير، وهو العبادة (فإن كل ما ينفع العبد فهو مأمور بطلبه، وإنما ينهى عن طلب ما يضره -وإن اعتقد أنه ينفعه- كما يطلب المحرمات وهي تضره، ويطلب المفضول الذي لا ينفعه، والله تعالى أباح للمؤمنين الطيبات وهي ما تنفعهم، وحرم عليهم الخبائث وهي ما تضرهم) [(١)].

ولكن، ربما يرد بخاطر القارئ ما يجول في الأذهان عن ارتباط الأوامر الدينية بالنفع والضرر. أي: هل الأوامر تتعلق فقط بتحقيق النفع وتجنب الضرر، أم هناك حكم أخرى في بعض الأوامر الدينية نجهل الحكمة منها؟

إزاء هذه الخواطر يجيبنا ابن تيمية:

ينظر شيخ الإسلام إلى الحكمة من الأوامر الدينية الشرعية مقسمًا إياها إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) الفتاوى ج ٧ ص ٦٥٢، ٦٥٤.

إحداها:

أن تكون في نفس الفعل -وإن لم يأمر به- كما في الصدق والعدل ونحوها من المصالح الحاصلة لمن فعل ذلك، وإن لم يؤمر به. والله تعالى يأمر بالصلاح وينهى عن الفساد، فإنه سبحانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، ولهذا لاحظ ابن تيمية أن الله تعالى ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة.

النوع الثاني:

أن ما أمر به ونهى عنه صار متصفًا بحسن اكتسبه من الأمر وقبح اكتسبه من النهي كالخمر التي كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة والصلاة إلى الصخرة ببيت المقدس التي كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة. فإن ما أمر به يحبه ويرضاه وما نهى عنه يبغضه ويسخطه.

وهو إذا أحب عبدًا ووالاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه وعاداه. وكذلك المكان والزمان الذي يحبه ويعظمه كالكعبة وشهر رمضان - يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه بحيث يحصل في ذلك الزمان والمكان من رحمته وإحسانه ونعمته ما لا يحصل في غيره.

فإن قيل الخمر قبل التحريم وبعده سواء فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح.

قيل ليس كذلك بل إنما حرمها في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها. وليس معنى كون الشيء حسنًا وسيئًا مثل كونه أسود وأبيض بل هو من جنس كونه نافعًا وضارًا وملائمًا ومنافرًا وصديقًا وعدوًا ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التي تتغير بتغير الأحوال. فقد يكون الشيء نافعًا في وقت ضارًا في وقت، والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح كما لو حرمت الخمر في أول الإسلام، فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة و لم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم، ولا كان إيمانهم ودينهم تامًا حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة فلهذا وقع

التدريج في تحريمها فأنزل الله أولا فيه: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم أنزل فيها لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام أثناء القراءة، آية النهي عن الصلاة سكارى «النساء: ٤٣» ثم أنزل الله آية التحريم «المائدة: ٩٠».

النوع الثالث:

أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر وليس في الفعل البتة مصلحة، لكن المقصود ابتلاء العبد هل يطيع أويعصي، فإذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالأمر فينسخ حينئذ، كما جرى للخليل في قصة الذبح: فإنه لم يكن الذبح مصلحة ولا كان هومطلب الرب في نفس الأمر، بل كان مراد الرب ابتلاء إبراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد، ولا يبقى الله أن يهبه إياه وهو خليل الله - فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يبقى في قلبه ما يزاحم به محبة ربه.

﴿**فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين**﴾ [الصافات: ١٠٣: ١٠٦] ومثل هذا الحديث الذي في (صحيح البخاري) حديث أبرص وأقرع وأعمى كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل [١].

وفيما يلي نص الحديث المشار إليه:

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس، فمسحه، فذهب قذره، وأعطي لونًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟قال: الإبل أو قال: البقر -شك الراوي- فأعطي ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب**

---

(١) ابن تيمية: جواب أهل العلم والإيمان ص ١٩٩ - ٢٠١ ط. دار الكتب العلمية- بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

عليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملا قال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم فأعطي شاة والدًا فأنتج هذا وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن، والمال بعيرًا أتبلغ به في سفري، فقال:الحقوق كثيرة فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. أتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد هذا فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله -عز وجل- فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» (قال النووي: متفق عليه - رياض الصالحين باب المراقبة).

وفي ضوء هذا الشرح يأتي إلى تفسير قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦] فهي متعلقة بالإرادة الدينية الشرعية، وقد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى: إن الغاية التي نحب لهم ونرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة فهو العمل الذي خلق العباد له، أي: هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادمًا لما يحب ويرضى، ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته وعادمًا لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه... »[1].

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٧٨.

محاسن الأخلاق:

وهنا يتخذ شيخ الإسلام من العبادات الدعامة الأساسية لمحاسن الأخلاق ومكارمها: ففي دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يجمع ابن تيمية في باب المعروف أعمال العبادات كلها. والإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.والإحسان وهو أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. وسائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة أي إخلاص الدين لله والتوكل عليه.والرجاء لرحمته والخشية من عذابه والصبر لحكمه والتسليم لأمره. وكلها من الأمور التي تلمح فيها مدى قوة البواعث من على الأعمال. ثم يقرن ابن تيمية بين العبادات وغيرها من أنواع السلوك التي تعد أقرب إلى محيط الأخلاق. ولكن الاقتران يدلنا على أنه لا يفرق بينها وبين أعمال العبادات لأن قواعد الأخلاق في الإسلام لا يمكن فصلها عن أصوله. أنه بعد سرد تفاصيل أعمال العبادات على سبيل الحصر. يأتي بغيرها من الأعمال بقوله: (ومثل صدق الحديث.والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها. وبر الوالدين. وصلة الأرحام. والتعاون على البر والتقوى. والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والسلوك. والعدل في المقال والفعال).

وهكذا يضم ابن تيمية هذا كله تحت اسم «المعروف» المأمور به. ويبدو أنه بعد ما ورد في آخر عبارته من قبيل أخلاق الكافة التي ينبغي عليهم التقيد بها. ثم يذكر بعد ذلك ما يرتقي بالإنسان إلى مكارم الأخلاق المندوب إليها. مثل (أن تصل من قطعك. وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك) قال الله تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣][(١)].

يفهم من الآية أن محاسن الأخلاق تقتضي (أن تصل من قطعك بالسلام

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيادة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال. وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض) ويعتبر أن بعض هذا واجب وبعضه مستحب [١].

أما الخلق العظيم - الذي وصف به الله محمدًا ﷺ فإنه يعني (الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقًا) وهو أيضًا ما عبرت عنه السيدة عائشة -رضي الله عنها- بقولها: «**كان خلقه القرآن**». حقيقة ذلك (امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر) [٢].

ويتضح لنا بدليل آخر فهم ابن تيمية لشمول دائرة الإسلام جوانب العقائد والعبادات والأخلاق أيضًا لأن بيان ما تقدم كله يدخل تحت الأمر بتقوى الله. فإن تقوى الله تجمع (فكل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا وما نهى عنه تحريمًا وتنـــزيهًا. وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد) [٣]..

ومضى شارحًا ما وصى به النبي ﷺ معاذًا لما بعثه إلى اليمن «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**» فقد تضمن هذا الحديث حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد. وحق الناس وهو أن يخالقهم بخلق حسن» [٤] وتقوى الله تشمل هذا كله لأن التقوى هي (فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه[٥] والتقوى أيضًا هي الدين كله (لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥] [٦].

إن إخلاص العبد لربه عبادة وعملا هو ينبوع الخير فما هي أعمال الخير؟.

يورد ابن تيمية حديثًا ورد على لسان موسى ؏: «**قال موسى: يا رب أي**

---

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤- ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٠.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٣٥.

عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: أي عبادك أعلم؟قال: الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدل على هدى أو ترده عن ردى. قال: أي عبادك أحلم؟ قال: الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه» (فذكر في الحديث الحب والعلم والعدل. وذلك جماع الخير)[1].

أما تفصيل ذلك فيأتي على الترتيب الآتي:

إنه يعني بالمحبة أن يكون القلب محبًا لله وحده مخلصًا له الدين. ويضرب مثلاً على ذلك بيوسف عليه السلام الذي كان محبًا لله مخلصًا له فوصفه تعالى بقوله ﴿**لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾ [يوسف: ٢٤] بعكس امرأة العزيز التي كانت مشركة فابتليت بالعشق. ولا يبتلى به أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه. ولكن القلب المنيب إلى الله الخائف منه يصرف عنه محبته إلى غيره. ويدفعه فعل الطاعة محبة لله وخوفًا منه - ولما كان الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية- فإن المؤمن كلما فعل الطاعة وترك المعاصي. قوي حبه لله وخوفه منه «فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره» [2] وقد بين الله أن محبته توجب اتباع الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١] فالاتباع والتقيد بقواعد الشرع. بعكس الذين زعموا محبة الله و لم يتقيدوا بشريعته.

إذ قالت اليهود والنصارى: ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ [المائدة: ١٨] وهذا ادعاء للمحبة دون دليل مع ما فيه من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية. ولهذا قرن الله الخشية بها في قوله تعالى: ﴿**هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود**﴾ [ق: ٣٢ - ٣٤].

والعلم أيضًا أحد البواعث على فعل الخير. والعلم النافع هو أصل الهدى الذي يؤدي إلى الحق وهو الرشاد ومصدر الضلال العمل بغير علم كما أن سبب اتباع

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٨٥.

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها ص ٣١.

الهوى هو الغي قال تعالى: ﴿**والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾ [النجم: ١، ٢] وكان معاذ بن جبل يرشد إلى طلب العلم والحث عليه.

قال: (عليكم بالعلم. فإن طلبه لله عبادة. ومعرفته خشية.والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة.ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبده وبه يمجد ويحد. يرفع الله بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم. وينتهون إلى رأيهم) ولذا فإن ابن تيمية يذهب إلى أن الدين كله هو علم بالحق وعمل به [(١)].

أما عن العدل كأساس لكل خير. فإن من رأي الشيخ السلفي أن صلاح حال الإنسان في العدل وإن فساده في الظلم [(٢)].وتتضح ضرورة إقامة العدل والحكم به من قوله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنــزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وأنــزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾ [الحديد: ٢٥] (فذكر الله أنه أنزل الكتاب والميزان وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط. ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر) [(٣)].

كما حرم الله البغي بغير الحق. فالعدل أساس استقامة أمور الناس وإن اشتركوا في أنواع من الإثم. ولا تستقيم أمورهم مع الظلم في الحقوق. وإن لم يشتركوا في الإثم، ولهذا قيل: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة)[(٤)]، وقد جاء الحديث أيضا محرمًا الظلم. إذ قال النبي ﷺ: «**ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم**» فبين الحديث أن الباغي والظالم يصرعان في الدنيا بالرغم من احتمال أن يصبحا مرحومين في الآخرة.

والنفس الإنسانية فيها داعي الظلم لغيرها بواسطة العلو عليه. والحسد له والتعدي عليه في حقوقه كما أنها تظلم نفسها (بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث)[(٥)].

(١) المصدر نفسه ص ٥٨.
(٢) أمراض القلوب وشفاؤها ص ٣١.
(٣) التحفة العراقية ص ٤٢.
(٤) الحسبة ص ٨٦.
(٥) نفس المصدر والصفحة.

ولهذا شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتضييق الخناق على الأعمال الناجمة عن ظلم الناس بعضهم لبعض. وظلمهم لأنفسهم بفعل المنكرات.ويؤمر بما فيه من داعي الخير الذي يدعوه إلى العلم والصدق وأداء الأمانة، وأن يقابل السيئات بضدها من الحسنات (كما يقابل الطبيب المرض بضده فيؤمر بأن يصلح نفسه. وذلك بشيئين. فعل الحسنات وترك السيئات) [1].

انتهى بحمد الله تعالى.

---

(١) نفس المصدر ص ٩٢.

الفهرس